



جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

رسالة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

بغنوان

القواسم وعلاقاتهم الإقليمية والدولية
(٩١١ - ١٢٣٥هـ / ١٥٠٦ - ١٨٢٠م)

إشراف: أ. د. محمد حبيب صالح

إعداد : مؤيد باسم حمزة

٢٠٠٩/١٠/٢٠م

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الفهرس.....	٢
المقدمة.....	٥

الفصل الأول

الأوضاع العامة في ساحل عُمان قبيل هجرة القواسم إليه.....	١٣
أولاً: موقع عُمان الجغرافي وأهميته الإستراتيجية.....	١٤
ثانياً: أوضاع عُمان قبيل الغزو البرتغالي للخليج العربي.....	١٥
ثالثاً: حركة الكشف الجغرافية البرتغالية.....	١٦
رابعاً: الغزو البرتغالي للخليج العربي.....	٢٠
خامساً: مواقف القوى الإقليمية من الغزو البرتغالي للخليج العربي.....	٢٤
سادساً: الثورات الشعبية ضد البرتغاليين في ساحل عُمان والخليج العربي.....	٢٦
أ- ثورة قلهاث (١٥١٩ - ١٥٢٠م).....	٢٦
ب- ثورة الجمارك في ١٥٢١م.....	٢٧
ج- ثورة هرمز في عام ١٥٢١م.....	٣١
سابعاً: الصراع الفارسي البريطاني - البرتغالي للسيطرة على هرمز.....	٣٧
ثامناً: اتفاقية ميناب عام ١٦٢٢م ونهاية الوجود البرتغالي في هرمز.....	٤٥

الفصل الثاني

القواسم ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عُمان حتى	
عام ١٧٤١م.....	٥٣
أولاً: قبائل القواسم وهجرتهم إلى ساحل عُمان.....	٥٤
ثانياً: دور اليعاربة والقواسم في طرد البرتغاليين من عُمان (١٦٤٠ - ١٦٤٩م).....	٥٨
ثالثاً: أسباب انهيار النفوذ البرتغالي في عُمان والخليج العربي.....	٧٥
رابعاً: الحرب الأهلية في عُمان ١٧٢٢ - ١٧٤١م ودور القواسم فيها.....	٧٦
- بلعرب بن ناصر وتكريس الانقسام إلى هنائية وغافرية (١٧٢٢-١٧٤١م).....	٨٠
خامساً: دور القواسم في الحياة الاقتصادية في عُمان في عهد اليعاربة ١٦٢٤ -	
١٧٤١.....	٩٤

- سادساً: الحياة الاجتماعية في عهد اليعاربة والقواسم..... ٩٧
- أ- قبائل ساحل عمان (في عهد اليعاربة والقواسم)..... ٩٨
- ب- دور المرأة في عهد القواسم واليعاربة..... ٩٩
- ج- الرقيق..... ٩٩
- سابعاً: أسباب سقوط دولة اليعاربة..... ١٠٠

الفصل الثالث

- القواسم وعلاقاتهم الإقليمية (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)..... ١٠٣
- أولاً: العلاقات بين القواسم وعمان (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)..... ١٠٧
- أ- المرحلة الأولى (١٧٤١ - ١٨٠٠ م)..... ١٠٧
- ب- المرحلة الثانية (١٨٠٠ - ١٨٠٤ م)..... ١١٥
- ج- المرحلة الثالثة (١٨٠٤ - ١٨٢٠ م)..... ١١٩
- ثانياً: العلاقات بين القواسم والدولة السعودية الأولى (الدولة الوهابية)..... ١٢٢
- أ- المرحلة الأولى (١٧٩٧ - ١٨٠٠ م)..... ١٢٣
- ب- المرحلة الثانية (١٨٠٠ - ١٨١٨ م)..... ١٢٦
- خلع الشيخ سلطان بن صقر القاسمي من قبل الوهابيين..... ١٢٧

الفصل الرابع

- القواسم وعلاقاتهم الدولية (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)..... ١٣٢
- أولاً: العلاقات بين القواسم والفرس (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)..... ١٣٣
- ثانياً: العلاقات بين القواسم وبريطانيا (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)..... ١٣٨
- ١- الحملة البريطانية الأولى ضد القواسم في عام ١٨٠٥م..... ١٤٣
- ٢- الحملة البريطانية الثانية ضد القواسم ١٨٠٩ - ١٨١٠م..... ١٤٥
- أ- معركة شناصر في كانون الأول ١٨٠٩م..... ١٥٠
- ب- نتائج الحملة..... ١٥٢
- ثالثاً: الحملة البريطانية الثالثة ضد القواسم عام ١٨١٦م..... ١٥٣
- رابعاً: الحملة البريطانية الرابعة ضد القواسم عام ١٨١٩م..... ١٥٧
- خامساً: المعاهدة العامة للسلام بين القبائل العربية والحكومة البريطانية عام ١٨٢٠م..... ١٦٢

الخاتمة.....	١٦٧
الملاحق.....	١٧١
المصادر والمراجع التاريخية.....	١٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعد السيطرة العثمانية على الوطن العربي عام ٩٢٢ - ٩٢٣هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧م بداية التاريخ العربي الحديث بشكل عام، وتشكل السيطرة البرتغالية على شواطئ الجزيرة العربية [مياه البحر الأحمر، جزيرة سوقطرة، شواطئ بحر العرب، شواطئ الخليج العربي، ٩١١ - ٩١٩هـ / ١٥٠٦ - ١٥١٣م] الحدث التاريخي الذي يمثل بداية التاريخ الحديث في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة في منطقة الخليج العربي.

وإذا كانت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م تشكل نهاية تاريخ الوطن العربي الحديث وبداية تاريخه المعاصر، فإن انهيار القوة العربية (الدولة السعودية الأولى - القواسم ١٢٣٣ - ١٢٣٥هـ / ١٨١٨ - ١٨٢٠) في شبه الجزيرة العربية لصالح النفوذ والهيمنة البريطانية في الخليج العربي يعدّ بداية التاريخ المعاصر لهذه المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية والحيوية منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا.

يتناول موضوع هذه الرسالة (القواسم وعلاقاته الإقليمية والدولية) دراسة تاريخ القواسم منذ هجرتهم من الهضبة النجدية إلى ساحل عُمان (الساحل الذي أصبح يعرف في وقت لاحق باسم الساحل المتصالح أو الساحل المهادن أي دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ، واستقرارهم فيه، وحتى القضاء على استقلالهم على يد بريطانيا في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م، ويمكن تقسيم تاريخهم إلى مرحلتين:

أ - **المرحلة الأولى:** وتبدأ بهجرة القواسم إلى ساحل عُمان في القرن السادس عشر الميلادي في عهد ملوك النباهنة وحتى نهاية عهد اليعاربة سنة ١١٥٤هـ / ١٧٤١م، وكان القواسم خلالها يشكلون جزءاً من الدولة العمانية.

ب - **المرحلة الثانية :** وتبدأ باستقلال القواسم عن عُمان بعد سقوط دولة اليعاربة في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م وقيام دولة القواسم المستقلة ، حتى القضاء على دولتهم على يد بريطانيا في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م.

وتتميز الفترة الزمنية التي تعالجها هذه الرسالة بأحداثها التاريخية الثرية ، ولعل أولها الغزو البرتغالي الذي تعرضت له منطقة الخليج العربي ، فبعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى سواحل الهند الغربية ، توجهوا نحو احتكار تجارة الشرق والسيطرة على المنافذ البحرية التي كانت تعبرها : بحر العرب ، والبحر

الأحمر ، والخليج العربي في طريقها إلى أوروبا ، عبر موانئ البحر المتوسط ، لأن منطقة الخليج العربي كانت في حينها تعيش عصراً ذهبياً في الملاحة والتجارة ، ولم تلبث أن فقدت أهميتها التجارية بتحول طرق التجارة إلى الطريق البحري حول إفريقيا إلى موانئ الأطلسي في غرب أوروبا ، وانتقلت منطقة الخليج العربي إلى مرحلة من التدهور والانكماش منذ بداية العصور الحديثة ، بل إن أوضاع الخليج العربي من المتدهورة في تلك المرحلة أثرت مباشرة على بقية أجزاء الوطن العربي ، وبصفة خاصة على المناطق التي كانت تمر من خلالها تجارة الشرق عبر بحارها وموانئها ، وتستفيد منها فوائد كبيرة .

وتحوّل الخليج العربي بعد السيطرة البرتغالية عليه إلى ساحة صراع مفتوحة بين القوى الدولية وبخاصة منها [البرتغال - هولندا - بريطانيا - فرنسا] والتي سعت كل بطريقتها الخاصة إلى القضاء على أية قوة عربية تسعى إلى إثبات وجودها وتثبيت أقدامها ، وضمان مصالحها الوطنية على أراضيها ، وفي مياهها الإقليمية .

وكما كانت دولة اليعاربة في عُمان رمز المقاومة العربية للسيطرة البرتغالية ، (وكان القواسم جزءاً من هذه الدولة العربية وتاريخها) أصبح القواسم بعد استقلالهم في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، قادة حركة المقاومة العربية ضدّ الهيمنة البريطانية في الخليج العربي .

وقد دوّن المؤرخون والباحثون تاريخ تلك الحقبة المهمة من تاريخ المنطقة ، وبالتالي ظهرت مؤلفات عديدة عن تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر عربية وأجنبية ، إلا أن أياً من تلك المؤلفات لم يتحدث بشكل وافٍ ومتكامل عن تاريخ (القواسم) كجزء لا يتجزأ من تاريخ الخليج العربي ، وذلك قبل استقلالهم في ساحل عمان في مدينة (رأس الخيمة) ، ولا حتى بعد استقلالهم ، وصراعهم المرير مع شركة الهند الشرقية البريطانية من أجل حماية وجودهم وحقوقهم المشروعة في منطقة الخليج العربي ، مما استدعى إجراء المزيد من الدراسات لتغطية هذه الحقبة من تاريخ القواسم في هذه المنطقة المهمة من وطننا العربي والعالم .

إشكالية البحث والهدف من الدراسة :

تتباين آراء المؤرخين ومواقفهم حول أصل قبيلة القواسم وموطنها الأول قبل هجرتها إلى الساحل العماني ، وتتحدث المصادر العربية عنها بصفاتها قبيلة عربية نجدية استقرت على ساحل عُمان ، وبدأت تمارس نشاطاتها التجارية البحرية ، واكتسبت مع مرور

الوقت خبرة واسعة في هذا المجال، وشاركت بفاعلية ونشاط في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عُمان ، وبصورة خاصة في عهد دولة اليعاربة (١٠٣٣- ١١٥٤هـ/ ١٦٢٤ - ١٧٤١م) وبعد سقوط دولة اليعاربة في عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م أصبحت كياناً مستقلاً ، وتعززت مكانته في منطقة الخليج العربي كله، وتحول إلى قوة إقليمية بامتياز.

في حين تتناول المصادر والمراجع الأجنبية وبصورة خاصة الغربية منها تاريخ القواسم على أنه تاريخ قراصنة يجوبون الخليج العربي، ويشكلون خطراً كبيراً على التجارة الدولية في المنطقة، مع ما يحمله ذلك من افتراء على تاريخ هذه الدولة العربية وطمس للحقائق.

انطلاقاً من ذلك ، فإن مهمة البحث في هذا الموضوع هي دراسة هذه الإشكالية من جوانبها المختلفة من خلال العودة للمصادر والمراجع ذات الصلة وبخاصة المخطوطات والوثائق، واعتماد الأسلوب والمنهجية العلمية الصحيحة القائمة على إعادة قراءة الأحداث بالاعتماد على الوثائق والدراسات ذات الصلة وتحليل مادتها العلمية للوصول إلى النتائج العلمية المرجوة ، وإظهار الجوانب المشرقة من تاريخ هذه الدولة العربية التي رفعت بحق لواء مقاومة الهيمنة البريطانية في منطقة الخليج العربي ولعقود من الزمن، وتتبع تاريخ هذه الدولة في إطاره الزمني.

ومما دفع الباحث إلى اختيار هذا الموضوع هو أن غالبية الدراسات التي تناولت تاريخ القواسم (على قلتها) تركز على مرحلة ما بعد استقلال القواسم، وتتجاهل المرحلة الأولى بالرغم من أهميتها، وبالتالي يمكن تقديم دراسة مفيدة في هذا المجال وبخاصة عن دورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عمان في عهد اليعاربة ، ودورهم خلال الحرب الأهلية التي شهدتها عمان في أواخر دولة اليعاربة (١١٣٤- ١١٥٤هـ/ ١٧٢٢- ١٧٤١م) ، وكيف تطوروا من قبيلة في دولة إلى دولة قائمة بحد ذاتها إن صح التعبير، وتحولوا فيما بعد إلى قوة إقليمية تركت بصمات مميزة على تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر. وتوظيف هذه الدراسة لخدمة المرحلة الثانية (مرحلة الكيان المستقل) عندما أصبحت دولة القواسم تتنافس بريطانيا تجارياً في الخليج العربي ، واستطاعت أن تلعب دوراً مهماً في العلاقات الإقليمية والدولية. ووضع الأحداث في إطارها التاريخي والعلمي والمنهجي لتصبح مادة علمية متجانسة في متناول القراء والباحثين.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة في الرسالة :

تتميز الفترة التي نعالجها بوفرة المصادر والمراجع التي كتبت بلغات متعددة ومتنوعة، ولا غنى للباحث عنها ، لكن الأمر الذي يثير الانتباه هو غلبة المصادر الأجنبية على المصادر التاريخية العربية والمحلية ، نتيجة اعتماد الدراسات التاريخية التي صدرت عن تاريخ الخليج العربي في العصر الحديث على تلك المصادر ، حتى وصل الأمر بالكثير من الباحثين إلى حدّ الاعتماد على الوثائق الأجنبية بشكل كبير ، ولعل السبب في كثرة المصادر والمراجع الأجنبية وتنوعها يعود إلى خضوع الخليج العربي لمدة أربعة قرون للسيطرة الأجنبية البرتغالية ، والهولندية ، والفارسية ، والعثمانية ، والبريطانية ، نذكر منها على سبيل المثال : Bathurst : The Yaurbi Dynasty (دولة اليعاربة) ، و Derek : The Arabian Peninsula (الجزيرة العربية ، المجتمع والسياسة) ، Head , Franck – Bey : From Trucial states to the United Arab Emirates (من الإمارات المتصالحة إلى الإمارات العربية المتحدة) إضافة إلى كتاب Kelly , John : Britain and Persian Gulf (بريطانيا والخليج الفارسي) ، و N. Niebuhr : Travel through Arabia (الرحلة عبر الجزيرة العربية) ، Sousa , Manuel de Friary: Bahrain and Oman (البحرين وعمان) ، Wilson , Arnold : The Persian Gulf (الخليج الفارسي) .

كما تمدنا المصادر التاريخية المحلية وبخاصة العمانية منها ، بمادة علمية مهمة عن ساحل الخليج العربي وعن اليعاربة والقواسم الذين كانوا جزءاً من هذه الدولة بصفة خاصة، ولعل من أبرز تلك المصادر والمخطوطات تلك التي وضعها المؤرخ العماني الشهير حميد بن رزيق والتي تناول فيها تاريخ الأئمة والسادة البوسعيديين ومنها : "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين" و الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان، ومخطوطته الشهيرة " الصحيفة القحطانية " بأجزائها الخمسة تحقيق أ.د. محمد حبيب صالح و أ.د. علال الغازي، ومخطوطة سرحان بن سعيد الأزكوي " كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة " التي تتناول تاريخ عُمان منذ أقدم العصور وحتى نهاية عصر اليعاربة ، ومن المصادر المهمة : كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للإمام نور الدين السالمي، وكتاب قصص وأخبار جرت في عمان لمحمد بن عامر المعولي ، أما أهم المراجع المحلية العمانية والخليجية فمنها : إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان تأليف سيف بن حمود البطاشي ، وملاحم من التاريخ العماني لسليمان الخروصي ،

وكتابي إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، وعمان عبر التاريخ لسالم بن حمود السيابي، بالإضافة إلى كتاب الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة لفاطمة الصايغ، وكتاب دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧- ١٨٢٠ لصالح العابد، وكتاب قراءات حديثة في تاريخ الإمارات العربية المتحدة تأليف مرسى عبد الله، والدولة السعودية الأولى ١٧٤٥-١٨١٨م عبد الرحيم عبد الرحيم ، ومن الكتب المهمة في دراسة تاريخ القواسم كتاب الحملات البريطانية ضد القواسم ١٨٠٥ - ١٨٢٠م لصالح القرني ، وعمان الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ - ١٩٧٠) لحسين غباش، وكتاب النفوذ البرتغالي في الخليج العربي لنوال الصيرفي ، والغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ١٥٠٧ - ١٥٣٥م لمحمد سلمان ، إضافة إلى كتاب العامل الاقتصادي وأثره على إنسان الخليج العربي في العصر الحديث تأليف بدر عباس ، وكتاب القواسم ودورهم في مقاومة الاحتلال البريطاني للخليج العربي تأليف عبد الكريم جبوري ، ومن الكتب المهمة المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، وكتاب العرب والبرتغال في التاريخ لفالح حنظل وغيرها الكثير.

ومما لا شك فيه أن دراسة المصادر المحلية هي من الأمور المهمة التي ينبغي على كل باحث في تناوله تاريخ الخليج العربي ، أن يعتمد عليها حتى يتمكن من الخروج من دائرة الخضوع المطلق للمصادر والوثائق الأجنبية .

أهم المواضيع التي تتناولها فصول الرسالة :

جاءت دراستنا للقواسم من هجرتهم إلى ساحل عُمان وإقامتهم فيه وحتى انفصالهم عنه وقيام كياناتهم المستقل في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، ومن ثم صراعهم مع شركة الهند الشرقية البريطانية وانتهاء تحالفهم في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م ، مقسمة إلى أربعة فصول وفق ما يأتي :

الفصل الأول : ويتحدث عن الأوضاع العامة في ساحل عُمان في عهد دولة النباهنة قبيل هجرة القواسم ، كما يتناول رحلة الفاسكو دي غاما إلى الشرق ، واكتشاف طريق الهند (٩٠٢ - ٩٠٤هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩م) وحملة الفونسو دي البوكرك والسيطرة على مضيق باب المندب وجزيرة سوقطرة ، واحتلال المرافئ العمانية (صور، قلعات، قريات، مسقط، صحار، خورفكان، جلفار [رأس الخيمة]) ، والقضاء على مملكة هرمز التجارية، والسيطرة على التجارة في الخليج العربي (٩١٠ - ٩١٩هـ / ١٥٠٥ - ١٥١٣م) . ومنافسة البرتغاليين من قبل القوى الأوروبية الأخرى ، ثم الدور الذي

قامت به المقاومة العربية المحلية وخاصة دولة اليعاربة والقواسم في التخلص من البرتغاليين ، والصراع الفارسي البريطاني - البرتغالي للسيطرة على هرمز وطررد البرتغاليين منها في عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م.

أما الفصل الثاني فيتناول ظهور التشكيلات السياسية والقبلية في ساحل عُمان ، والتي أخذت جانباً من التنظيم السياسي ، ولا سيما في أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية على هرمز وسواحل الخليج العربي ، وبصفة خاصة القواسم ، ودراسة أصلهم ونسبهم وهجرتهم إلى ساحل عُمان واستقرارهم فيه ، ودورهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي كجزء من دولة اليعاربة وبخاصة دورهم في طرد البرتغاليين من ساحل عمان في عهد الإمام ناصر بن مرشد اليعربي بين عامي ١٠٤٩ - ١٠٥٩هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٩م. والدور الذي لعبه القواسم خلال الحرب الأهلية العمانية ١١٣٤ - ١١٥٤هـ / ١٧٢٢ - ١٧٤١م ، وسقوط دولة اليعاربة ، حيث شكلت هذه الأحداث المقدمات الموضوعية لاستقلال القواسم في ساحل عُمان في عام ١٧٤١م. وظهور دولة آلبوسعيد بزعامة الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيد . كما يتناول بالإضافة إلى ذلك الأوضاع الاقتصادية من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، في ظل دولة اليعاربة .

ويتناول الفصل الثالث علاقات دولة القواسم الإقليمية بعد استقلالها عن عُمان في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، وحتى سقوط دولتهم على يد البريطانيين في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م ، ويبدأ بعلاقات القواسم مع عُمان (دولة آلبوسعيدية) وكيف انتزع القواسم منها اعترافهم بالاستقلال عن عُمان خوفاً من تحالفهم مع الشاه نادر ، ثم تحالف القواسم مع الدولة آلبوسعيدية في أواخر أيام الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيد بين عامي (١١٨٣ - ١١٨٩هـ / ١٧٧٠ - ١٧٧٥م) ومهاجمة بندر عباس ومخازن الأسلحة في جزيرة بلنجة بسبب التطورات التي شهدتها منطقة الخليج العربي آنذاك. وعودة التوتر في العلاقات القاسمية - العمانية الأمر الذي أدى إلى تدخل القواسم في النزاع الذي دار بين الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيد وولديه سيف وسلطان على الحكم، ووقوفهم إلى جانب أبنائهم في ذلك النزاع، وما تلا ذلك من أحداث أدت فيما بعد إلى اغتيال السيد سلطان بن أحمد آلبوسعيد على يد القواسم في عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٤م، وتدخلهم في الأوضاع الداخلية في عُمان للسيطرة على الحكم فيها واستغلال الخلافات التي وقعت بين خلفاء السيد سلطان ، حيث لعب القواسم دورهم في هذا الخلاف الجديد ، بعدما أصبحوا القوة الأولى في الخليج العربي.

كما يتناول هذا الفصل دراسة علاقات القواسم مع الحركة الوهابية (الدولة السعودية الأولى) منذ توسع تلك الحركة في منطقة الخليج العربي وبالتحديد ساحل عمان ، والحرب التي نشبت بين الطرفين لإخضاع القواسم ، واعتناق القواسم بقيادة الشيخ صقر بن راشد القاسمي مبادئ الدعوة الوهابية وتبنيهم لها بعد هزيمتهم أمام القوات الوهابية بقيادة مطلق المطيري، واحتلال الجيش الوهابي واحة البريمي، واستخدامها قاعدة انطلاق ضدّ عمان في عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٤م ، والأحداث التي أدت فيما بعد إلى خلع سعود بن عبد العزيز حاكم الدرعية للشيخ سلطان بن صقر القاسمي من منصبه ، وسجنه في الدرعية ، وتنصيب ابن عمه حسين بن علي شيخ رامس حاكماً على القواسم، حيث تعدّ تلك الحادثة من أبرز حوادث تبعية القواسم للوهابيين ، وأدى ذلك إلى تزايد التدخل السعودي في شؤون القواسم الداخلية ، وقاد بعد سنوات قليلة إلى أول انقسام بين القواسم أنفسهم ، وانفصال سلطان بن صقر القاسمي في الشارقة . مما شجع بقية الزعماء القواسم الذين كانوا يؤلفون اتحاد دولة القواسم إلى الاستقلال بالمناطق التي كانوا يحكمونها حكماً محلياً ، حتى وصول قوات محمد علي باشا إلى الدرعية وتحطيمها في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م وسقوط الدولة السعودية الأولى.

أما الفصل الرابع فيتناول دراسة علاقات القواسم الدولية ، وبداية مع الدولة الفارسية والتحالفات والنزاعات التي نشأت بين الطرفين ، حيث سيطر القواسم على جزر بلنجة، وقشم ، وكنج ، بعد وفاة الشاه نادر في عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م، والمواجهة مع كريم خان آل زند مؤسس حكم الأسرة الزندية في جنوب بلاد فارس. ومحاولة الفرس التحالف مع القواسم ضدّ الدولة الالبوسعيدية، ونجاح الإمام أحمد بن سعيد الالبوسعيد في التحالف مع القواسم، وضرب ميناء بوشهر في عام ١١٨٣هـ / ١٧٧٠م ، وميناء بندر عباس في عام ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م .

وأخيراً دراسة علاقات القواسم مع بريطانيا وخاصة مع شركة الهند الشرقية البريطانية قبل مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، ومحاولة فرنسا مدّ نفوذها إلى منطقة الخليج العربي ، وتحول القواسم في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي إلى قوة إقليمية لها وزنها وثقلها السياسي والعسكري ، والتي أصبح يحسب لها ألف حساب ، وتحالف بريطانيا مع سلطان مسقط ضدها، وانتزاع ميناء بندر عباس من أيدي القواسم في عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٥م.

ومحاولة القواسم فرض رسوم جمركية على سفن شركة الهند الشرقية البريطانية التي تعبر مياه الخليج العربي في عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م ، وحجزهم لعدد من السفن البريطانية في خطوة من القواسم لتأكيد نفوذهم وسيادتهم على المنطقة ، والمعارك الضارية التي خاضها القواسم مع بريطانيا ، وتشكيل تحالف دولي وإقليمي (بريطاني - عماني - فارسي) ضدّ القواسم ومهاجمة عاصمتهم رأس الخيمة في عام ١١٣٤هـ / ١٨١٩م، وتدميرها بعد مقاومة بطولية أبدّاها القواسم ، والتي أسفرت عن التوقيع على اتفاقية التعهد الأولي التمهيدية في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م، ثم إلى التوقيع على الاتفاقية العامة للسلام في المنطقة ، وانتهاء دولة القواسم إلى مشيخات متناثرة في مياه الخليج العربي ، وفرض بريطانيا سيطرتها الكاملة على الخليج العربي .

أرجو أن يمثل هذا الجهد المتواضع إضافة جديدة إلى ما تحتويه المكتبة العربية من دراسات لتاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ورافداً متواضعاً يسهم في تسليط الضوء على جانب من جوانب تاريخ أمتنا العربية الحديث والمعاصر .

وأخيراً أتوجه بالشكر الكبير إلى الأستاذ الدكتور محمد حبيب صالح لما بذله من جهد ووقت كبيرين ، والذي تعلمت منه الشيء الكثير حتى وصلت الرسالة على ما هي عليه الآن، كما وأتوجه بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل في لجنة الحكم لجهودهم في تقييم هذه الرسالة وما سيقدمونه من ملاحظات ونصائح مفيدة ، والشكر موصول إلى مركز البحوث والوثائق ، ومركز جمعة الماجد في دولة الإمارات العربية المتحدة ، ووزارة التراث القومي في سلطنة عُمان على ما قدموه لي من وثائق ومخطوطات ثمينة .

والله الموفق

٨ تشرين الثاني ٢٠٠٩م

٢١ ذو القعدة ١٤٣٠هـ

الفصل الأول

الأوضاع العامة في ساحل عُمان قبيل هجرة القواسم إليه

الأوضاع العامة في ساحل عُمان قبيل هجرة القواسم إليه

أولاً: موقع عُمان الجغرافي وأهميته الإستراتيجية

تقع عُمان في القسم الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتمتد حدودها الجغرافية تاريخياً (حتى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م) إلى شبه جزيرة قطر، وتفصلها عنها رمال بينونة، كما تفصلها صحراء الربع الخالي من جهة الغرب عن بقية مناطق شبه الجزيرة العربية، وتمتد جنوباً حتى حضرموت، كما تمتلك حدوداً شاطئية كبيرة تطل على مسطحات مائية واسعة تعبرها خطوط التجارة الدولية البحرية بين الشرق والغرب (بحر العرب، خليج عُمان، الخليج العربي) وقد ساعدت خاصية الموقع الجغرافي المميز في تفعيل دور عُمان في النشاط التجاري العالمي، ولم يقتصر دور عُمان في هذا المجال على تقديم الخدمات اللازمة للسفن العابرة في موانئها (مسقط، صور، قريات، قلعات، صحار، خورفكان، جلفار أي رأس الخيمة حالياً) بل إن العمانيين أنفسهم وبخاصة سكان السواحل (الجبور، القواسم) لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط تجارة الترانزيت ونقل البضائع من شرق آسيا وجنوبها وشرق إفريقيا إلى البحر المتوسط وأوروبا عبر الخطين التجاريين البحريين التاليين:

أ. خط الخليج العربي إلى العراق، ومن هناك تنقل البضائع إلى سواحل بلاد الشام فالسواحل الأوروبية.

ب. خط بحر العرب إلى مضيق باب المندب والبحر الأحمر والسويس إلى الإسكندرية على البحر المتوسط، ومن هناك إلى السواحل الأوروبية والمغرب العربي. ومع بداية العصور الحديثة كانت عُمان والخليج العربي على موعد مع تحولات خطيرة جعلتهما ساحة مفتوحة للتنافس والصراع الدولي بين القوى الأوروبية العظمى التي ظهرت بعد النهضة التي بعثت القارة الأوروبية ونقلتها إلى مرحلة جديدة من الإبداع الفكري والعلمي طال كافة جوانب الحياة وبخاصة السياسية والاقتصادية، حيث شكلت النهضة والكشوف الجغرافية المقدمات الموضوعية لظهور الاستعمار الحديث وإحداث انقلاب نوعي في أسس العلاقات الدولية، جعل مصير الكثير من الدول رهينة بيد القوى الجديدة، وتوضعت عُمان والخليج العربي في صلب هذه المعادلة الجديدة.

ثانياً: أوضاع عُمان قبيل الغزو البرتغالي للخليج

خضعت عُمان لحكم ملوك النباهنة ^(١) مدة أربعمئة وسبعين عاماً ، بدأت بسقوط إمامة محمد بن خنبش في عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وتنتهي بقيام دولة اليعاربة عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م . ويقسم المؤرخون عصر النباهنة في عُمان إلى مرحلتين :

١. المرحلة الأولى : عهد النباهنة الأولين ٥٤٩ - ٩٠٥هـ / ١١٥٤ - ١٥٠٠م .
 ٢. المرحلة الثانية : عهد النباهنة المتأخرين ٩٠٥ - ١٠٣٣هـ / ١٥٠٠ - ١٦٢٤م .
- وهي الفترة التي سيطر فيها البرتغاليون على عُمان والخليج العربي.

وكان عصر النباهنة من أكثر فترات التاريخ العماني تنافساً وصراعاً على السلطة بين تيار الإمامة الإباضية من جهة ، وتيار ملوك النباهنة من جهة أخرى ، وبين قبيلة النباهنة من جهة ، والقبائل العمانية الأخرى (العمريون ، العميريون ، العوامر ، الكعبيون ، السوالم ، النوافل ، الطائيون ، الشرجيون ، الحدان ، آل الرئيس ...) من جهة أخرى ، وفي المرحلة الثانية من عهد النباهنة بدأ الصراع بين النباهنة أنفسهم ، عندما أخذ كل ملك أو أمير منهم يسعى إلى ضم ممتلكات الآخر إلى ممتلكاته ، وقد ساعد على ذلك طبيعة النظام السياسي الذي فرضه النباهنة أنفسهم ، إذ لم يعرفوا السلطة المركزية طيلة عهدهم ، وأقاموا منذ البداية نظام ممالك دويلات المدن ، ومثل نظام حكمهم نظاماً سياسياً مغايراً لنظام الإمامة الإباضية الذي تعود عليه العمانيون منذ عهد الدولة الأموية ، حيث استبد ملوك النباهنة ، واستولوا على ممتلكات الرعية بطرائق غير مشروعة ، وفرضوا الضرائب الباهظة ، فسماهم العمانيون الجبابرة والطغاة ، وأهل الظلم والجور ، ووصفوا عهدهم بالتسلط والاستبداد .

وعندما بدأت الكشوف الجغرافية البرتغالية في الشرق كان الصراع بين ملوك النباهنة على أشده ، وتركز وجودهم في المناطق الداخلية من عُمان ، ولم تكن لهم سلطة على السواحل العمانية من حضرموت إلى قطر ، وكانت قبائل الجبور والقواسم وبني منجوة صاحبة السلطة المحلية على الأرض في تلك السواحل ، ويخضعون بدورهم لهيمنة مملكة هرمز التجارية ، التي كانت تسيطر على جميع الموانئ والمنافذ البحرية العمانية ،

(١) ينتمي النباهنة إلى قبيلة العتيك العربية الأزدية العُمانية ، التي تنتهي بنسبها إلى يعرب بن قحطان ابن هود النبي عليه السلام ، وإليها تنتسب أسرة المهالبة التي ينتمي إليها القائد العربي المسلم العماني المهلب بن أبي صفرة. أنظر : الخروصي ، سليمان بن خلف بن محمد : ملامح من التاريخ العُماني ، مكتبة الضامري ، عُمان ، ٢٠٠٢م ، ط٣ ، ص ٢٤٤ .

وبسبب غياب سلطة الدولة المركزية بدت هذه القبائل عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية عشية قدوم الحملات العسكرية البحرية البرتغالية في عام ١٥٠٧م.

ثالثاً: حركة الكشف الجغرافية البرتغالية

تعد حركة الكشف الجغرافية الأوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي بداية عهد جديد في التاريخ الأوروبي ، توجت باكتشاف كريستوفر كولومبوس للقارة الأمريكية -العالم الجديد- عام ١٤٩٧هـ / ١٤٩٢م ، ثم كشف الطريق الجديد بين أوروبا والهند في عام (٩٠٢ - ٩٠٤هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩ م) ، ولم يتحقق ذلك كله إلا بفضل النتائج العلمية لحركة النهضة الأوروبية ، التي نقلت أوروبا من العصور الوسطى المظلمة ، والتي كانت مثلاً للجمود والتخلف والبعد عن ركب الحضارة الإنسانية نتيجة سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور فيها إلى العصور الحديثة ، وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إليها ، أهمها :

١ - **العوامل الاقتصادية:** تعد العوامل الاقتصادية أهم العوامل التي أدت إلى الكشف الجغرافية ، حيث كانت أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي تشكو من ندرة المعادن الثمينة لديها (الذهب ، الفضة) ومن قلة النقد المتداول ، مما أعاق حركة التجارة فيها ، وأحدث بلبلة في قطاع النقد ، خاصة بعد ما نصبت مناجم الفضة ، وتوقف وصول الذهب إليها من السودان عبر إفريقيا الشمالية إلا بكميات ضئيلة ، وبالتالي كان لابد من البحث عن مصادر جديدة لها خارج القارة الأوروبية .^(١)

فقد ذكرت الشائعات وكتابات الرحالة (ماركوبولو ٦٥٢ - ٧٢٣هـ / ١٢٥٤ - ١٣٢٣م) وجود الكثير من المعادن الثمينة في السودان ، مما دفع الأوروبيين وبخاصة البرتغاليين نحو الكشف عن تلك البلاد المجهولة ، كما أن حاجة أوروبا الشديدة إلى البهارات والتوابل وبضائع الشرق الأخرى التي كانت تستورد عن طريق دولة المماليك في مصر وبلاد الشام ، وكانت تصل إلى الأوروبيين بعد أن يدفعوا رسوماً جمركية فادحة يفرضها حكام مصر والشام ، بالإضافة إلى احتكار تجار البندقية نقل تلك البضائع من الموانئ السورية والمصرية إلى أوروبا من الأسباب الاقتصادية المهمة لتلك الكشف .^(٢)

(١) الصباغ ، ليلي : معالم تاريخ أوروبا الحديث ، مطبعة جامعة دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٠م ، ص ٧٤ .
(٢) الزبيدي ، مفيد : موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار أسامة للنشر ط ١ ، ٢٠٠٤م ، مجلد ١ ، ص ٤٠٦ .

وبالتالي سعت الدول الأوروبية إلى الكشف عن طرق تجارية بحرية جديدة لا تخضع للسيطرة العربية لتأمين تجارتها، والحصول على البضائع بأثمان منخفضة وبكميات كبيرة، والسيطرة على موانئ الخليج العربي وبحر العرب التي تتحكم بتجارة البهارات (طريق الفلفل)(^١).

ورأى البرتغاليون ضرورة البحث عن طريق يوصلهم إلى تلك البحار والبلاد المنتجة مباشرة بالالتفاف حول إفريقيا ، أو بالاتجاه غرباً عبر المحيط الأطلسي، واستبعاد احتكار الممالك ووساطة البنادقة معاً على حد سواء .

٢- **العوامل الدينية** : وتتجلى في رغبة أوروبا بمتابعة حروبها الصليبية ضد المسلمين ومطاردتهم في ديارهم (حروب الاسترداد الإسبانية) بدافع التعصب وحب الانتقام الذي هيمن على عقول بعض الملوك الأوربيين، إضافة إلى رغبتها في نشر الدين المسيحي والقيام بعمليات التبشير.(^٢)

٣- **العوامل السياسية** : أدى نمو مفهوم الدولة القومية خلال القرن الخامس عشر الميلادي إلى دفع الدول الأوروبية نحو المغامرات الاستكشافية ، لتثبت وجودها السياسي ، وتدعم مصالحها الاقتصادية على أكبر رقعة من الممتلكات في أوروبا وخارجها.

٤- **العوامل الفكرية** : أخذت أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادي تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري، وبدأت تتحرر تدريجياً من المعتقدات الوهمية والخرافية، ولا سيما في الميدان الكوني، فاحتكاك الأوربيين بالحضارة الإسلامية غير أفكارهم كلياً ، وخاصة بعدما اطلعوا على ما قدمه العرب في مجال علم الفلك (أبو الوفاء البوزجاني ، والفرغاني ، والطوسي ، والبيروني) والجغرافيا (الاصطخري ، المقدسي ، و ياقوت الحموي) .

٥- **العوامل التقنية** : التقدم الكبير الذي أحرزه الأوروبيون في مجال الملاحة، حيث صنعت سفن الكرافيل القشالية الخفيفة والمرتفعة ، وزودت بأشرعة مربعة لتستفيد من الرياح الخفيفة، وبأشرعة ثلاثية لاتينية عندما تكون الرياح معاكسة تماماً للاتجاه الذي يراد السير فيه، وبذلك وجدت تدريجياً السفن السريعة القادرة على مواجهة الرحلات

(١) البرغوثي ، جبارة : تاريخ الخليج العربي ، دار كنعان ، دمشق ط١ ، ٢٠٠٥م ، ص ١٢٤ .
(٢) أبو علي ، عبد الفتاح حسن : تاريخ أوروبا وأمريكا الحديث ، دار المريخ ، الرياض ، ط١ ، ١٩٧٩م ، ص ١٦ .

عبر المحيطات ولمسافات طويلة ، ^(١) إضافةً إلى استخدام البوصلة ذات الإبرة المغناطيسية التي تحدد جهة الشمال، والإسطرلاب العربي ، واستخدام الخرائط والكرات المصنوعة حديثاً التي ساعدت في تحديد أماكن السفن ، وضبط خط سيرها .

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت البرتغال دولة بحرية، وغدت لشبونة ميناءً بحرياً مهماً، ومنذ عام ٨١٣هـ / ١٤١٠م تزعم (هنري الملاح ٧٩٦ - ٨٦٤هـ / ١٣٩٤ - ١٤٦٠م) حركة الكشف الجغرافية ، حيث كان ملماً بالجغرافيا والرياضيات ومتحمساً لنشر المسيحية، و بحاراً ماهراً مولعاً بالملاحة ، فأسس مدرسة بحرية ومرصداً على ساحل البرتغال، واستحضر إليها الفلكيين ورسامي الخرائط والبحارة من إيطاليا وصقلية ^(٢) ، ووجه كل جهوده واهتماماته نحو كشف السواحل الإفريقية .

وفي مطلع القرن الخامس عشر الميلادي وضع البرتغاليون أقدامهم على ساحل المغرب الأقصى باحتلال مدينة سبتة عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م ، ثم رأس بوجادور في عام ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م ، وبلغوا جزر (الرأس الأخضر) في عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، ثم خط الاستواء في عام ٨٧٥هـ / ١٤٧١م ، فمصب نهر الكونغو عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م ، وفي عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م عبر البحار بارتلمي دياز جنوب إفريقيا إلى شرقها في عاصفة هوجاء جعلته يطلق على الرأس الموجود في أقصاها الجنوبي رأس العواصف، إلا أن الملك حنا الثاني (٨٨٦ - ٩٠٠ هـ / ١٤٨١ - ١٤٩٥م) أطلق عليه رأس الرجاء الصالح تفاؤلاً بالكشف الجديد .

بعد عشر سنوات من رحلة دياز ، وتحديدًا في ٨ ذو القعدة ٩٠٢هـ / ٨ تموز ١٤٩٧م انطلقت من البرتغال الرحلة الكبرى بقيادة (فاسكو دي غاما ٨٧٣ - ٩٣٠هـ / ١٤٦٩ - ١٥٢٤م) ، وقد واجهت صعوبات كثيرة أثناء إعدادها ، أهمها رفض البحارة القيام بها ، بعد ما سمعوا الكثير عن الأهوال التي واجهت دياز في رحلته السابقة، إلا أن دي غاما تغلب عليها، وأبحر مع أربع سفن كارافيل و ١٦٠ بحاراً (عشرة منهم كانوا محكومين بالإعدام) ^(٣) . وكانت سفينة بقيادته، وواحدة بقيادة شقيقه باولو دي غاما ،

(١) الصباغ ، ليلي : المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

(٢) جريدة الوقت السياسية ، العدد ١٨٤ - الأربعاء ٢٨ رجب ١٤٢٧ هـ ٢٣ آب ٢٠٠٦ م ، ص ٢ .

(٣) الصباغ ، ليلي : المرجع نفسه ، ص ٨٦ .

وأخرى بقيادة نيكولا كولهو، والسفينة الرابعة (سفينة تخزين مؤن) بقيادة جوسالو نونيز، والتي فقدت فيما بعد بالقرب من خليج ساو براس على ساحل إفريقيا الشرقي.^(١) أبحر فاسكو دي غاما مقابل السواحل الغربية للقارة الإفريقية ، واجتاز رأس الرجاء الصالح، ومع دخول السنة الجديدة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م وصل أسطوله إلى ما يعرف اليوم بموزنبيق على الشاطئ الشرقي لأفريقيا ، الذي كان جزءاً من الشبكة التجارية في المحيط الهندي، ولخوفه من أن يتخذ السكان المحليون موقفاً عدائياً منه ومن بحارته لأنهم مسيحيون ، تصنع دي غاما الإسلام ، وتمكن من أن يقابل سلطان البلاد، لكنه لم يجد ما يليق بتقديمه هدية له ، مما كان يحمل من سلع وبضائع ، الأمر الذي أدى بالسكان المحليين أن يشكوا بأمرهم فهاجموهم غاضبين، فاضطر دي غاما ورجاله إلى مغادرة البلاد ، وأبحر مبتعداً عن الشاطئ ، وقصف المدينة بالمدافع انتقاماً منهم .^(٢) تابع دي غاما طريقه قبالة ساحل شرق إفريقيا حتى وصل مدينة مالندي (على ساحل تنزانيا حالياً)، وهناك استعان بالملاح العربي العُماني (شهاب الدين أحمد بن ماجد)^(٣) الذي ساعده على اجتياز المحيط الهندي، وبفضل خبرته بالرياح الموسمية أوصل ابن ماجد ، دي غاما إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند (ساحل الملبار) وفي ٢٩ رمضان ٩٠٣هـ/ ٢٠ أيار ١٤٩٨م اتصل دي غاما بالأمير " الزامورين " ، ومع عدد من التجار العرب المسلمين ، حيث حصل على حق ممارسة مهنة التجارة هناك ، لكنه اضطر إلى العودة بعد أن ترك بعض رجاله في الهند للعمل بالتجارة . وهكذا وصل دي غاما إلى الهند بعد رحلة دامت أكثر من عشرة أشهر ، توجت بكشف الطريق البحري بين أوروبا والهند . وعاد إلى لشبونة بمركبيه المليئين بالتوابل في أيلول ١٤٩٩م ، فكانت نتيجة هذه الرحلة ثورة في مجال التجارة الأوروبية ، وحققت

(١) الزيدي ، مفيد : المرجع نفسه ، ص ٤٠٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) ابن ماجد : هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركايب النجدي ، بحار وعالم من علماء البحر والفلك والمسلمين، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ، و أوائل القرن العاشر الهجري. أنظر : الصيرفي ، نوال حمزة : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، دار الملك عبد العزيز ، الرياض ، ط١٩٨٣م، ص ١١ - ١٢ .

مجداً عظيماً للبرتغال ، فأصبح ملوك البرتغال ينعتون أنفسهم منذ ذلك الحين بأنهم سادة
الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس . (١)

في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، وفي عام ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م بالتحديد ، كان
البحار بيدرو الفاريز كابرال قد أرسل إلى الهند ، إلا أن الرياح دفعته نحو شواطئ
البرازيل ، لكنه عاد من جديد إلى الشواطئ الإفريقية ، وأبحر إلى الهند ، ولدى
وصوله إلى الشواطئ الهندية اكتشف أن البحارة الذين تركهم دي غاما قد قتلوا ، وقوبل
هو بمقاومة أشد دفعته لقصف كاليكوت بالمدافع ، ثم عاد إلى البرتغال ومعه الحرير
والذهب ، كدليل على أنه كان في الهند أيضاً .

بعد رحلة كابرال بعامين ، قاد دي غاما حملة بحرية ثانية ، إلى الهند في ٥ شعبان
٩٠٧هـ / ١٢ شباط ١٥٠٢م ، بلغ عدد سفنها إحدى وعشرون سفينة حربية ، من أجل
الحفاظ على وجود دائم للبرتغاليين في الهند ، وفي طريقه ، صادف دي غاما سفينة
كانت عائدة بالحجاج من مكة ، فسلب جميع ممتلكاتهم ، وحصر جميع ركبها البالغ
عددهم ٣٨٠ في السفينة ، وأضرم فيها النار . فغرقت بعد أربعة أيام في البحر ، وقُتل
جميع من فيها من رجال ونساء وأطفال . (٢)

تابع دي غاما طريقه إلى الهند ، وعندما وصلت سفنه إلى ساحل الملبار خربت
كاليكوت ، وقضت على سيادة العرب في المحيط الهندي . ثم ترك أسطولاً برتغالياً في
المياه الهندية ، وعاد إلى لشبونة .

رابعاً : الغزو البرتغالي للخليج العربي :

بعد أن سيطر البرتغاليون على ساحل الملبار ، عُين (فرانسيسكو دالميدا) نائباً للملك
البرتغالي عمانويل الأول في الهند ، وكلف الجنرال البحري الفونسو دي البوكرك
بالعمل على إنشاء إمبراطورية برتغالية مسيحية في الشرق ، فوضع خطة عمل تقضي
بالعمل على جبهتين :

الجبهة الأولى : مقاومة القوى التي تصدت للسيطرة البرتغالية في البحار الجنوبية ،
ومنها دولة المماليك ، والقوى المحلية الإسلامية في الخليج العربي .

(١) لوريمر ، ج.ج : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، إعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب سمو دولة قطر ،
دب ، ج ١ ، ص ١١ .

(٢) راشد ، زينب عصمت : تاريخ أوروبا الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٤٧ .

الجبهة الثانية: إقامة سلسلة من القلاع والحصون العسكرية على طول الطريق إلى الهند ، مع إجبار الحكام المحليين على الاعتراف بالبرتغال كسلطة مهيمنة. في عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٣م أبحر البوكرك نحو الشواطئ الإفريقية برفقة صاحبه وقريبه فرانسيسكو، ونجح هناك في تثبيت ملك كوتشين على عرشه ، وسُمح له بالمقابل ببناء أولى قلاع البرتغاليين فيها، واضعاً بذلك حجر الأساس للإمبراطورية البرتغالية في الشرق في عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٣م، وبعد عودته إلى بلاده في شهر المحرم ٩١٠هـ / تموز ١٥٠٤م ، كلفه الملك (عمانويل الأول) بقيادة خمس سفن حربية لإخضاع بقية الشواطئ الإفريقية ، والعربية (البحر الأحمر ، بحر العرب ، خليج عُمان ، الخليج العربي) وأسطول تجاري مكون من ست عشرة سفينة بقيادة (ترتسيانو) وفي الطريق شن الأسطول غارات على المدن الساحلية في شرق إفريقيا (ممباسا ، ماليندي ، لامو ، كيسمايو) في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٥م ، وأخضعها لسيطرته، ثم انفصل ترتسيانو عن الحملة ، وتابع إبحاره نحو الهند ، في حين هاجم البوكرك سنة ٩١١هـ / ١٥٠٦م جزيرة سوقطرة الواقعة على الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي ، واستولى عليها ، كما هاجم عدن في العام نفسه ، ودخل البحر الأحمر وصولاً إلى إثيوبيا، بهدف قطع الطريق التجاري القديم إلى السويس.^(١)

بعد السيطرة على مضيق باب المندب وجنوبي البحر الأحمر وخليج عدن ، أبحرت حملة البوكرك نحو بحر العرب وخليج عُمان ، ووصلت إلى قلعات في عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م بعد أن مرت على رأس الحد ، وصور، على الساحل العماني ، حيث دمرت السفن والمراكب الراسية في الموانئ العمانية^(٢) وكانت قلعات تابعة لمملكة هرمز ، فأرسل البوكرك إلى حاكمها وفداً من قبله يطلب منه تسليم المدينة دون قيد أو شرط ، وإخضاعها لملك البرتغال.^(٣) ، فوافق الحاكم الفارسي سيف الدين خوفاً من تدمير المدينة ، وقدم للبوكرك الإمدادات اللازمة للأسطول ، وعقد معه صلحاً ، وسلم المدينة بموجبه له،^(٤) ومع ذلك لم تسلم المدينة من النهب والتدمير الوحشي .

(1) Miles, Samuel : *The countries and tribes of the Persian Gulf* , 2end ED London 1966. p.p 155-156

(2) Sousa, Manuel de Fariary: *The history of the die of India* , Trans by Coury & Conquest, 2END. Ed Vol 1w , Germany, 1971 p. 126.

(3) Miles, Samuel : Op Cit, p.143.

(4) Miles, Samuel : Op Cit, p.144.

نقل البوكرك المؤن والغنائم إلى سفنه، وأمر بحرق مدينة قلعات ، وهدم المسجد الجامع فيها^(١)، ثم توجه إلى قريات(على بعد مسافة عشرة فراسخ عن قلعات)، ووصلها في ١٤ ربيع الآخر ٩١٣هـ/ ٢٢ آب ١٥٠٧م ، في وقت استعد فيه أهلها للمقاومة ، لذلك لم يرسل البوكرك وفداً إليها للتفاوض مع حاكمها وتسليم المدينة كما فعل في قلعات ، بل قصف المدينة بعنف ، فأبدى المقاومون والمدافعون عنها مقاومة ضارية ، مما أطل زمن المعركة ، غير أن البرتغاليين تمكنوا في النهاية بما لديهم من الأسلحة القوية من حسم المعركة لصالحهم ، فراجع أهل المدينة ، ودخلها البوكرك ، وارتكب فيها مذبحه شنيعة، قتل خلالها الجنود البرتغاليون كل من وقع تحت أيديهم من سكانها العزل دون تمييز.^(٢) وأخيراً تم إحراق المدينة ، وأسر كثير من أهلها ، وأحرقت جميع السفن التي كانت في الميناء .

ثم توجه البوكرك إلى مسقط ، وهي الميناء الرئيسي على ساحل عُمان ، والأكثر مناعة وحصانة ، وعندما وصلت إليها أنباء كارثة قريات بدأ سكانها بتحصينها ، وبناء سور إضافي حولها ، إلا أن البوكرك تمكن من دخولها بعد مقاومة شرسة من جانب المدافعين عنها ، وارتكب مجزرة شنيعة ، حيث ذبح الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. وبعدما نهب مسقط ، وزود سفنه بالمؤن ، استعد لإحراق المدينة ، فطلب منه من التجأ إلى الجبال من سكانها أن لا يحرقها ، فاشترط عليهم دفع جزية كبيرة ، كان من الصعب على من بقي من سكانها دفعها، فأضرم النيران فيها ، ودمرت مساجدها ، وتركها خاوية على عروشها^(٣).

ثم أبحر البوكرك بأسطوله نحو صحار ، ورست سفنه أمام قلعتها الحصينة الضخمة ، ونظراً لأن القلعة تفتقر إلى الوسائل اللازمة للدفاع عنها ، أرسل حاكم المدينة رسالة إلى البوكرك يلح فيها برغبته بالسلام وعقد الصلح مع البرتغاليين ، ورغم ذلك استعد البوكرك للهجوم على المدينة في اليوم التالي ، لولا أن وصل إليه وفد من الحاكم يعلن خضوعه لملك البرتغال وتسليم القلعة ، ففرض عليها البوكرك غرامة سنوية ، ورفع

(1) Sousa , Fariary: Op Cit Vol 1 ,P .P 126-167.

(2) Miles, Samuel : Op Cit, p .p 144-145.

(٣) راتسمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، دار الثقافة ، ط ١ ، ١٩٩٧م ج ١ ، ص ٤٠٤-٤٠٦

العلم البرتغالي على أبراج القلعة ، وأبقى حاكم المدينة مسؤولاً عنها ، بعد أن اعترف بالولاء والطاعة للملك البرتغالي^(١)

بعد إخضاع صحار توجه البوكرك نحو خورفكان في أواخر عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م ، وكانت أخبار البرتغاليين وأفعالهم الوحشية قد انتشرت في المدينة ، فاستعد سكانها للمقاومة ، وكان البوكرك يتوقع استسلامهم كما حدث في صحار ، إلا أنهم رفضوا ، فقصف المدينة بالمدافع ، واقتحمها ، وتراجع الأهالي إلى القلعة ، واحتموا بها ، فأرسل البوكرك ابن أخيه أنطونيو لملاحقتهم ، لكنه واجه مقاومة عنيفة ، ولحقت بالبرتغاليين خسائر كبيرة قبل أن تحل الهزيمة بسكان خورفكان أمامهم^(٢) . وبذلك خضعت خورفكان للسيطرة البرتغالية ، وأمر البوكرك ببناء قلعة فيها ، وفرض غرامة سنوية على أهلها بلغت خمسة عشر ألف دينار أشرفي^(٣) .

بعد السيطرة على خورفكان ، تابع البوكرك تقدمه نحو جزيرة هرمز ، ووصل إليها في جمادى الأولى ٩١٤هـ / أيلول ١٥٠٨م ، وفرض عليها الحصار ، وراح يقصفها بالمدافع ، وعرض على ملكها سيف الدين الخضوع للسيطرة البرتغالية ، ودفع جزية سنوية ، وتسليم قلعتها للبرتغاليين ، لكنه رفض ، وأبدى المدافعون عنها مقاومة ضارية ، أدت إلى تمرد جنود البوكرك وضباطه عليه ، فأمر نائب الملك في الهند (الفونسو دالميدا) برفع الحصار عن هرمز ، والسيطرة على موانئ الخليج العربي ، فهاجم البوكرك ساحل عُمان الذي يسكنه القواسم ، ودخل ثغوره البحرية بما في ذلك جلفار (رأس الخيمة) ثم سيطر على البحرين وشواطئ الإحساء ، وأخضعها لسلطته ، وأخيراً أخضع الثغور البحرية الفارسية المطلة على الخليج العربي بين عامي ٩١٤ - ٩١٩هـ / ١٥٠٨ - ١٥١٣م .

في عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م عاد البوكرك لمحاصرة جزيرة هرمز التي استعد أهلها للدفاع عنها ، ودارت معركة بحرية بين الهرمزيين والبرتغاليين بمشاركة ما يقارب ٤٠٠ سفينة هرمزية مقابل سبع سفن برتغالية كبيرة ، لكن البرتغاليين استطاعوا إلحاق الهزيمة بالهرمزيين بعد مواجهات شرسة نظراً لامتلاكهم مدافع بعيدة المدى ، وبعد

(1) Miles, Samuel : Op - Cit , p.149.

(2) Miles, Samuel : Op Cit. p . 150 .

(٣) (الدينار الاشرفي : دينار من ذهب ضرب في عهد السلطان المملوكي الاشرف برسباي ١٤٣٨ -

١٤٢١م ، وهو يساوي الدوكات البندقي ٣,٤٥ غرام ، أنظر : Miles , Samuel : Op - cit , p 150 .

تحتيط أسطول هرمز جرى التوقيع على معاهدة عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م التي كان من أهم شروطها :

- دفع جزية سنوية للبرتغاليين مقدارها ١٥ ألف زرافين ^(١).
- تبعية هرمز للتاج البرتغالي .
- إنشاء قلعة تتواجد فيها القوات البرتغالية بشكل دائم .
- احتكار البرتغال للتجارة في الخليج العربي .
- تحريم الملاحة في الخليج العربي قبل الحصول على تراخيص رسمية من السلطات البرتغالية ^(٢).

هزّ سقوط هرمز في أيدي البرتغاليين العالم الإسلامي ، وأشار إلى ذلك الكثير من المؤرخين المسلمين ، ومنهم على سبيل المثال ابن العماد الذي ذكر حوادث في عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م بقوله:

" وفي هذه السنة غلبت الفرنج على مدينة هرمز، وأخذوها ، وأفنوا من فيها من المسلمين والتجار والمسافرين " ^(٣).

بعد إخضاع عُمان والخليج العربي للسيطرة البرتغالية عُيّن البوكرك نائباً للملك البرتغالي في الهند سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م . في حين تولى البحارة البرتغاليون إدارة المنطقة والتحكم بها من جزيرة هرمز ، التي بقيت مركز القيادة البرتغالية في المشرق العربي حتى تحريرها سنة ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م .

خامساً : مواقف القوى الإقليمية من الغزو البرتغالي للخليج العربي :

أ - المماليك : كانت دولة المماليك في أواخر أيامها تعيش حالة من الفوضى والضعف ، ورغم ذلك لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه الغزو البرتغالي لبحار المشرق العربي، واستغل المماليك الأوضاع المضطربة في أوروبا بسبب الحروب الإيطالية (٨٩٩ - ٩٦٦هـ / ١٤٩٤ - ١٥٥٩م)، حيث كانت إيطاليا ميداناً للتوسع والحروب بين الدول الأوروبية

(١) زرافين وهي ما يعادل ثلاثمائة ريال ، أنظر : جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٦٥.

(٢) قاسم ، جمال زكريا : الصراع بين عرب الخليج والبرتغاليين في ضوء ما ورد من مصادر التراث المحلية ، القاهرة ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٧٨ - ٨٠ .

(٣) الحنبلي ، ابن عماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر أرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ج ٩ ، ص ٦٠ .

(١)، في وقت مزقت فيه حركة الإصلاح الديني وحدة الكنيسة المسيحية في غرب أوروبا ، وأدت إلى نشوب حروب أهلية طويلة في معظم مناطق أوروبا الغربية (٢) . بالتزامن مع تلك الأحداث تتالت صيحات النجدة وطلب المساعدة من الإمارات الهندية الإسلامية التابعة للسيطرة التجارية العربية ، لمواجهة الخطر البرتغالي الذي كان يهدد باحتلالها، واحدة تلو الأخرى ، فأرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري في عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٨م أسطوله البحري لمواجهة القوات البرتغالية الغازية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وحقق الانتصار على القوات البرتغالية الغازية في بعض المعارك ، غير أن القوات المملوكية منيت بهزيمة صعبة للغاية في موقعة ديو البحرية في عام ١٥٠٩م. فكانت هذه الهزيمة الحدث الفصل في المواجهات العسكرية التي حسمت لصالح

الهيمنة الاستعمارية البرتغالية على تجارة الشرق ، بدلاً من الهيمنة العربية . (٣)

ب - الصفويون : كانت الدولة الصفوية أثناء الغزو البرتغالي للخليج العربي منشغلة بالصراع السياسي والمذهبي مع الدولة العثمانية ، لذلك لم يستجب الشاه إسماعيل الصفوي لنداء هرمز ، وكان ينظر إلى الزحف العثماني نحو بلاد فارس بأنه أخطر من الغزو البرتغالي ، إضافة إلى شعور الصفويين أنه يمكنهم الاستعانة بالبرتغاليين في مواجهة العثمانيين عندما تدعو الضرورة إلى ذلك .

ج - العثمانيون : في هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية في أعلى درجات قوتها ، لكنها لم تتحرك بشكل فعلي لمواجهة خطر البرتغاليين إلا بعد مضي ثلاثة وأربعين عاماً تقريباً أي في عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، حيث وقعت أول معركة بين القوات العثمانية والقوات البرتغالية ، فبعد أن ضربت القوة البحرية العثمانية حصون البرتغاليين في هرمز في عام ١٥٥٠م ، استجد أهل القطيف بالعثمانيين ، فشنت القوات العثمانية هجوماً خاطفاً على البرتغاليين ، لكنها انسحبت بعدها بقليل. (٤) ورد

(١) الزبيدي ، مفيد : المرجع نفسه ، ص ٤٥١ .

(٢) قاسم ، محمد وحسني ، حسين : تاريخ أوروبا الحديثة من عصر النهضة إلى نهاية الثورة الفرنسية لجنة التأليف والنشر ، مصر ، ط ١ ، ١٩٣٤م ، ص ٤١ .

(٣) محمد ، نجاح و أبو جبل ، كاميليا : تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق) ، جامعة دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٦م ، ص ٧٢ .

(٤) حصاد ، ندوة الدراسات العمانية ، البحوث والدراسات التي قدّمت في الندوة ، ذو الحجة ١٤٠٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٠م ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان المجلد الرابع ، "لور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج" دراسة مقارنة للدكتور صلاح العقاد ص ٦٦ .

البرتغاليون على ذلك الهجوم بطريقة انتقامية، واستغلوا فرصة طلب بعض زعماء القبائل مساعدتهم ضد العثمانيين ، فحَرَكُوا حملة بحرية ضد أهل القطيف، ونجحت الحملة في إرغام الحامية العثمانية في القطيف على الاستسلام، ثم قاموا بتدمير الحصون والميناء. ولم يستطع العثمانيون التصدي للبرتغاليين منذ بداية غزوهم للمنطقة، وذلك لأسباب عديدة، منها :

أ - افتقار الدولة العثمانية إلى امتلاك القوّة البحرية اللازمة لمواجهة البرتغاليين الذين اعتمدوا على التفوق الكبير لأساطيلهم البحرية، حيث كانت الدولة العثمانية تعتمد بالدرجة الأولى في نشاطاتها العسكرية على القوات البرية.

ب - عدم وجود قواعد عسكرية بحرية للعثمانيين في بحر المشرق العربي.

ج - سوء العلاقة بين العثمانيين والقوى المحلية العربية في منطقة الخليج العربي.

د - الخلاف السياسي بين العثمانيين والصفويين ، ومحاولة العثمانيين تغليفه بغطاء مذهبي.

سادساً - الثورات الشعبية ضد البرتغاليين في ساحل عُمان والخليج العربي :

عاث البرتغاليون فساداً في المدن المطلّة على الخليج العربي، من سلب ونهب وحرق وقتل وتدمير بعد سيطرتهم عليها ، حتى أن بعض المصادر البرتغالية تعترف بذلك أحياناً ، فمنذ أن وطأت أقدامهم سواحل الخليج العربي في عام ١٥٠٧م ، ظلت الأوضاع في تلك المنطقة قلقة ومضطربة ، وسببت إخراجاً وتحدياً للوجود البرتغالي برمته في بحر الشرق ، وقد استمر ذلك الوضع حتى بعد احتلال هرمز في عام ٩١٩هـ/١٥١٣م ، والقضاء على إمارة الجبور في البحرين والقطيف على يد أنطونيو كوريا في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م. وكانت الممارسات البرتغالية في المنطقة سبباً في اندلاع العديد من الانتفاضات الشعبية ، منها:

أ- ثورة قلّهات (٩٢٥ - ٩٢٦هـ / ١٥١٩ - ١٥٢٠م)

رغم وقوع إمارات الخليج العربي بما فيها ساحل عُمان تحت السيطرة البرتغالية العملية، إلا أن سكانها لم يستكينوا لها مدة طويلة ، نظراً لما حلّ بهم من دمار، وضياع ثرواتهم ، واضطهاد حريتهم ، و قاوموا سيطرة المحتل البرتغالي بشتى السبل، وبكافة الوسائل المتاحة لهم ، وعاش البرتغاليون في الخليج العربي على فوهة بركان ينذر بالانفجار بأية لحظة ، وحدثت أولى بوادر ذلك الانفجار عام ٩٢٥هـ / ١٥١٩م في

قلهات ، المدينة العمانية المتمردة ، حيث أقدم توران شاه حاكم هرمز الذي كان ينتظر الفرصة المواتية للاستقلال بمملكته ، على الاستعانة بالبرتغاليين ضد تلك الثورة والتمرد الذي انطلق من قلهات بقيادة حاكمها شرف الدين ، وذلك لكبح جماحها وإعادتها إلى حظيرته في هرمز ، فأرسلت القوات البرتغالية على عجل من الهند للقضاء على الثورة في قلهات ، لكنها لم تستطع أن تفعل الشيء الكثير ، ووقع خمسة عشر جندياً من الجنود البرتغاليين أسرى بيد قوات شرف الدين ، ولولا تدخل نائب الملك في الهند شخصياً ديبغو لوبيز دي سكويرا عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م وحضوره إلى المنطقة الساحلية من عمان لما توقفت الثورة، فقد ساعد تدخله على التوصل إلى تسوية مرضية للطرفين ، تضمنت إطلاق سراح الأسرى الخمسة عشر، وعادت الأحوال إلى طبيعتها في المدينة^(١).

ب- ثورة الجمارك عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م :

شهد الخليج العربي اندلاع انتفاضة عامة ضدّ الوجود البرتغالي ، اجتاحت كل المراكز التجارية فيه من قلهات إلى البحرين ، ويعيد بعض الباحثين ^(٢) سبب هذه الانتفاضة إلى السيطرة البرتغالية على الموارد التجارية ، وجمع الأموال من السكان المحليين والتجار بطريقة تعسفية ، إلا أن تتبع سيرة البرتغاليين في الشرق عامة والخليج العربي خاصة ، تبين أن هناك أسباباً أخرى لانتفاضة الأهالي في الخليج العربي ضدّ البرتغاليين ، أهمها سياسة القسوة والظلم التي اتبعتها البرتغاليون في المنطقة ، وعدم احترامهم حرية سكان الخليج العربي وعقيدتهم الإسلامية ، ورفضهم سماع شكاوى سكان الخليج وشيوخه على حد سواء.

وهناك أسباب أخرى ذكرها ملك هرمز توران شاه في رسالته التي كتبها باللغة العربية، وأرسلها في عهد لوبيز سواريز نائب الملك في الهند ، إلى بلاط لشبونة، حيث جاء فيها:

" اليوم هرمز من توابعكم ، وعمالكم فيها يتدخلون في كل الأمور الداخلية ، ونحن ننتظر منكم الاهتمام بهذا الأمر والنظر إلى تعمير المنطقة ، حيث أن أحوال مملكة خراسان الصفوية مضطربة، مما تسبب في توقف القوافل التجارية لهذه الولاية . ومن

(1) Miles, Samuel : Op Cit. p . 156.

(٢) العقاد ، صلاح : الاستعمار في الخليج الفارسي ، مكتبة الأنكلو مصرية ، القاهرة ، د ط ١٩٥٧م ص ١٩ .

ناحية موانئ الهند ، فإن القوافل لا تأتي إلا من ثلاثة موانئ فقط ، بعد أن كانت تأتي من جميع موانئها ! ولهذا فقد قلّ الدخل ، وأصبحنا لا نتعامل مع أحد ، ويأتي مسؤولوكم إلينا كل في عام ، ويمكنون فترات طويلة ينفقون فيها ببذخ " (١) .

وسبب هذه الشكوى من جانب ملك هرمز والموانئ التابعة له من البرتغاليين ، أن نائب الملك في الهند لوبيز سواريز كان قد اتبع سياسة جديدة تختلف عن سياسة سلفه البوكرك ، فقد تخلى عن أسلوب البطش والتتكيل ، وسعى إلى إنعاش التجارة البرتغالية بالطرق السلمية ، وإهمال التجارة الخليجية (٢) ، وقامت سياسته على تكليف الضباط العسكريين البرتغاليين بتحصيل الضرائب من المدن التجارية على سواحل عُمان والخليج العربي وفق تعليمات لشبونة، مما ساعد هؤلاء الضباط على الانغماس بالعمل التجاري، وتحولوا إلى سماسرة وتجار، وعدّ هؤلاء العسكريون القيادة مسببة ، والكرامة فضيحة ، على حد قول ويلسون (Wilson) والسمعة الحسنة مذمة ونقيصة (٣) .

وقد نظر سكان ساحل عُمان " القواسم " وغيرهم من سكان سواحل الخليج العربي إلى هذه السياسة ليس من منظور هدفها الظاهر، وهو تخفيف السيطرة الاحتكارية التقليدية على التجار ، بل في هدفها الباطن ، باعتبارها زيادة في التحكم والسيطرة على يد القادة العسكريين مباشرة ، وقد كان معظم هؤلاء الضباط من ذوي الأخلاق الفاسدة ومن المرتشين ، ولا يفقهون شيئاً بالعمل التجاري ، وتولد نوعٌ من الكراهية في نفوس سكان المنطقة بسبب سوء إدارة هؤلاء للموانئ التجارية ، وسوء معاملتهم للسكان ، ناهيك عن الرغبة في التخلص من الوجود البرتغالي برمته في الخليج العربي ، فقامت تلك الثورة العارمة في هرمز وموانئ الخليج وعُمان ضد البرتغاليين في ذي الحجة ٩٢٧هـ / تشرين الثاني ١٥٢١م ، ويمكن أن نجل أسبابها البعيدة في مايلي:

١- إخضاع الحكومات لاتفاقيات مجحفة تضمنت فرض أتوات سنوية ، وتطلبت نفقات كبيرة ، كانت تصب في مصلحة القادة العسكريين البرتغاليين في الخليج العربي و الحكومة البرتغالية، كما حدث في مملكة هرمز، حيث خاض البرتغاليون حرباً ضروساً ، ألحقت بها الخراب ، ثم أُجبر حكامها على توقيع اتفاقية جائرة أنهكت

(١) السلطان ، محمد : الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ١٥٠٧ - ١٥٣٥م ، د.ط مركز زايد للتراث ، العين ٢٠٠٠م ، ص ٢٩٢
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٩٢ .

(3) Wilson , Arnold: *The Persian Gulf* . UK , 1928 , P , 122 .

اقتصادها ، بعد مساومات وجدال حول فرض ضريبة بلغت قيمتها أرقاماً خيالية ، وأهم ما تضمنته الاتفاقية :

- أ - أن تدفع هرمز أتاوة سنوية قدرها خمسة عشر ألف دينار أشرفي لملك البرتغال عمانويل الأول ولورثته من بعده ، وله الحق في زيادتها
- ب - تُعفى البضائع البرتغالية القادمة إلى هرمز من الرسوم الجمركية ، أما البضائع التي يشتريها البرتغاليون من هرمز والموانئ التابعة لها فتدفع البرتغال عليها رسوماً جمركيةً تماثل تلك التي يدفعها سكان البلاد الأصليين ، والتي تعادل ٣% .
- ج - تثبت الملك سيف الدين ملكاً على هرمز، وخوجة عطار وزيراً أو حاكماً إلى جانبه، على أن تكون تبعيتهما لملك البرتغال. (١)

وقد وقعت هذه الاتفاقية على ثلاث نسخ : واحدة بالعربية ، وأخرى بالفارسية ، وقعهما ملك هرمز ووزيره خوجة عطار، وأرسلتا إلى ملك البرتغال ، والثالثة بالبرتغالية، وقعهما البوكيرك ، وسلمت لملك هرمز، ثم رُفِعَ العلم البرتغالي فوق قصر ملك هرمز، لتأكيد تبعية الجزيرة للبرتغال.

٢- انتهاك حرمة المساجد : حيث لم يتعفف البرتغاليون عن مهاجمة دور العبادة ، فأينما حلوا حلّ معهم الخراب ، وكانت بيوت الله ضمن أهدافهم ، دون مراعاة لقدسيتها وحرمتها، و سُلِبَ منها كل ما فيها من نفيس ، حتى المصاحف والكتب الدينية ، وكانت تُضرم النيران فيها تارة ، وتضرب بالمدافع تارة أخرى .

٣- حصار هرمز ومنع وصول الماء والتموين إليها : من المعروف أن هرمز تقتصر إلى وجود المياه الصالحة للشرب فيها، وكان الماء العذب ينقل إليها بصهاريج خاصة تحملها السفن من جنبرون (٢) وقشم ، كما كانت تستورد الكثير من المؤن من المناطق المجاورة ، ومن بلدان بعيدة ، بسبب نقص المراعي والمزروعات فيها .

٤- احتلال القطيف بالتعاون مع الصفويين في عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م : بعد أن احتل البرتغاليون البحرين توجهوا إلى هرمز ، وبدأت استعداداتهم العسكرية لاحتلال القطيف، الذي كان مخططاً له منذ في عام ٩٢١ هـ / ١٥١٥م ، حيث تقدم سفير الشاه

(١) أوبان ، جان : مملكة هرمز أسطورة الخليج ، ترجمة نادية عمر ، ديوان رئاسة الدولة ، مركز الوثائق والبحوث ، أبو ظبي ، د.ط ، ٢٠٠٢م ، ص ٧٥ .

(٢) جنبرون : وهي المدينة التي سميت فيما بعد (بندر عباس) أنظر : أوبان ، جان : المرجع نفسه ، ص ١٦٣ .

إسماعيل الصفوي بمطالب عديدة ، أُجيب إلى بعضها ، ومن ضمنها أن تقدم البرتغال للدولة الصفوية بعض السفن لاستخدامها في غزو البحرين والقطيف ، وأن يقوم البرتغاليون في الوقت نفسه بقمع التمرد الذي وقع ضد الشاه في مكران (١) عن طريق السيطرة على جواهر (٢) ، وهو ما تم فعلاً بعد ست سنوات من التخطيط.

تحركت الجيوش البرتغالية نحو القطيف في ١١ رجب ٩٢٧هـ / ١٥ حزيران ١٥٢١م ، وبدأت تهاجمها في ٢٧ حزيران ، وتمكنت من قتل السلطان مقرن بن زامل والاستيلاء على المدينة ، فخلفه علي بن أجود ، إلا أنه لم يبق في الولاية أكثر من شهر واحد. ٥- اغتيال خوجة عطار : الحاكم الفعلي لمدينة هرمز في ظل الحاكم الصبي سيف الدين ، الذي كان عمره حوالي اثني عشر عاماً فقط ، وكان خوجة عطار قد استجد بالشاه إسماعيل الصفوي ، وطلب منه العون والمساعدة ضد البرتغاليين ، وعلى الرغم من أن الشاه لم يكن في وضع يسمح له بإقحام نفسه في حرب ضد البرتغال ، بسبب صراعه مع السلطان العثماني سليم الأول ، إلا أنه بعث إلى سيف الدين (حاكم هرمز) برسالة تطالبه بالانصياع لأمر البوكرك الذي أرسل بدوره مع جواب سيف الدين رسالة مليئة بالعجرفة لتسليمه للشاه. (٣)

إذ تشير الشهادات التي أدلى بها الشهود في إطار التحقيق الذي أمر به دوم فرانشييسكو دالميدا إلى أن البوكرك حاول في عام ٩١٣هـ / ١٥٠٨م إثارة الرئيس نور الدين الوالي على خوجة عطار مغرباً إياه بالوصاية على العرش مقابل قتله خوجة .

٦- قرار ملك البرتغال وضع موظفين برتغاليين يشرفون على إدارة الجمارك في هرمز بدلاً من الموظفين الهرمزيين ، وخضوع ملك هرمز لهذا الأمر ، إضافةً إلى المعاملة القاسية للأهالي التي تسبب فيها مشرفو الجمارك هؤلاء .

٧- عرقلة السلطات البرتغالية النشاط التجاري لسكان الخليج العربي مع موانئ الهند ، وفرض ضرائب باهظة أثقلت كاهل الناس والحكام على حد سواء ، وعدم اهتمام

(١) بلاد مكران هي تلك المنطقة جنوب شرقي بلاد فارس وغرب باكستان. تطلّ على بحر العرب ، كانت تابعة لسلطنة عمان ثم احتلت فارس جزءها الغربي والذي يحمل الاسم ذاته.

(٢) جواهر : تقع في أقصى جنوب غربي باكستان حالياً ، وتطلّ على بحر العرب وهي الجزء الساحلي من إقليم لوئستان ، وأقرب للحدود الفارسية ، تنازل عنها السلطان سعيد بن تيمور لحاكم باكستان أيوب خان في عام ١٩٥٨م وفق اتفاقية رسمية برعاية بريطانية.

(٣) لوريمر، ج.ج. القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ١٣.

المسؤولين البرتغاليين بالشكاوى التي كانت تقدم لهم حول هذه القضايا (١) ، ناهيك عن استباحة السفن التجارية وأخذ ما فيها عنوة .

٨- مساعدة القوات البرتغالية الحكومة الصفوية في إفشال الانقلابات التي حصلت على سواحل بلوشستان ومكران ، تطبيقاً لاتفاقية سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م بين البوكر ك وسفير الشاه إسماعيل الصفوي، (٢) وهي دلالة على أن البرتغاليين بإمكانهم إبرام الاتفاقيات ضد حكومات أخرى ، تتخذها سنداً لشن حروب ضد الآخرين .

٩- حرق السفن العربية: حيث اتبع البرتغاليون سياسة حرق السفن منذ وصولهم إلى الجنوب العربي والخليج والسواحل الهندية ، مثال على ذلك : حرق ثلاثين مركباً للصيد في رأس الحد ، وحرق أربعة عشر مركباً كانت ترسو في ميناء قرّيات ، بعد أن لقي أكثر من ثمانين بالمائة من سكان المدينة مصرعهم بأمر من البوكر ك ، وحرق مائة وخمسين مركباً (هي كل ما كان موجوداً) في ميناء القطيف (٣) .

١٠- إصرار البرتغاليين على تثبيت إشارة الصليب على الأبنية الإدارية الرسمية (٤) ، وبناء الكنائس ، ودعوة الناس إلى المسيحية في جميع الاتفاقات التي تم التوقيع عليها مع جزيرة هرمز .

١١- عقد اتفاقيات تنص على إعفاء المنتجات البرتغالية من الرسوم الجمركية ، وبيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغال (٥) .

ج - ثورة هرمز عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م :

بعد أن سقطت جزيرة هرمز تحت السيطرة البرتغالية في عام ٩١٨هـ / ١٥١٣م، سادت منطقة الخليج العربي كله حالة من عدم الرضى ، ولدت شعوراً عميقاً بضرورة التخلص من الوجود البرتغالي فيها ، وبدأ التخطيط العملي لتنفيذ هذه العملية بصورة

(١) السلطان ، محمد : المرجع نفسه ، ص ٢٩٣ .

(٢) فلسفي ، نصر الله : إيران وعلاقتها الفلسفية في العصر الصفوي ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٩ ص ١٤ .

(٣) ويلسون ، آرنولد : تاريخ الخليج ، ترجمة محمد أمين قاسم ، دار الحكمة ، لندن ، ط ١ ، ٢٠٠١م ص ٧٢ .

(٤) الغنائي ، أحمد : البرتغاليون في البحرين وحولها ، الوثيقة ع ع ، س ٢ / ١٩٨٤ في مركز الوثائق في أبو ظبي ، ص ٧٨ .

(٥) ويلسون ، آرنولد : المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

سرية بعد وفاة البوكر ك في عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م ^(١) داخل بلاط هرمز بين الملك توران شاه من جهة ، ووزرائه بزعامة شرف الدين من جهة أخرى، ووضعت الخطة بنجاح ، وتضمنت شقين اثنين: الأول : نص على إرسال رسائل سرية مع بعض التجار الذين يترددون على جميع الموانئ الخليجية التابعة لهرمز في البحرين والقطيف وسواحل عُمان ^(٢) ، تضمنت تعليمات وتوجيهات خاصة لحكام هذه الموانئ بإشعال الثورة والتخلص من الوجود البرتغالي في المنطقة ، على أن تقوم الثورة في جميع الموانئ في وقت واحد، حتى لا يفلت أي عسكري برتغالي من أيدي الثوار ، وحددت ساعة الصفر يوم ٣٠ ذي الحجة ٩٢٧هـ / ٣٠/١١/١٥٢١م .

أما الشق الثاني من الخطة الهرمزية فقد تولى تنفيذه توران شاه شخصياً ، وانطوى على حيلة مدبرة للتخلص من القوة العسكرية البرتغالية ، حيث اجتمع بقائد الأسطول البرتغالي في هرمز والخليج العربي آنذاك المدعو (جاركيا دي كوتتيهو) قبيل اندلاع الثورة بفترة قصيرة ، وادعى وجود بعض القراصنة على الساحل العُماني المطل على بحر العرب، يغيرون على السفن التجارية هناك ، ويشكلون مصدر قلق حقيقي ومتاعب للتجار، إذ يتصيدون قوافلهم التجارية ويسلبونها. وطالب الملك بوجوب القضاء عليهم في الحال بإرسال بعض قطع الأسطول البرتغالي إلى المنطقة .

انطوت الخدعة على القائد البرتغالي جاركيا دي كوتتيهو، وأرسل سفينتين حربيين من سفن الأسطول البرتغالي الأربع المتواجدة في ميناء هرمز من أجل تنفيذ هذه المهمة . وبذلك استطاع توران شاه التخلص من نصف عدد سفن الأسطول البرتغالي ، وتحاشى قوة نيرانه الضاربة وإمكانية استخدامها ضدّ الثوار، في الوقت الذي تنشب فيه الثورة،

خاصة وأن الأسطول يشكل عصب القوة العسكرية البرتغالية في الخليج العربي.^(٣) وعندما توفرت كافة الظروف والشروط اللازمة في الموعد المحدد تماماً، ثار بركان الثورة في الخليج العربي ، وزلزل الأرض تحت أقدام البرتغاليين فجأة ، وبشكل لم يكن متوقعاً بالنسبة لهم. وكان ذلك في أواخر ذي الحجة ٩٢٧هـ / فجر ٣٠ تشرين الثاني ١٥٢١م. وكاد هذا البركان أن يقضي على الوجود البرتغالي في الخليج العربي آنذاك ،

(١) شاكر ، محمود : موسوعة تاريخ الخليج العربي ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عُمان ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٢) أوبان ، جان : المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٩٤ - ٢٩٦ .

حيث عصفت الثورة بالحاميات العسكرية البرتغالية في هرمز والبحرين وقريات وقلعات وصحار، وتعرضت للهجوم من البر والبحر بشكل مفاجئ وساحق،^(١) ولولا دفاع البرتغاليين عن أنفسهم بالأسلحة الحديثة لأبيدوا عن آخرهم . غير أن الثورة لم تتجح في رفع قبضة البرتغاليين عن المناطق المحتلة. فقد واجهوا الثوار بأقصى ما لديهم من قوة، بعد أن وصلتهم إمدادات عسكرية بحرية من الهند، كما قدّم لهم أمير الجبور في عُمان الشيخ حسين بن سعيد الدعم والمساعدة انتقاماً من هرمز لاشتراكها من قبل في القضاء على سلطان الجبور مقرن بن أجود أثناء معركة احتلال البحرين، ونال مكافأة على ذلك بأن عينه البرتغاليون حاكماً باسمهم على صحار، بعد أن تمكنوا من قمع ثورتها وتدميرها وإحراقها .^(٢)

- نتائج ثورة هرمز:

لقيت هرمز (التي شهدت عملية التخطيط للثورة وكانت مركز انطلاقها) المصير ذاته ، وتعرضت هي الأخرى للقصف والتدمير على أيدي البرتغاليين ، وأُحرقت بالكامل. من قبل الملك توران شاه قبل أن يهرب منها، بعد هزيمة قواته أمام البرتغاليين، حيث لجأ إلى جزيرة قسم القريبة^(٣) وقتل فيها غيلة ، ربما على أيدي أحد أتباع الشيخ حسين الجبوري ، منهياً بذلك حساباته مع هرمز وملكها .

فتح القضاء على هذه الثورة أمام البرتغاليين الباب واسعاً لتكريس سلطتهم على هرمز واستغلالها إلى أبعد حدّ ممكن، ولتحقيق ذلك نصبوا على عرشها صبيّاً من أبناء توران شاه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره اسمه محمد ، وأبقوا إلى جانبه الرئيس شرف الدين، بعد أن أصدروا عفواً عنه، وربطوا الملك الجديد محمد شاه بمعاهدة جديدة وقعت

في عام ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م^(٤)، " وكان من الطبيعي أن يؤدي فشل ثورة هرمز في عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م إلى وضع نهاية للحكم الوطني فيها ، وتشديد القبضة العسكرية والاقتصادية البرتغالية على الجزيرة. فقد قام (لويز دي مينزيس) بعد صدور الأوامر

(1) Miles, Samuel : Op Cit , p . 157.

(٢) تفصيلات الثورة ونتائجها أنظر : العناني ، أحمد : المرجع نفسه ص ٩٨ . وقاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الأول من القرن ١٦ الميلادي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ١٨٠-١٨٢ . وأيضاً : Sousa Farira: *Bahrain & Oman* , Alwatheeqa No 5 p July 1984 وأيضاً: أويان ، جان : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

(٣) السلطان ، محمد : المرجع نفسه ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(4) Sousa, Fariary: *The history of the die of India*, Vol (1) p. 265.

إليه من غوا، بتعيين محمد شاه سيف الدين أبا نصر حاكماً جديداً على هرمز التي عادت للسيادة البرتغالية في عام ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م، وقد عين هذا الصبي رئيس شرف الدين حاكم صحار السابق الذي هرب مع توران شاه إلى قشم ، وعاد بعد أن مات ملكه هناك ، وزيراً له " (١) .

د - أحداث سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م:

أحسَّ البرتغاليون مباشرةً بمشاعر الكره من قبل عامة المسلمين عرباً ، وهنوداً، وفرنساً وغيرهم، وأدركوا أن العلاقات بينهم وبين القوى المحلية في الخليج العربي والمحيط الهندي أصبحت تتصف بالعداء الشديد، ففي شهر ذو القعدة ٩٢٨هـ / تشرين الثاني ١٥٢٢م ضاق شيخ هرمز ذرعاً بالوضع الذي وصلت إليه الأمور في الخليج العربي وخاصة في هرمز، فسعى إلى إخراج البرتغاليين من هرمز ، وصحار، وقلهات، والقريات، ومن شمال الخليج العربي: البحرين ، والقطيف، (٢) رداً على سيطرتهم على المراكز التجارية المذكورة، ونجح الهجوم العسكري المباغت الذي دبره على تلك المناطق في بادئ الأمر نجاحاً كبيراً ، وتكبد البرتغاليون خسائر فادحة، لكنهم أرسلوا النجدة العسكرية السريعة كعادتهم ، فوصل الأسطول البرتغالي إلى المنطقة، واستعاد سيطرته على المراكز السابقة ، ووضعت اليد البرتغالية عليها من جديد .

أما بالنسبة إلى البحرين، فقد أحرز التحرك العسكري ضدَّ البرتغاليين قدراً كبيراً من النجاح، حيث تولى قيادة الثورة في الليلة الموعودة الشيخ حسين بن سعيد، وشن هجوماً مباغتاً على القلعة التي كان يتحصن بها البرتغاليون، وألقى القبض على حاكم الجزيرة البرتغالي، وشنقه على جزع نخلة، أما من بقي على قيد الحياة من الجنود البرتغاليين فقد لاذوا بالفرار في سنة ذي الحجة ٩٢٨هـ / تشرين الثاني ١٥٢٢م، فلجأ البرتغاليون إلى الدبلوماسية لاسترداد سيادتهم على البحرين، وتمكنوا بعد فترة في العام نفسه من ترتيب اتفاق تضمن ما يأتي :

١. أن يكون الشيخ حسين بن سعيد حاكماً عربياً على البحرين .

(١) السلطان ، محمد : المرجع نفسه ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) البرغوثي ، جبارة : المرجع نفسه ، ص ٨ ، وكان مصطلح شمال الخليج يومذاك يشمل الدويلات الأربع : البحرين ، الإحساء ، القطيف والبصرة .

٢. أن يوافق الشيخ حسين على تعيين مستشارٍ برتغالي له . (١)

تجدر الإشارة هنا إلى أنه ليست هناك معلومات وافية في المصادر والمراجع التاريخية عن هذا الاتفاق وما آل إليه، إلا أنها تذكر أن البرتغاليين أرسلوا مستشاراً يدعى لويس دي منزيس على رأس قوة عسكرية بحرية إلى (طيوى) فهاجمها ، ثم سار إلى مسقط، وعمل على تعزيز علاقات البرتغاليين مع حاكم مسقط الشيخ راشد، وحاول استعادة الأسرى من بعض موانئ الخليج العربي.

هـ - أحداث سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م:

أعاد البرتغاليون ثانية السيطرة على الخليج العربي ، وعينوا من جديد موظفين برتغاليين في المراكز الجمركية في هرمز ، وصحار ، والقريات ، والبحرين ، والقطيف ، فأثار هذا العمل الأهالي في جميع مناطق الخليج العربي ، وجعل حاكم هرمز محمد شاه يقدم على تنظيم هجوم بري وبحري في وقت واحد على القوات البرتغالية في الجزيرة في محاولة منه لاقتلاعهم منها، وألحق بها خسائر فادحة في الأرواح ، بعدما نجح في تحقيق عنصر المفاجأة في مهاجمتهم ، في الوقت نفسه تمكن أحد الأساطيل البرتغالية من تدمير مدينة صحار تدميراً تاماً ، فاستعاد البرتغاليون زمام المبادرة ، وتقدم أسطولهم إلى هرمز ، واستعادها بعد هجوم بري وبحري عنيف .

في تلك الفترة ، وفي الوقت الذي عصفت فيه الأحداث الجسيمة بهرمز والخليج العربي قام الشاه إسماعيل الصفوي مرة أخرى بتصرف غريب، وأرسل مندوباً من طرفه إلى هرمز يطالب الملك الجديد محمد شاه الأول بدفع الضرائب التي لم تدفعها هرمز تحت الإدارة البرتغالية بعد اتفاق في عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م مع البوكر ك !! وهدد الشاه بأنه سيمنع مرور القوافل التجارية البرية من خراسان وكرمان وفارس إلى سواحل الخليج العربي وهرمز في حال رفض طلبه. وقد اعتذر الملك محمد شاه للبرتغاليين عن دفع الضرائب متذرعاً بالحصار الاقتصادي الصفوي. فقرر نائب الملك في الهند " دورات مينيزيس " عقد اتفاقية جديدة مع محمد شاه، حتى لا تتكرر ثورة في عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م، مرة أخرى، وسعى لإسكات الشاه إسماعيل عن المطالبة بضرائب هرمز من

(١) ج - بي سلوت : عرب الخليج (١٦٠٢ - ١٧٨٤م) ، ترجمة عايذة خوري ، مراجعة محمد مرسى عبد الله ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، د. ط ، ١٩٩٣م ، ص ١١٧ - ١١٨ .

ناحية أخرى، وعقدت هذه الاتفاقية في بندر ميناب على الساحل الفارسي^(١)، وعرفت باسم " معاهدة ميناب " في ٢ رمضان ٩٢٩هـ / ٢٣ تموز ١٥٢٣م . وقع عليها عن الجانب البرتغالي نائب الملك في الهند دورات مينزيس، وعن الجانب الهرمزي محمد شاه الأول المغلوب على أمره ووزيره شرف الدين، وجاءت بنودها مشابهة لبنود المعاهدة الأولى التي أبرمها والد محمد شاه، سيف الدين مع البوكرك، وتضمنت معاهدة ميناب ما يلي:

- ١- تتبع مملكة هرمز لملك البرتغال مباشرة ، وتسلم له عند الطلب، على أن يكون محمد شاه حاكماً من قبله عليها .
- ٢- زيادة مبلغ الضريبة السنوية التي تدفعها هرمز للبرتغال إلى " ستين ألف أشرفي " . وفي حال تعطل وصول القوافل التجارية البحرية من كجرات وبومباي وموانئ الهند إلى هرمز يخفض هذا المبلغ إلى ٢٥ ألف أشرفي، يدفع مقدمها بعد هذه الاتفاقية .
- ٣- يجب على أتباع ملك هرمز ورعاياه ألا يحملوا السلاح باستثناء المسؤولين الرسميين فقط للدفاع عن أنفسهم .
- ٤- يقوم ملك البرتغال بتقديم الحماية لأمير هرمز ضد أي عدوان خارجي على مملكته.
- ٥- يمنع سلطان هرمز من امتلاك قوة عسكرية إلا للحراسة والخدمة في البلاد وقصر الحاكم فقط .
- ٦- يسلم سلطان هرمز جميع النصارى البرتغاليين الذين أسلموا إلى دولة البرتغال^(٢). كتبت المعاهدة باللغة الفارسية ، وترجمت إلى اللغة البرتغالية ، وأرسلت إلى الملك البرتغالي جون الثالث ، الذي بعث بدوره رسالة تفويض إلى محمد شاه بحكم هرمز نيابةً عنه^(٣).

لم تمنع هذه الاتفاقية وغيرها من الاتفاقيات والمعاهدات والقرارات البرتغالية، سياسة الظلم والإجحاف التي اتبعها المسؤولون البرتغاليون في هرمز وتوابعها، وكانوا

(١) ميناب: مدينة في ساحل كرمان ، تبعد ٥٠ ميلاً عن ميناء بندر عباس الحالي في الساحل الفارسي . أنظر : خوري ، إبراهيم و التدمري ، جلال بيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي ١٢١٤ - ١٥٠٧م ، مركز الدراسات والوثائق ، مج ٢ ، رأس الخيمة ، ١٩٩٩م ، ص ٢١٨ .

(٢) Sousa, Fariary: Op Cit, Vol (i) p. 265 266 , نقلاً عن السلطان ، محمد : المرجع نفسه، ص ٣٠٧- ٣٠٨ .

(٣) نقلاً عن السلطان ، محمد : المرجع نفسه ، ص ٣٠٨ . وهو بدوره نقلها عن جهانكير قائمقامي ، ص ٣٠-٣١ .

يطالبون دائماً بأموال إضافية وضرائب جديدة ، ومارسوا الضغط على الجزيرة أكثر من ذي قبل. وكانت هذه المعاهدة وغيرها من نتائج إخفاق ثورة في عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م، حيث ألغيت الإدارة الوطنية في هرمز، وصار تجارها يتبعون الإدارة البرتغالية الجديدة. ونتيجة الإجراءات القهرية والتتكيل والبطش بالأهالي والتجار، والإشراف على الحركة التجارية في هرمز وتحصيل الرسوم الجمركية بالقوة، أصبح البرتغاليون حكاماً فعليين، ولم يعد لحاكم هرمز أي أثر في توجيه دفة الحكم في بلاده. وبسبب سوء المعاملة والضغط والإرهاب الذي مارسه البرتغاليون ضد المواطنين والتجار أصبح الناس يفرون من هرمز ويغادرونها بلا رجعة إلى جزر الخليج العربي ، مثل قشم وغيرها^(١).

ولم يتمكن البرتغاليون بعد إلغاء الإدارة الوطنية وسقوط الحكم الوطني في هرمز، من تسخير دفة الحركة التجارية كما كانت في السابق في هرمز والخليج العربي ، وبسبب سياسة القبضة العسكرية الحديدية بدأ الركود الاقتصادي يخيم على مملكة هرمز، وانتهى عهد العمران والرخاء الشامل الذي عاش سكان هرمز في ظله أكثر من قرنين من الزمن^(٢).

سابعاً - الصراع الفارسي البريطاني - البرتغالي للسيطرة على هرمز :

توفي البوكرك في ١٢ محرم ٩٢١هـ/ ٢٥ شباط ١٥١٥م في مدينة غوا الهندية، بعد أن بعث رسالته الشهيرة إلى ملك البرتغال ، والتي جاء فيها: "لم استطع أن أكتب هذه الرسالة بنفسي، بسبب شعوري بأن نهايتي قد قربت ، ولي هنا ولد وحيد أوصي له بالقليل الذي أملكه.. أما الهند فهي تتحدث عن نفسها وعني ، وإني أترك مكاني في الهند تحت تصرف جلالكم، والإجراء الوحيد الذي يتطلب سرعة الانجاز هو إغلاق المضائق، وأملى أن تذكروا دائماً الانجازات التي حققتها في الهند، لعلها ترفع من شأنِي"^(٣). بعد وفاة البوكرك خلفه " لوبوسواريز " نائباً للملك البرتغالي في الهند ، وكان سواريز يختلف تماماً عن البوكرك بسبب تحفظه المصطنع ، في حين كان البوكرك يتسم بقدر كبير من الحنكة واللباقة ، إضافة إلى أن سياسة سواريز كانت تعتمد على حرية التجارة

(١) السلطان ، محمد : المرجع نفسه ، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) عن عبد العزيز الشناوي ، المراحل الأولى للوجود البرتغالي ، ص ٦٢٨. نقلاً عن السلطان ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٣) ويلسون ، آرنولد : المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

دون اللجوء إلى التنكيل والقسوة كما كان يفعل البوكر ك ، لدرجة أن الدعوة إلى حرية التجارة دفعت بعدد من الضباط البرتغاليين إلى الاستقالة من وظائفهم العسكرية ، والانخراط في مهنة التجارة .

ولعل هذا التحول الكبير الذي طرأ على السياسة البرتغالية في الخليج العربي ، حدث بضغط عوامل عديدة منها :

١- إن عدد القوات البرتغالية لم يكن متكافئاً مع حجم الامتداد والتوسع السياسي والعسكري الذي وصلت إليه البرتغال، والذي شمل عدداً من الدول والبحار والمحيطات.

٢- ثبت أن المصالح البرتغالية تكمن في حجم العوائد التجارية والاقتصادية ، أما فكرة الاحتلال المباشر فإنها تكلف الإدارة البرتغالية إمكانيات مادية وبشرية باهظة ، لا تتناسب وعدد سكان البرتغال وقتئذ.

٣- حدوث متغيرات في الموقف الدولي ، نجم عنها ظهور قوى جديدة مثل الانجليز والهولنديين ، ونجاح تلك القوى في كسب مواقع جديدة بالاعتماد على سياسة المهادنة ، مما دفع البرتغال إلى التفكير جدياً بمواكبة الواقع الجديد.

٤- اقتناع البرتغاليين بسياسة فرانسيسكو دي دي المايدا "نائب الملك في الهند" ، التي كانت تعتمد على كسب ود الشعوب تحقيقاً للمصالح البرتغالية ، وبالتالي فقد أدركت الإدارة البرتغالية خطأ سياسة البوكر ك ، لكن بعد فوات الأوان.

أنقلت الضرائب التي فرضها البرتغاليون على جزيرة هرمز كاهل حاكمها الجديد "توران شاه" مما اضطره إلى إعادة بسط نفوذ مملكته ثانية على البحرين والإحساء والقطيف ، وبالتالي توحدت مصالح حاكم هرمز مع مصالح البرتغاليين بهدف استعادة ممتلكات هرمز.

نجح الغزو البرتغالي الهرمزي في عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م في استعادة السيطرة على جزيرة البحرين أثناء غياب حاكمها السلطان مقرن بن زامل أمير عرب بني جبر، (١) الذي كان يقضى فريضة الحج ، فتولى الشيخ حميد نائب مقرن قيادة حركة المقاومة التي استمرت إلى أن عاد الشيخ مقرن من الحج ، إلا أن القوات البرتغالية تمكنت من

(١) ابن إياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، المعهد الألماني ، ط ١ ، ١٩٨٤م ، ج ٥ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

القضاء عليها ،والسيطرة التامة على البحرين،ووقع الشيخ مقرن أسيرا في أيدي البرتغاليين الذين حكموا عليه بالإعدام ، فانهارت معنويات قواته،وانسحبت إلى القطيف.^(١)

تجب الإشارة هنا إلى أن ابن إياس وصف السلطان مقرن بالضعف والتخاذل ، وأنه أخذ يتوسل إلى البرتغاليين بعد أسره ، ويستجدي عطفهم ، بهدف الإبقاء على حياته ^(٢) ، إلا أن رواية ابن إياس تتناقض مع ما ورد في المصادر البرتغالية التي وصفت السلطان مقرن بالشجاعة والصمود ، وأنه أصر على الموت في أرض المعركة وسط جنوده ، ومات متأثراً بجراحه، وأن قائد قوات هرمز هو الذي أمر ضباطه بقطع رأسه، وحملها إلى هرمز ^(٣) واكتفى البرتغاليون بما حققوه من نصر في البحرين ، ولم يواصلوا تقدمهم ناحية القطيف بسبب المقاومة العربية العنيفة التي واجهتهم ، وخوفاً من أن يسترجعهم عرب القطيف إلى داخل الجزيرة العربية.

لقد حرص البرتغاليون على أن يحتفظ حكام هرمز بسلطاتهم الشكلية ، وأرغموهم على الولاء لملك البرتغال ، لدرجة أنه لم يكن يسمح لهم بمغادرة الجزيرة إلا بموافقة مسبقة من الحاكم البرتغالي فيها. ^(٤)

بعد إلحاق البرتغال بامتلاكات العرش الإسباني عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، أبدت مدريد قدراً من الاهتمام بالمستعمرات البرتغالية في الشرق، وحرصت على إعادة تقييم الموقف وفقاً للمتغيرات الجديدة ، اعتماداً على مبدأ حرية التجارة، بعيداً عن سياسة الاحتكار، التي كانت تمثل إستراتيجية ثابتة في السياسة البرتغالية ^(٥)

في عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٨م قدم إلى هرمز ليتاكو تنهو (Ieitacoutinho) مبعوثاً من حكومة مدريد بهدف وضع تصور لسياسة إسبانيا الجديدة في بلاد المشرق ، وضمن ليتاكو مشاهداته في تقرير بعث به إلى حكومته جاء فيه : " وصلت قسوة القادة على

(١) ابن إياس ، محمد بن أحمد: المصدر نفسه : ص ٤٣٢ .

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣٢ .

(٣) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠م ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، دت ، ط ١ ، ص ٧٦ .

(٤) ويلسون ، آرنولد: المرجع نفسه ، ص ٧٩ .

(٥) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠م ، ص ٩٦-٩٧ .

الأهالي إلى حدٍ عدّ فيه هؤلاء القادة أنفسهم بمثابة آلهة يجب أن يطاعوا ، وأنهم تركوا واجبهم الحقيقي ، واتجهوا إلى مزاولة التجارة وكسب المال ، واتبعوا في ذلك شتى الطرق... لقد كان قادة الجزيرة وضباطها يجبرون المصدرين من التجار على شراء بضائعهم وأسهمهم المالية بأسعار عالية يحددونها بأنفسهم، إضافة إلى أنهم لا يدفعون الضرائب الجمركية المفروضة على تلك السلع ، ولذا فإن إيرادات الجمارك قد تقلصت". (١)

على الرغم من المكانة السياسية والاقتصادية التي وصلت إليها البرتغال خلال القرن السادس عشر الميلادي بسبب إسهاماتها البارزة في مجال الكشف الجغرافية، إلا أن عوامل الضعف، مع بداية القرن السابع عشر الميلادي بدأت تتال من تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف، والتي امتدت من البرتغال حتى الساحل الغربي للهند. وكان لسياسة العنف والقسوة ، وسياسة الاحتكار التي أضرت بتجارة الشرق ضرراً بالغاً، أثر في وضع نهاية للنفوذ البرتغالي في الشرق ، حيث هبط مستوى الأداء والنظام في السفن البرتغالية ، وكثرت حالات التمرد بين الضباط ، ومن مقارنة السفن البرتغالية بالسفن الإنكليزية مع بداية القرن السابع عشر الميلادي تبدو بوضوح حالة التدهور التي وصل إليها الأسطول البرتغالي. (٢) فقد استفاد الهولنديون والانجليز من التجربة البرتغالية، ومارسوا التجارة بحرية مطلقة، بالاعتماد على الشركات التجارية البحرية الضخمة ، وظهر منذ البداية عدم تمكن النظام البرتغالي من مجاراتها، وكان قيام شركة الهند الشرقية الانكليزية في جمادى الأولى ١٠٠٩هـ/ كانون الأول ١٦٠٠م " الدليل العملي على عجز البرتغال عن الاستمرار في حماية ممتلكاتها المترامية الأطراف، ولعل أكبر مثال على فشل الإدارة البرتغالية في الشرق مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي هو أن هُرمز فقدت أهميتها العالمية، وأن الطريق البري (طريق الحرير)، الذي كان قد أهمل لقرون عديدة ، عاد لممارسة دوره القديم ، وبدأ التجار يسلكونه من جديد بواسطة قوافل من الهند إلى قندهار في أفغانستان، ومنها إلى فارس فأوروبا ، وقد بعث التاجر الانكليزي ستيل في عام ١٦١٤م تقريراً إلى إدارة

(١) عقيل ، مصطفى : التيارات السياسية في الخليج ، منشورات دار الثقافة ، قطر ، ط٢ ، ١٩٨٨م ، ص ٥٠ .

(٢) لوريمر، ج.ج : القسم التاريخي ، ج١ ، ص ٦٨ .

شركة الهند الشرقية الانجليزية أشار فيه إلى أهمية هذا الطريق ، وقدر ستيل عدد جمال القوافل التي تسلكه باثني عشر ألف أو أربعة عشر ألف جمل .^(١) وهكذا انصرف التجار عن هرمز ، لدرجة أن عائداتها من الجمارك انخفضت من أربعين ألف بردوس مع منتصف القرن السادس عشر الميلادي إلى عشرة آلاف بردوس فقط في عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م .

وقد أكدت المصادر البرتغالية تحول التجار عن هرمز، حيث ذكر الأسقف سيرين في رسالة بعث بها إلى إسبانيا أن تجارة آسيا قد أخذت تتحول إلى طريق القوافل البرية، وأرجع ذلك إلى الوضع المتدهور في الخليج العربي ، وخصوصاً في هرمز، واقترح سيرين علاجاً لهذه المشكلة يقضي بضرورة تشجيع التجار وإغرائهم للعودة إلى هرمز بمنحهم امتيازات سخية مثل تراخيص التنقل ومزاولة التجارة .^(٢)

ولعل سيرين كان يقصد من ذلك أن يلفت انتباه حكومته إلى أهمية إعادة الثقة بالإدارة الإسبانية ، منذ أن وقعت البرتغال تحت السيطرة الإسبانية في عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م . ومع نهاية القرن السادس عشر الميلادي كان الانجليز والهولنديون قد قطعوا شوطاً كبيراً في تدعيم نفوذهم في الخليج العربي ، من خلال ممارسة النشاطات التجارية الحرة ، في الوقت الذي أدرك فيه الشاه عباس الكبير منذ توليه الحكم في عام ١٥٨٧م، أهمية استعادة هرمز للسيادة الصفوية ، ليس فقط لأهميتها الاقتصادية ، وإنما أيضاً لأن بقاءها في أيدي البرتغاليين يمثل تهديداً مباشراً للمصالح الفارسية، وبناءً عليه سارع إلى طرد البرتغاليين من البحرين في عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م .^(٣)

لاشك أن طرد البرتغاليين بدءاً من البحرين شكل ضربة قاسية لهم ، فقد خسروا مبالغ كبيرة كانت تأتيهم من صيد اللؤلؤ، إضافة إلى الضرائب التي كانوا يفرضونها على الأراضي الزراعية، التي كانت تضمها الجزر ، والتي كانت تستخدم لتزويد هرمز بالموءن ، وكان البرتغاليون يعدون البحرين جزءاً من ممتلكاتهم، بحكم تبعيتها لهرمز، لذلك طالبوا باستردادها أثناء الاتصالات الدبلوماسية التي أجروها فيما بعد مع بلاد فارس.

(١) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٥٣ .

(٢) عقيل ، مصطفى : المرجع نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) العابد ، صالح : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠م ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٦م ، ص ٢٣ .

ومنذ تأسيس شركة الهند الشرقية الإنكليزية ، سعى الانجليز للتحالف مع الشاه عباس الكبير الذي لم يخف إعجابه بالشركات التجارية الانكليزية، التي استطاعت خلال فترة زمنية قصيرة أن تنتزع لنفسها مكانة كبيرة في تجارة الخليج العربي والمحيط الهندي ، وتمكنت من ضرب سياسة الاحتكار التي مارسها البرتغاليون، في الوقت الذي توالى على بلاد فارس سفارات إسبانية عديدة لإنقاذ الموقف المتدهور بين الدولتين، إلا أنها فشلت بسبب إصرار إسبانيا على استعادة البحرين واحتكار حرير فارس، ورفض الشاه عباس الكبير المطالب الإسبانية ، ليس لأنها تتعارض مع مصالح بلاده فقط ، وإنما لأنه أيضاً أرجع التدهور الاقتصادي والأمني في الخليج العربي إلى وجود البرتغاليين فيه ، وبالتالي اعتمد على مناصرة الانجليز له في رفض المطالب الإسبانية .

منذ عام ١٠٢٣هـ / ١٦١٤م أخذ الشاه عباس الكبير يعمل من أجل زيادة التقارب مع الانجليز، ومنح شركة الهند الشرقية الانكليزية تسهيلات عديدة ، تتعلق بمرور السفن والبضائع التجارية ، وأصدر مرسوماً أكد فيه على ضرورة حسن استقبال الإنكليز الذين يفدون إلى بلاد فارس .

استاء الأسبان من التقارب الفارسي- الانكليزي، وتضاعف هذا الاستياء بسبب النشاطات الفارسية في الجزر المجاورة لهرمز والمدن الشاطئية الفارسية، وخصوصاً جمبرون^(١)، التي استولى عليها الفرس عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م نظراً لأهميتها الحيوية بالنسبة لهرمز .

من ناحيتهم أدرك البرتغاليون أن الخناق يضيق على هرمز، التي كان الفرس يحاصرونها من كل اتجاه ، لذا بعث الملك فيليب الثاني رسالة إلى نائب ملك البرتغال في "غوا" يحثه على دعم وسائل الدفاع عن هرمز، لأنها كانت آخر معقل للبرتغاليين في الخليج العربي وفي الوقت الذي كانت فيه العلاقات الفارسية- البرتغالية تتدهور، وتتنذر بمواجهة عسكرية ، كانت شركة الهند الشرقية الانكليزية تراقب الموقف باهتمام كبير، وشعر البرتغاليون بحجم الخطر، وبخاصة بعد أن تنازل الشاه عباس الكبير للانجليز عن ميناء جاسك في عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م^(٢).

(١) تبعد جمبرون عن هرمز مسافة ١٦ كيلو متراً تقريباً. أنظر : أوبان ، جان : المرجع نفسه ، ص ١٦٣ .

(٢) هي ميناء على الساحل الشمالي لخليج عمان في منطقة مكران، وتبعد ٣ كم عن بندر عباس ، وتعتبر أقدم البلاد التي هاجر إليها العرب في مناطق عمان وساحلها.

اقتصرت العلاقات الانجليزية - الفارسية في البداية على النشاطات التجارية والاقتصادية ، ولم تتناول المباحثات قضية التحالف العسكري، ولعل الشاه عباس الكبير كان يطمح إلى طرد البرتغاليين بمساعدة انجليزية، لكن هذا الطموح لا يصل إلى حد الاعتماد الكلي على الانجليز عسكرياً، ولعل نجاح البرتغاليين في احتلال جزيرة قشم هو الذي دفع الشاه إلى التعجيل بالتحالف مع الانجليز ، وأنه كان يتطلع إلى التخلص بسرعة من الوجود البرتغالي في هرمز ، فكيف الأمر وقد احتل البرتغاليون "قشم" التي تعد منطقة مهمة وحيوية من ممتلكاته، ناهيك عن تكرار غارات القوات البرتغالية على السواحل الفارسية بطريقة استفزازية، قطعت على الشاه تردده اتجاه التحالف مع الانجليز.

ولعل أهم عامل في اتخاذ الشاه قراره هذا يعود إلى عدم امتلاك بلاده أسطولاً بحرياً قوياً قادراً على احتلال هرمز، فضلاً عن الوصول إليها (١) .

في الوقت الذي كانت فيه العلاقات الفارسية - الإسبانية تتدهور يوماً بعد يوم، أدركت حكومة مدريد أهمية هرمز كآخر معقل لها في الخليج العربي ، لذا أصدرت الأوامر للأسطول الإسباني - البرتغالي بالتحرك من إسبانيا إلى الخليج العربي في جمادى الآخرة ١٠٢٨هـ / نيسان ١٦١٩م بحجة إغلاق مضيق باب المندب في وجه التجارة العثمانية، بينما كان الهدف الحقيقي هو تخويف الشاه عباس الكبير من مغبة القيام بأي عمل مفاجئ ضد هرمز، وبعد رحلة طويلة استغرقت أربعة عشر شهراً ، بسبب سوء الأحوال الجوية ، وصل الأسطول الإسباني إلى مياه الخليج العربي بقيادة روى فريز، القائد الشهير الذي كان يحمل تعليمات محددة ، تتضمن الضغط على الشاه لإعادة احتكار تجارة حرير فارس، وإعادة جمبرون والبحرين إلى السيادة البرتغالية (٢) .

دفعت سياسة إسبانيا الشاه عباس الكبير إلى الإسراع في عقد تحالف مع الانجليز، إدراكاً منه بأن حكومة مدريد تعتزم الإقدام على عمل يتعلق بمستقبله كحاكم على فارس، فلا بأس إذاً من الاعتماد عليهم للتخلص من البرتغاليين نهائياً مرة واحدة وإلى الأبد .

(1) Sykes, Percy : *A history of Persia* , Vol (ii) , London , 1958 , p . 190.

(٢) الموسوعة البرتغالية " يوم سقطت هرمز " ، مذكرات القائد البحري روي فيريرا اندراي ، ترجمة عيسى أمين ، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر ، المنامة ، ١٩٩٦م ، ص ١٢ - ١٣ .

تجب الإشارة هنا إلى أن حاكم هرمز البرتغالي دي سوزا كان يرى ضرورة إيجاد حل سلمي للمشكلات العالقة مع بلاد فارس ، ولعل هذا الرأي كان نابعاً من معرفته التامة بأوضاع المنطقة ، ومن قناعته بأن الحل العسكري ليس هو الحل الأمثل ، وربما كان هذا الموقف نابعاً من مصلحته الشخصية ، حيث حقق حكام هرمز عائدات اقتصادية كبيرة ، وكان همهم الأول الاستمرار في مناصبهم ، وممارسة التجارة لصالحهم الخاص.

وبينما كان الشاه عباس الكبير يرتب أموره بهدف إقامة تحالف عسكري مع الانجليز، كانت الاتصالات جارية مع الأسبان عن طريق عدد من الأساقفة الذين وفدوا إلى بلاد فارس كمندوبين من قبل القائد البرتغالي "روي فرير" ، ولفت الشاه عباس الكبير نظرهم إلى خطورة الاستحكامات البرتغالية في جزيرة قشم ، التي يعدّها عملاً عدائياً موجهاً ضد بلاده. غير أن هؤلاء الأساقفة كانوا أكثر إصراراً على إعلان الحرب بعد عودتهم إلى هرمز، بحجة أن سياسة الشاه المتشددة تحول دون مهمتهم المقدسة للتبشير بالمسيحية ، بينما كان القادة العسكريون أكثر ميلاً إلى الصلح .

ويبدو أن البرتغاليين غلبوا لغة العقل على فكرة استخدام القوة العسكرية ضدّ الشاه عباس الكبير، وقرروا الاستمرار في الجهود الدبلوماسية، فأرسلوا مندوباً عنهم إلى أصفهان بعد عودة بعثة الأساقفة ، ليؤكد للشاه أن تحصينات " قشم " (١) لا علاقة لها بأية نوايا عدوانية ، وأن إجراء بعض أعمال الترميم ما هو إلا نوع من الأعمال العادية التي تضمن وصول مياه الشرب إلى هرمز . غير أن المبعوث البرتغالي وصل متأخراً، ومع انتهاء لقائه بالشاه صدرت الأوامر إلى القوات الفارسية بالاستعداد لمواجهة البرتغاليين.

والغريب في الأمر أن الشاه قد اتخذ قرار الحرب قبل أن يبرم اتفاقاً نهائياً مع الإنكليز، ولعلها كانت مغامرة ، تقديراً منه لأهمية التنافس الانجليزي الفارسي اعتماداً على أن القضية ليست محل اختيار من جانب الانجليز، ويبدو أن شركة الهند الشرقية الانجليزية وجدت نفسها في موقف لا تحسد عليه، فهي تملك حق إعلان الحرب وإبرام الصلح في بلاد الشرق، لكنها مؤسسة تجارية، ولا تملك حق إعلان الحرب إلا عند الضرورة، ومع أن مسألة طرد البرتغاليين من هرمز تعد في مصلحة الانجليز، إلا أن قضية

(١) قشم وتنطق أحياناً جشم ويعرفها العرب باسم جزيرة الطويلة ، ويفصلها عن الساحل الفارسي قناة ، وتعرف لدى البريطانيين باسم مضيق كلارنس ، أنظر : لوريمر ، القسم الجغرافي ، ج٥ ، ص ١٨٩٣ .

الضرورة هنا مسألة اعتبارية، خاصة وأن الشاه قد اعتمد في محادثاته مع الانجليزي " دمونكس " على قدر من الابتزاز، وأخبره صراحة بأنه في حال رفض الإنكليز التعاون العسكري معه ستفقد شركة الهند الشرقية الانجليزية جميع امتيازاتها في بلاد فارس ، والتي سبق وأن حصلت عليها بشق الأنفس^(١)

لقد اختار الشاه عباس الكبير وقتاً مناسباً لتحقيق أهدافه (نو الحجة ١٠٣٠هـ/ تشرين الثاني ١٦٢١م) وهو الشهر الذي يجمع فيه الحرير الفارسي.. وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تخشى غضب جيمس الأول ملك إنكلترا، إذا أعلنت الحرب على إسبانيا ، باعتبارها القائمة على المصالح البرتغالية في الشرق ، حيث كانت العلاقات مستقرة والأوضاع هادئة بين إنجلترا وإسبانيا في ذلك الحين ، ثم أن الرأي العام الانجليزي كان يؤيد السلام ، ولا يريد الحرب ، خاصة ضد إسبانيا.

ولعل الثورة البروتستانتية كانت عاملاً مهماً في حسم الموقف ، ومساعدة بلاد فارس ضد البرتغال وإسبانيا، مع عدم استبعادنا لأهمية الدوافع الاقتصادية، وحرص شركة الهند الشرقية الانجليزية على مصالحها وامتيازاتها ، لذلك انتهى الأمر بموافقة الشركة على مساعدة بلاد فارس في استرداد هرمز وفق عدد من الشروط تضمنتها اتفاقية أبرمت في صر ١٠٣١هـ/ كانون الثاني ١٦٢٢م، أطلق عليها اتفاقية ميناب^(٢)

ثامناً -اتفاقية ميناب عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م ونهاية الوجود البرتغالي في هرمز

كان إعلان الحرب من جانب الانجليز على القوات البرتغالية في هرمز مسألة تبدو صعبة، بحكم أن إسبانيا أو البرتغال لم يكن بينهما وبين الانجليز ما يبرر قيام الحرب ، لذا فقد اتفقت شركة الهند الشرقية الانجليزية مع الشاه عباس الكبير على إيجاد مبرر يسبق عملياتهم العسكرية ، بأن يطلب حاكم " لار "، من حاكم هرمز دفع الضرائب المتأخرة عليه، منذ الاحتلال البرتغالي ، وإعادة الجزيرة إلى تبعية " لار"، كما كان عليه الوضع قبل قدوم البرتغاليين ، وكان من الطبيعي أن يرفض البرتغاليون تلك المطالب، وبالتالي يمكن لشركة الهند الشرقية الإنكليزية أن تعدّ هذا الرفض مبرراً مقبولاً للانضمام إلى الشاه عباس الكبير في عملياته العسكرية ضد هرمز.

(١) ويلسون، آرنولد: المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .
(٢) العيدروس ، محمد حسن : دراسات في الخليج العربي ، دار الكتاب الجديد ، الكويت ط ١ ٢٠٠٠م ص ٢٤ - ٢٥ .

في ٢٦ صفر ١٠٣١هـ / ٨ كانون الثاني ١٦٢٢م اجتمع إمام قلى خان المكلف من قبل الشاه عباس الكبير بالتنسيق مع الإنكليز مع قيادة الأسطول الانجليزي في ميناب ، وبعد إجراء مباحثات بين الجانبين تم التوقيع على اتفاق مشترك تضمن ما يأتي:

أ - أن يساهم الفرس بنصف العمليات العسكرية على الأقل ، وبعد أن يتحقق النصر ، تقسم الغنائم وأسلاب الحرب بالتساوي بين الانجليز والفرس .

ب- تسلم قلعة هرمز بكل ما بداخلها من أسلحة ومعدات إلى القوات الانجليزية ، ويمكن للفرس أن يقيموا لأنفسهم قلعة في هرمز، إذا رغبوا في ذلك.

ج- تقسيم عوائد جمبرون الجمركية بين الطرفين ، وإعفاء البضائع الانجليزية من الضرائب وكافة الرسوم .

د- يسلم الأسرى المسلمون إلى الفرس ، ويسلم الأسرى المسيحيون إلى الانجليز . وهناك نصوص أخرى تتعلق بتقديم مساعدات انجليزية لبلاد فارس معظمها مساعدات عسكرية (١) .

وعندما عرضت الاتفاقية على الشاه للمصادقة النهائية عليها أضاف بعض التعديلات التي كان من أهمها إعفاء البضائع الفارسية من الضرائب الجمركية في الموانئ الانجليزية مقابل إعفاء البضائع الانجليزية في الأراضي الفارسية (٢) .

وإذا كانت ثمة ملاحظات على هذه الاتفاقية فإنه يمكن القول : إن معظم بنودها جاء في صالح الانجليز، ولم يكن أمام بلاد فارس إلا الخضوع، بصرف النظر عن الربح والخسارة ، خاصة وأن الموقف كان يقضى بضرورة كسب الانجليز، لأنهم يملكون القوة العسكرية القادرة على تحرير هرمز، حتى لو أدى الأمر إلى استبدال الوجود البرتغالي بالوجود الإنكليزي .

في التاسع عشر من كانون الثاني ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م انطلقت السفن الانجليزية والفارسية من ميناء "جاسك" نحو جزيرة هرمز، بينما كانت سفن انجليزية أخرى تبحر إلى جزيرة "قشم" التي كانت تحت السيطرة البرتغالية ، وتشكل العمق الاستراتيجي لهرمز. (٣)

(١) لوريمر، ج.ج : القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٣ . وأنظر أيضاً : ويلسون ، آرنولدت : المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

(٢) المرجع نفسه : القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٣ -- ٤٤ .

(٣) ويلسون ، آرنولدت : المرجع نفسه ، ص ١١٠ .

بدأت العمليات العسكرية الفارسية - الإنكليزية بهجوم مكثف على جزيرة " قشم " التي عدّها البرتغاليون خط الدفاع الأول ، وعلى الرغم من ضخامة الهجوم رفض البرتغاليون الاستسلام، في البداية بفضل شجاعة قائدهم روي فراير ، الذي كان يفضل القتال والمواجهة حتى الموت شرفاً في أرض المعركة ، إلا أن جنوده تمردوا عليه ، واضطروه أخيراً إلى التسليم بشرط أن يخرج بقواته من جزيرة " قشم " إلى هرمز ، ووافق الفرس والانجليز على ذلك.

بعد سقوط جزيرة " قشم " لم تجد القوات الفارسية - الإنكليزية المشتركة صعوبة في مهاجمة هرمز، وضربت حصاراً شديداً عليها ، فاتصل البرتغاليون سراً بالانجليز، وسلموا أنفسهم إليهم ، لأنه من غير اللائق أن يسلموا أنفسهم للفرس المسلمين ، وفي ١٣ جمادى الآخرة ١٠٣١هـ / ٢٣ نيسان ١٦٢٢م أنزل العلم البرتغالي من على قلعة البوكرك ، بعد أن ظل يرفرف فوقها أكثر من مئة في عام (١) .

ونصت شروط استسلام البرتغاليين في هرمز على ما يأتي:

أ - باستطاعة الملك والأمراء والوزير مغادرة الجزيرة كل مع حاشيته.

ب - يغادر الكهنة بحليهم، والحاكم البرتغالي بممتلكاته وعبيده، والجنود بأسلحتهم، على أن يخرج البرتغاليون جميعاً من الجزيرة.

ج - يحق لمن يشاء من بقية السكان مغادرة الجزيرة أيضاً.

وقد خرج من القلعة، وفق ما ذكره فاريا إي سوسا " أكثر من ألفي برتغالي من الجنسين، ومن مختلف الأعمار باتجاه مسقط ، التي كانت لا تزال تحت السيطرة

البرتغالية " تاركين في أيدي أعدائهم ثرواتهم العظيمة، وشرف بلادهم البرتغال (٢) .

تسلم قولي خان والضباط الإنجليز مفاتيح القلعة، والأسرى، حيث تسلم الإنجليز الأسرى البرتغاليين، وحملوهم على ظهر سفن إلى مسقط، وتسلم قولي خان الأسرى العرب والفرس ، وأمر بقتل عدد كبير منهم ، وبعث برؤوسهم إلى جمبرون، لكي يكونوا " عبرة" لمن تسول له نفسه التعاون مع " الكفار " ضد المسلمين .

(1) Low, Charles Rathbne : History of Indian Navy 1613 – 1863, Vol (I) London 1877, p.38-45.

(٢) مراد ، محمد عدنان : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، دمشق ، دبط ، دبت ، ص ١٤٠ ١٤٥ .

أما آخر ملوك هرمز، محمود شاه، ووزيره نور الدين فقد احتفظ بهما قولي خان لديه بأمر من الشاه عباس الكبير، ثم طلب إحضار الملك محمود شاه إليه في أصفهان. وفي الطريق أعدم الوزير نور الدين في لار،^(١) وبعد وصول محمود شاه إلى الشاه عباس الكبير أمر بسجنه في قفص لسنوات عديدة، قبل أن يطلق سراحه، ويسمح له بالإقامة في أحد بيوت أصفهان. وفي بعض الروايات سمح له^(٢)، في أواخر عمره، بالانتقال إلى قلعات، موطن أجداده الأقدمين، حيث قضى نحبه هناك.

ولم تتجُ هرمز نفسها من التدمير بعد استسلام البرتغاليين، فقد حولها الفرس بعد تحريرها إلى خرائب، وعادت الجزيرة إلى ما كانت عليه قبل أكثر من ثلاثة قرون أرضاً جرداء لا حياة فيها، وانتهى العصر الذهبي لهذه المدينة – الإمبراطورية التي كان يصفها أهلها بأنها خاتم العالم لتأنقها وثرائها، في عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م، بعد أن تغيرت موازين القوى في المنطقة، ونشأت استراتيجيات وتحالفات ومصالح جديدة، التقت عند ضرورة الاستغناء عنها وشطبها عن خارطة العالم. وكانت مقدمات تغيير هذا الوضع قد بدأت في التبلور في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي الذي شهد باكورة التحولات المثيرة في أدوار اللاعبين على مسرح التجارة والسياسية الدولية. فالمحيط الهندي الذي كان حكراً على البرتغاليين، دون القوى الأوروبية الأخرى، طوال قرنين من الزمن، أخذ يستقبل منافسين آخرين من القارة الأوروبية، غيروا ميزان القوى فيه.

هذا وقد بلغت خسائر الانجليز في معركة هرمز نحو عشرين قتيلاً، ووصلت خسائر الفرس إلى ما يقرب من ألف قتيل، أما طاقم الحامية البرتغالية الذي كان يتألف من ثلاثة آلاف رجل، فقد قتل معظمهم، وأسر من بقي منهم، ونقلوا إلى مدينتي مسقط وصحار على الشواطئ العُمانية.

كانت معركة هرمز من أشرس المعارك التي خاضها الفرس ضد البرتغاليين، حيث لجأوا إلى زرع الألغام تحت الأسوار الخارجية للمدينة، مما أدى إلى إشعال النيران فيها.

(١) لار وتتنطق أحياناً لارسن، وهي على بعد ٢٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بندر عباس وتقع ما بين قشم وهرمز، أنظر: لوريمر، ج.ج: القسم الجغرافي، ج ٤، ص ١٣٥٤.

(٢) فلسفي، نصر الله: المرجع نفسه، ص ١٧ – ٢٥.

بعد السيطرة على هرمز ، سارع الجنود الإنكليز والفرس إلى الاستيلاء على الغنائم، ووجدوا في أحد المخازن عملات ذهبية قدرت بأكثر من مليوني أكوي اسبانيولي (١) ، وسرعان ما ظهرت الخلافات بين الحليفين، بسبب عدم تقسيم الغنائم بما يتفق ومعاهدة ميناب ، حيث رفض الفرس اقتسام المعدات الحربية ، بحجة الاحتفاظ بها في القلعة ، التي عارضوا بقاء أي جندي انجليزي فيها.

وقد ضاعف ذلك من سخط الانجليز الذين أدركوا أنهم خسروا كثيراً ، خاصة وأن شركة الهند الشرقية الانجليزية اضطرت إلى دفع هدية نقدية للملك جيمس الأول مقدارها عشرة آلاف جنيه ، كما قدمت مبلغاً مماثلاً لدوق بكنجهام كي يتوسط لدى الملك ليصدر عفواً عن الذين اشتركوا في تلك العملية (٢) .

من ناحية أخرى أشاع الانجليز بعد انتهاء المعركة بأنهم عوملوا معاملة سيئة من جانب الفرس بعد تحرير هرمز، وعند اقتسام الغنائم لم يحصل الانجليز على ما يتناسب والنفقات الفعلية للعملية ، حيث بلغ نصيبهم ما بين عشرين وخمسة وعشرين ألف جنيه، لذا فقد تضاعفت شقة الخلاف بين الحليفين ، خاصة وأن الانجليز رفضوا الالتزام بمعاهدة ميناب فيما يتعلق بخروجهم من هرمز (سواء من القلعة أو من الجزيرة كلها) وعندما ذكرهم الشاه عباس بالمكاسب التي حصلوا عليها من شراء الحرير الفارسي ، ومن حرية نقل بضائعهم التجارية دون دفع أية رسوم جمركية أجابوا بأن ذلك لا يتناسب بأي حال وسمعتهم التي تدهورت بسبب هرمز .

في وقت لاحق أخذ الفرس يتعقبون خصومهم البرتغاليين الذين انتقلوا إلى الساحل العماني ، وخاصة في مدينة مسقط التي اتخذها البرتغاليون معقلاً لهم ، ورفض الانجليز مشاركة الفرس في تعقبهم على السواحل العمانية بحجة عدم التزام الشاه عباس الكبير ببنود اتفاقية ميناب.

وعلى الرغم من معارضة الفرس للانجليز في احتلال هرمز بدلا من البرتغاليين ، إلا أن الشاه لم يكن متحمساً للحفاظ على هرمز كمدينة تجارية عالمية كما كانت، وأصدر أوامره بتدمير الجزيرة عن آخرها، وعلق السير توماس هربرت أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا هرمز عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م على ذلك قائلاً: " على طرف

(١) عقيل ، مصطفى : المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) لوريمر، ج.ج. : ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٨

الجزيرة تلوح أنقاض تلك المدينة الزاهرة التي كانت من قبل من أعظم جزر العالم، لقد جردت تلك الجزيرة من كل جمالها وازدهارها... إن هذا المكان المتواضع لم يعد يستحق أن يمتلكه أحد ، وكان من قبل عشر سنوات الدولة الوحيدة في الشرق ، إذ كان علينا أن نصدق ذلك " (١) .

حتى في ظل السيطرة البرتغالية كانت هرمز تؤدي دورها الحضاري والتجاري لدرجة أن تجارتها كانت تساوي تجارة لندن وأمستردام مجتمعتين (٢).

وعلى الرغم من أن هذا القول يحمل قدراً من المبالغة ، فإن من الثابت أن هرمز ظلت ولمدة ثلاثة قرون تمثل سوقاً تجارياً عالمياً ، جذب إليه تجارة آسيا ، وأدى إلى قيام مجتمع تجاري فيها بكل ملامحه وميزاته .

وبمجرد أن أصبحت هرمز أطلالاً لا تجذب إليها أحداً ، أصدر الشاه عباس الكبير أوامره لكي تكون جمبرون تلك القرية المهجورة على الشاطئ الفارسي مكاناً بديلاً لهرمز، حيث بنيت فيها سوق واسعة أطلق اسمه عليها وأصبحت تعرف باسم بندر عباس، ويلحق بها الميناء الذي قدر له أن يلعب دوراً مهماً في تاريخ الخليج العربي فيما بعد ، حيث نقلت السفن الفارسية أطلال هرمز من حجارة وأخشاب لاستخدامها في بناء بندر عباس ، ولم يعد في هرمز سوى أطلال قلعتها القديمة ، وأخذت بندر عباس على امتداد قرن ونصف مركز النقل الرئيسي لشركة الهند الشرقية الانجليزية (٣). وغدت الجزيرة التي كان عدد سكانها مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أربعين ألفاً، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي مجرد جزيرة مهجورة ، ليست لها أية أهمية تجارية أو سياسية.

بعد ثلاثة أعوام على طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز تحالف الانجليز مع الهولنديين لإزاحة المنافسة البرتغالية في بحر الشرق ، ونجح أسطول انجليزي - هولندي مؤلف من ثماني سفن حربية في دحر الأسطول البرتغالي بالقرب من هرمز في عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م ، ومن ثم أتيحت الفرصة لتوسيع النشاط الهولندي في البحار الشرقية، وامتد إلى مياه بحر العرب والخليج العربي منذ أوائل القرن السابع عشر

(١) ويلسون ، آرنولد : المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

(٢) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ١٠٢ .

(٣) العيدروس ، محمد حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٥ . وأنظر أيضاً : قاسم ، جمال زكريا : التوسع الأوروبي ، المرجع نفسه ، ص ١٠٣ .

الميلادي أيضاً ، ونافس الهولنديون البرتغاليين منافسة شديدة ، كانت سبباً في إضعافهم وتقليص نفوذهم ، وكانت هولندا أكثر الدول الأوروبية إسهاماً في إضعاف النفوذ البرتغالي في البحار الشرقية خلال القرن السابع عشر الميلادي حيث أخذ دورها يزداد ويتوسع منذ تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م وتمكنت خلال وقت قصير من أن تصبح المنافس الرئيسي للبرتغاليين في مجال تجارة التوابل. لم تكن المصالح التجارية الهولندية في المحيط الهندي والخليج العربي السبب الوحيد في وقوفهم في وجه البرتغاليين ، فقد كان لإغلاق ميناء (لشبونة) في وجه السفن الهولندية ، بعد أن انضمت البرتغال إلى عرش إسبانيا في عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م والتعرض للسفن التجارية الهولندية في أوروبا ، ولجوء البرتغال إلى رفع أسعار البضائع الشرقية وخاصة التوابل كي يحرموا على الهولنديين شراءها عظيم الأثر في زيادة الصدام بين القوتين ، وفي تعاون الهولنديين مع إنجلترا في ضرب المصالح البرتغالية ، ومع أن التعاون بين الهولنديين والإنكليز أدى إلى ضعف النفوذ البرتغالي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، إلا أن أيّاً منهما آنذاك لم يمتلك الدرجة نفسها من النفوذ الذي تمتع به البرتغاليون من قبل في القرن السادس عشر الميلادي ، ويرجع سبب ذلك إلى المنافسة الحادة التي ظهرت بعد وقت قصير بين هاتين القوتين من جهة ، ونشاط القوى المحلية ونضالها ضدّ القوى الخارجية من جهة أخرى .

على ضوء ما تقدم ذكره يمكن وضع وتسجيل الاستنتاجات التالية :

١. على الرغم من احتفاظ ملوك البرتغال بشعار الحرب الصليبية لدفع البرتغاليين إلى المساهمة في الحملات العسكرية، وتحمل نفقاتها وتضحياتها ، فقد بات واضحاً من خلال البحث طغيان العوامل الاقتصادية على سياسات البرتغال، التي عدت الدولة الاستعمارية الأوروبية الأولى في ذلك الوقت ، ويبدو واضحاً للعيان أن العامل الاقتصادي كان من أهم العوامل التي دفعت البرتغاليين باتجاه البحار والمياه العربية .
٢. فشلت سياسة التوسع الاستعماري والقهر العسكري في الإبقاء على الاحتلال البرتغالي لمدن الخليج العربي وموانئه، بفضل اتساع حركة المقاومة العربية، التي تمثلت باندلاع سلسلة من الثورات المحلية في هرمز، وساحل عمان، والبحرين، استهدفت الوجود البرتغالي برمته قبل التحالف الإنكليزي - الفارسي ضدّ البرتغاليين ، وحملت الإمبراطورية البرتغالية منذ قيامها بذور ضعفها وانحلالها ، وتجلّى ذلك بوضوح في ممارسات البرتغاليين العسكرية والسياسية من ناحية ، وفي سياستهم التجارية من ناحية

أخرى ، والتي عدت بمثابة الإسفين الذي دُقَ في جدار إمبراطوريتهم الاستعمارية ، ناهيك عن أنهم عجزوا عن الفصل بين مصالحهم السياسية والتجارية من جهة ، وحماسهم الديني من جهة أخرى .

٣. رغم كل أساليب القهر والتدمير التي انتهجها البرتغاليون في غزوهم للخليج العربي، وقسوة إجراءاتهم وسياساتهم الاقتصادية الموجهة ضد السكان المحليين ، فإن التجارة العربية في الخليج العربي والجزيرة العربية والمشرق لم تتأثر بنشاطات البرتغاليين إلا جزئياً ، كما أنها لم تتوقف رغم المضايقات وسياسة الحصار التي مارسها الأسطول البرتغالي ضد السفن والموانئ العربية الخليجية ، في وقت لم يتمكن فيه البرتغاليون من قطع الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي ، في حين بقيت التجارة البرتغالية حتى النهاية تمثل تجارة الباعة المتجولين ليس إلا .

٤. أدى طرد البرتغاليين من الخليج العربي إلى حدوث ما يشبه الفراغ السياسي والعسكري في المنطقة ، ساعد في جذب القوى الأوروبية الأخرى (هولندا ، بريطانيا، فرنسا) من أجل الحصول على موقع قدم جديد لها في هذه المنطقة المهمة من العالم، مما أدى إلى حدوث صدامات جديدة بينها ، وشكل ذلك في وقت لاحق مظهراً من مظاهر تناقض المصالح بين إنكلترا وبلاد فارس من ناحية ، واليعاربة والقواسم في عُمان من ناحية أخرى .

الفصل الثاني

القواسم ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
في عُمان حتى عام ١٧٤١م

القواسم ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عُمان حتى عام ١٧٤١م

أولاً : قبائل القواسم وهجرتهم إلى ساحل عُمان

يتميز ساحل عمان أو الساحل المتصالح (الإمارات العربية المتحدة حالياً) ، بالعديد من السمات التي منحته قدراً من خصوصيته وذاتيته ، وأهمها : احتوائه على بيئات طبيعية مختلفة ، جمعت بين الأنماط البحرية، والسهلية، والجبلية ، التي لعبت الدور الرئيسي في تنوع أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان، فمنهم المستقرون الذين يسكنون المدن الساحلية ، ويعملون بالصيد واستخراج اللؤلؤ والتجارة ، ومنهم الريفيون الذين يستقرون في القرى الزراعية التي توفرت فيها مياه الري ، ولاسيما في الواحات، ومنهم البدو الذين يطوفون الصحراء من مكان إلى آخر، حيث يتوفر الكلاً لقطعانهم.

ولما كانت الصحراء تشكل معظم مساحة ساحل عمان، مع وجود بعض المناطق الجبلية، فإن المجموعة الرئيسية من السكان فيه ، هم مجموعة من القبائل، وأهمها: تجمع قبائل بني ياس ، وقبائل القواسم ، والمناصير ، والعوامر ، والظواهر ، والشريقيون ، والنعيم، والشحوح وغيرهم، ولكل قبيلة من هذه القبائل تاريخها ودورها في تاريخ المنطقة.

تعدّ قبيلة القواسم من القبائل المهمة والرئيسية في ساحل عمان، وكان لها دور بارز في تاريخ المنطقة ، وتركز نشاطها الاقتصادي الرئيسي على العمل في البحر (التجارة ، صيد اللؤلؤ ، صيد الأسماك) ، مما مهد لأبنائها السبيل إلى السيطرة على النشاط البحري ، وبالتالي البراعة في ركوب البحر .

تسكن قبيلة القواسم الشارقة ورأس الخيمة ، وأقامت منذ القديم علاقات جوار طيبة مع قبائل بني ياس ، وتعاونت معها في صد الغزاة البرتغاليين.

اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين حول أصل القواسم (الجواسم) ، وتاريخ هجرتهم إلى ساحل عُمان ، فهناك من يرجع أصلهم إلى منطقة الصير بعُمان ،^(١) وإذا تحقق هذا الرأي ، فهذا يعني أن استقرار القواسم في عُمان لم يكن استقراراً حديثاً ، وإنما يعود

(١) قاسم ، جمال زكريا : تاريخ الخليج ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي ص ٢٤٣.

إلى فترة بعيدة في التاريخ ، وأن امتدادهم إلى الساحل الجنوبي حدث في فترات تاريخية متلاحقة.

وهناك من يرجع أصولهم إلى قبائل نجد ، وأنهم من عرب آل الظفير .^(١) وهناك من يرجعها إلى قبيلة بني ناصر النجدية ، التي كانت تقطن في مكة على يسار الكعبة المشرفة ، وهي قبيلة من الشرفاء، ينحدرون من قريش^(٢).

وهناك من يرجع وجود القواسم في المنطقة إلى عهد عبد الملك بن مروان وواليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، ويعدّهم من أحفاد القاسم بن شعوة المزني ، الذي أرسله الحجاج إلى عُمان للقضاء على ثوره قام بها سليمان بن عباد بن عبد بن الجلندی في القرن الأول الهجري^(٣)، ويعني ذلك، إن ثبت هذا القول، أن القواسم قدماء بأرض عُمان ، ومنها انتشروا بين القبائل الأخرى، واختلطوا بها في أماكن عديدة في صور والساحل الشرقي للخليج العربي بالإضافة إلى الساحل العربي منه ، وينسبهم المرجع نفسه إلى قبيلة نزار العدنانية ، إذ يرى أنهم بطن من بطون بني غافر ، كانوا قد هاجروا من الجزيرة العربية ، واستقروا في عُمان.

ويرجع بعض الباحثين نسبهم إلى العرب العدنانية في سامراء بالعراق.^(٤) والبعض يقول : إنهم سكان الميناء التجاري القديم سيراف ، ومنه انتقلوا إلى مسقط ، بعد حالة الانهيار التي تعرض لها ذلك الميناء ، ولذلك عرفوا في مسقط بالسيرافيين، واستقر بعضهم في ميناء صور، بينما توجه قسم آخر منهم إلى جلفار (رأس الخيمة) .^(٥)

(١) ابن غنام ، حسين: تاريخ نجد ، تحقيق : ناصر الدين الأسد ، القاهرة، ط ١ ، ١٩٦١م ، ص ١٨٨ – ١٨٩ والظفير قبيلة نجدية شهيرة.

(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠م ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ١٩٧٦م ، ص ٦٥ .

(٣) الخروصي ، سليمان بن خلف : ملامح من التاريخ العُماني ، مكتبة الضامري ، عُمان ، ط ٣ ، ٢٠٠٢م ، ص ٢٧٨ .

(٤) السامرائي ، أحمد : القواسم والخليج العربي ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٣م ، ص ١٢٣ . وأنظر أيضاً : البوريني ، أحمد قاسم : الإمارات السبع على الساحل الأخضر ، دار الحكمة ، بيروت، ط ١ ، ١٩٥٧م ص ١٦٩ .

(٥) قاسم ، جمال زكريا : تاريخ الخليج ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٢٤٤ .

وإذا اختلفت الروايات عن الوطن الأول للقواسم فإنها تتفق على أن زعيمهم الأول هو الشيخ (قاسم الكبير) (^١) الذي بنى مدينة رأس الخيمة ، حيث تذكر أنه نصب خيمته في نقطة على الساحل العربي بجانب مدينة جلفار القديمة بحيث كانت تراها جميع السفن التي تعبر الخليج العربي ، ومن ثم أطلق البحارة على ذلك المكان الذي بنيت فيه المدينة الجديدة بإسم رأس الخيمة . (^٢)

غير أن وثائق بومباي تؤكد بأن أول زعيم للقواسم هو كايد بن عدوان ، وليس قاسم ، وهو الذي بدأ استقرار القواسم في عهده في المكان الذي بنيت فيه مدينة رأس الخيمة الحالية (^٣) .

وقد ظهر القواسم كحلف قوي في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بعد ضعف نظام الحكم الفارسي (^٤) ، حيث انتهزوا فرصة الغزو الأفغاني لفارس عام ١١٣٤هـ / ١٧٢٢م ، فسيطروا على جزيرة قشم ، وظهروا على مسرح الحياة السياسية في منطقة الخليج العربي بعد اغتيال الشاه نادر عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، بعدما كانوا قد برزوا كقوة سياسية في عُمان أثناء الصراع الهناوي الغافري ، الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

مهما اختلفت الآراء حول موطن القواسم الأصلي ، فإن النسابين قد اتفقوا على أنهم عرب ينتمون إلى القبائل النجدية من عدنان ، وإلى قبيلة بني غافر بصفه خاصة ، ويؤكد ذلك ما كتبه الكابتن سيتون (Seton) وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية في مسقط ، في بداية اهتمام الشركة بالقبائل العربية وخاصة القواسم ، والرغبة في معرفة ما يجري في الخليج العربي ، وانضمام القواسم إلى التكتل الغافري في صراعه مع التكتل الهناوي في عُمان في أواخر أيام اليعاربة ، وسرعة اعتناقهم الدعوة الوهابية .

في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، ظهر القواسم كقوة محلية في عهد زعيمهم كايد بن عدوان ، حين أراد الشاه عباس الكبير محاربة البرتغاليين في هرمز ، فاستعان

(^١) معظم المراجع والمصادر تذكر الاسم قاسم دون نسبه وأصله وكيف وصل إلى جلفار ؟ .
(^٢) السالمي ، محمد بن عبد الله و عساف ، ناجي : عُمان تاريخ يتكلم ، المطبعة العمومية ، دمشق ، د. ط ١٩٦٣م ، ص ٩٨ - ٩٩ . وأنظر أيضاً : القرني ، صالح : الحملات البريطانية ضد القواسم ١٨٠٥ - ١٨٢٠م ، مكتبة الفلاح ، العين ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٧٠ .
(^٣) فارس ، علي عبد الله : شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في الخليج العربي ١٦٠٠ - ١٨٥٨م ط ٢ د. ط ١٦٩ .
(^٤) البحارنة ، محمد حسين : دول الخليج العربي الحديثة علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، مؤسسة الحياة ، بيروت ، د. ط ١٩٧٣م ، ص ٢٤ .

بالعناصر العربية على الساحل ، وقدّم له الشيخ كايد (الذي انتقل منذ ذلك الحين إلى جلفار التي أصبحت تعرف فيما بعد(رأس الخيمة) المساعدة اللازمة.^(١) وكما أن الغموض يكتنف بداية ظهورهم ، فإن ثمة فرق بين ما يدعى قبيلة القواسم ، وبين اتحاد القواسم الكبير الذي كان يشمل عدداً من القبائل الأخرى ، والذي لم يظهر إلى الوجود ويأخذ دوره كقوة رئيسية في المنطقة إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث أصبح من أكبر التجمعات القبلية التي شهدتها منطقة الخليج العربي ، حتى أن وثائق حكومة بومباي تؤكد أن القبائل القاطنة في الساحل الجنوبي من الخليج العربي قد نسبت إلى القواسم ، مما يدل على اتساع نفوذ ذلك الإتحاد وهيمنته وقوته في المنطقة.^(٢)

تألف اتحاد القواسم من عدد من القبائل الأخرى غير القواسم ، مثل قبيلة بني علي التي تقيم بصورة رئيسية في مدينتي رأس الخيمة والشارقة كما يقيم عدد من أبنائها في أم القيوين، وإليها ينتسب حكام هذه الإمارة اليوم ، ومن قبائل المهرة التي تقيم في رأس الخيمة ، وقبائل البومهير التي تقيم في معظم مدن الساحل التي تتبع الاتحاد القاسمي ، ومن آل زُعاب في رأس الخيمة والجزيرة الحمراء في مدينة كلباء، ومن قبيلة الحبوس التي تقيم في المناطق الجبلية الشمالية من إمارة رأس الخيمة، وخاصةً في ميناء رمس شمال رأس الخيمة ، فيما وراء مرتفعاتها ، وكذلك قبيلة الشحوح التي يتوزع أبنؤها في المناطق الجبلية من رأس الخيمة ، والمطاريش الذين يقيمون في سهل الباطنة في الشارقة ، ويحترفون الزراعة والصيد البحري.^(٣)

هذا وقد لعب القواسم في ظل دولة اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤١ م) دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، ولاسيما في تحرير عُمان من الاحتلال البرتغالي ، وفي حرب التحرير العُمانية ضد الفرس ١١٥٠ - ١١٥٤ هـ / ١٧٣٧-١٧٤١ م.

(١) البحارنة ، محمد حسين : المرجع نفسه : ص ٢٤٥ .

(٢) فارس ، المرجع نفسه ، ص ١٦٨ .

(٣) قاسم ، جمال زكريا : الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

ثانياً: دور اليعاربة والقواسم في طرد البرتغاليين من عُمان (١٠٤٩-١٠٥٩هـ/١٦٤٠-١٦٤٩م):

بعد طرد البرتغاليين من هرمز ، تعزز مركز البريطانيين في منطقة الخليج العربي ، وحصلوا على فرمان عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م الذي أعطاهم امتيازات خاصة في فارس، كما حصلوا على امتيازات جديدة منحهم الحق في شراء الكميات التي يريدونها من الحرير الفارسي في أي ميناء من موانئ فارس دون أية رسوم جمركية. (١) وبعد سقوط هرمز بيد قوات التحالف الفارسي - البريطاني ، أقام البرتغاليون وكالة لهم في ميناء (كنج) على الساحل الفارسي، وعقدوا اتفاقاً مع بلاد فارس في عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م اعترفوا فيه بالسيادة الفارسية على جزيرتي هرمز وقشم.

وسط هذه الظروف والتطورات كان النباهنة في عُمان يعيشون أواخر أيامهم في الحكم. فاتفق علماء الدين الإباضية في عمان والبالغ عددهم واحداً وسبعين عالماً على إيجاد حل للمشكلات التي تعاني منها عمان بسبب الحروب والفتن، (٢) والتخلص من الاستعمار البرتغالي، عن طريق إقامة دولة الإمامة الإباضية ، وانتخاب إمام يتولى تنفيذ هذه المهمة ، فوق الاختيار على ناصر بن مرشد اليعربي، الذي يرجع في نسبه إلى أحد بطون قبيلة النباهنة الأزدية اليمنية، فرضي به الجميع، وعقدوا له الإمامة بالرياستاق عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م ، وبذلك بدأ عصر اليعاربة في عمان . (٣)

مثل الإمام ناصر بن مرشد شخصية استثنائية في ظرف استثنائي ، وقد ساعدته حنكته السياسية وعبقريته في مجال الحكم والإدارة على فهم كل المتغيرات الجارية من حوله، سواء على المستوى المحلي العماني، أو على المستوى الخليجي (٤) ، لذلك بدأ عمله في الداخل أولاً بعد انتخابه مباشرة ، وكانت مهمته الأولى توحيد البلاد والقضاء على المعارضة أولاً ، وإخضاع حكام المناطق العُمانية من بني جلدته من ملوك النباهنة

(١) العبدروس ، محمد حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٥.

(2) Badger, George Percy: *History of Imams of Oman*, by Salil ibn Razik, London , 1871, p, xxx.

(٣) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : "تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان" ، مكتبة الإمام نور الدين السالمي ، السيب ، د.ط ، ٢٠٠٠م ، ج ٢ ، ص ٣.

(٤) إبراهيم ، محمد صابر عرب : "تولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية" ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، العدد ٣٧ ، ١٩٨٠ ، ص ١٩١.

ثانياً، وقد تحقق له ذلك بين عامي (١٠٣٣ - ١٠٤٩ هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٠ م) (١) إذ كانت سواحل عُمان قبل مبايعة الإمام ناصر ، تحت الاحتلال البرتغالي (صحار ، ومسقط ، وقریات ، وصور ، وخورفكان ، ورأس الخيمة) ، أما في الداخل فكانت كل منطقة تحكم من قبل حاكم مستقل ، فمالك بن أبي العرب في الرستاق ، وسلطان بن أبي العرب في نخل ، وأزكي بيد بني عزرة ، ونزوى بيد أهل العقر ، وبلاد سبت بيد سيف بن محمد الهنائي ، وحصن الغبي وحصن مقنيات بيد الجبور، وحصن توام بيد بني هلال ، وحصن لوى بيد سيف بن محمد بن جفير وحصن جلفار بيد ناصر الدين العجمي، وحصن ينقل بيد ناصر بن قطن الهلالي(٢).

بعد مبايعة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إماماً على عُمان ، توجه مع رجاله إلى قلعة الرستاق، وكان بها ابن عمه مالك بن أبي العرب اليعربي ، فسلم له القلعة دون قتال ، ثم توجه إلى (نخل) في عام ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م ، وبها عمه سلطان بن أبي العرب الذي رفض التسليم ، فحاصره الإمام أياماً عديدة ، ثم " افتتحها " ، في وقت بقيت فيها طائفة من الرجال لم ترضَ بإمامته ، فاستغلوا عودته إلى الرستاق ، وتمردوا ، وحاصروا حصن نخل ، فعاد إلى المدينة، وحاصرها مرة أخرى ، وقاتلهم حتى اضطروا إلى التسليم ، وولى عليهم الشيخ عبد الله بن سعيد الشقصي ، ثم عاد إلى الرستاق . (٣)

في عام ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م توجه الإمام ناصر بن مرشد اليعربي على رأس قواته إلى نزوى ، بعد أن تظاهر أهلها بمبايعته والتسليم له ، فلما وصل إلى مشارف المدينة أنكروا عليه البيعة ، فعاد إلى الرستاق ، حيث قدم عليه الشيخ أحمد بن سليمان الرواحي من بني رواحة، (٤) وعدد من رجال مانع بن سنان (٥) مبايعين بالإمامة ، ويدعونه إلى

(1) Wallwork , Tean ,: *The Portuguese period in the east Africa* , Nairobi 1968, p 197.

(٢) العيدروس ، محمد حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٥ - ٢٦ . وأنظر أيضاً : ابن رزيق ، حميد بن محمد : *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين* ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مسقط ، ط ٥ ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) ابن رزيق ، حميد بن محمد : *الفتح المبين* ، ص ٢٣٢ .

(٤) البطاشي ، سيف بن حمود : *إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان* ، تعليق سعيد الهاشمي ، مكتبة محمد البوسعيدي ، ط ١ ، مسقط ، ج ٣ ، ٢٠٠١ م ، ص ٢٢ .

سمائل ، فدخلها ظافراً منتصراً ، ومنها توجه إلى نزوى ، وفي الطريق إليها سلمت له أركي ، وتابع زحفه بعسكره إلى نزوى ، فاضطر أهلها إلى إعلان الطاعة له ، ثم اتفقت آراء بني أبوسعيد على أن يخرجوا منها ، ولما علم الإمام بذلك ، أمر بإجلالهم عنها ، ونهى عن قتلهم ، فأخرجوا منها ، والتجأوا إلى مانع بن سنان ، الذي كان قد عاهد الإمام على إتباع الحق ، لكنه نقض العهد ، كما لجأت فرقة منهم إلى سيف بن محمد الهنائي ببهلا ، فأعلن الحرب على الإمام ناصر بن مرشد اليعربي .

بعد أن استقرت الأمور للإمام ناصر بن مرشد اليعربي في نزوى جاءه وفد من أهل بلدة منح يدعوهم إلى دخولها ، وكان له ذلك ، ثم عاد إلى نزوى ، وجهز جيشاً كبيراً لقتال سيف بن محمد الهنائي القابض على حصن بهلا ، فلما وصل قائد الجيش مسعود بن رمضان النبهاني ^(٢) إلى قاع المرخ اكتشف خيانة بعض أفراد جيشه ، فعاد إلى نزوى ، وأخبر الإمام بذلك ، فترك بهلا لبعض الوقت . ^(٣)

خرج الإمام ناصر بعد تلك الأحداث يطوف في أرجاء عُمان ، حتى وصل إلى سمد الشان ، ثم رجع إلى الرستاق ومعه بنو ريام ، إلى أن خرج عليه محمد بن جفير ، وهاجم بجيشه قرية نخل ، ودخلها ، ونهب ما فيها من نفائس ، في حين ظل حصنها يقاوم ، فخرج عليه الإمام بجيشه ، وألحق به هزيمة منكرة ، وفر ابن جفير هارباً من الإمام . ^(٤)

بعد تحرير نخل عاد الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إلى الرستاق ، فطلب منه الشيخ خميس بن رويشد ^(٥) الزحف نحو الظاهرة ، فجهز الإمام ناصر جيشه من جديد ، ومضى قاصداً حصن الغبي ، وفيه آل هلال ، ومعهم البدو والحضر ، ووقعت الحرب بين الطرفين ، وقتل فيها جاعد بن مرشد اليعربي (شقيق الإمام ناصر بن مرشد) ،

(١) هو : مانع بن سنان بن سلطان العميري ملك سمائل ، تولى الملك بعد وفاة الأمير عمير بن حمير بن سلطان العميري ، أنظر المعولي ، أبو سليمان محمد بن عامر : قصص وأخبار جرت في عُمان ، تحقيق سعيد الهاشمي ، مسقط ، ط ١ ، ٢٠٠٧ ، ص ٢١٠ .

(٢) وهو الشيخ مسعود بن رمضان بن سعيد النبهاني ، تولى القضاء وقيادة الجيش في بعض الأحيان للإمام ناصر بن مرشد اليعربي . أنظر : المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

(٣) تاريخ أهل عُمان : تحقيق عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ط ٥ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، وأنظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص ٢٣٥ .

(٤) السالمي ، نور الدين : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦ .

(٥) وهو : الشيخ خميس بن رويشد المجرفي الضنكي ، تولى القضاء والولاية في عهد الإمام ناصر بن مرشد في الظاهرة ، ومات في عهده ، أنظر ، المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .

وانهزم جيش آل هلال. ثم توجه الإمام ناصر إلى عبري ، " ففتحها " وعاد وحاصر حصن الغبيّ أياماً عديدة حتى دخله ، وولىّ الشيخ خميس بن رويشد عليه ، وبذلك خضعت جميع قرى الظاهرة للإمام إلا بلدة ضنك التي استولى عليها بنو هلال ، فقاتلهم والي قرية بات هو ومحمد بن يوسف الحوقاني واضطروهم إلى التسليم للإمام (١) ، ثم توجه الواليان (خميس بن رويشد و محمد بن يوسف) إلى حصن مقنيات، فحاصروه، وكان فيه يومذاك عامل للجبور، فاستعان ببني هلال وبني الريس ، واضطر الواليان للعودة إلى بات ، حيث وقعت في محيطها معركة كبيرة بين الجانبين ، قتل فيها الكثير من جنود الطرفين ، وتمت هزيمة بني هلال وحلفائهم.

ولما بلغ الإمام ناصر الخبر قصد بهلا وحاصرها شهرين ، وأتى جيش الجبور لنصرة سيف بن محمد الهنائي ، فالتقاء جيش الإمام ، ودارت رحى معركة كبيرة انتهت بهزيمة الجبور الذين اضطروا إلى الانسحاب، وبقي سيف بن محمد الهنائي محاصراً في حصن بهلا، إلى أن سلم الحصن للإمام ، فعين عليه والياً من طرفه ، وعاد إلى نزوى.

بعد تلك الأحداث توجه الإمام ناصر إلى سمائل ، لقتال مانع بن سنان العميري ، فاضطر مانع إلى مصالحته على أن لا يخرج من الحصن ، وأن يكون تابعاً للإمام في إقامة العدل والحق ، وعاد الإمام ناصر بن مرشد إلى نزوى . (٢)

ثم جهز الإمام جيشاً وأرسله إلى مقنيات ، ولدى وصوله إليها وقعت الحرب بينه وبين المتحصنين فيها ، وحاصر الحصن مدة ثلاثة أشهر ، واضطر المدافعون عنه إلى التسليم ، فولى عليه محمد بن علي بن محمد الحراسي .

في تلك الأثناء كان سعيد بن مسعود الخيالي ، وهو أحد زعماء الظاهرة ، ما يزال على موقفه المؤيد لبني هلال والجبور، ويكن العداء للإمام ، وراسل الجبور وأقنعهم بدخول قرية الصخبري ، حيث قتلوا أناساً من رجال الإمام ناصر ، فأرسل الإمام قوة عسكرية خاضت معارك عديدة في العجيفة والغابة والمطهرة ، قتل خلالها الكثير من الطرفين ، فقام الوالي محمد بن علي في مقنيات على رأس حملة عسكرية داعمة ،

(١) تاريخ أهل عُمان : تحقيق عاشور ، المرجع نفسه ، ص ١٢٨. وأنظر أيضاً : ابن رزيق : الفتح المبين ، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٢٣٥ .

وقصد حصن الغبيّ عند محمد بن سيف ، فدخل المنطقة وفرق شملهم ، فهرب بعضهم إلى ينقل، ثم لجأوا إلى ناصر بن قطن بن جبر .^(١)

بعد هذه الأحداث قام مانع بن سنان ، بنقض العهد مع الإمام ناصر، وراسل سيف بن محمد الهنائي سراً ، ودخلا نزوى ، فناصرتهم بعض القبائل ، واحتلوا المدينة ، فلم يبقَ للإمام سوى الحصن ، حتى جاءه المدد من بهلا وإزكي ، ومعهم بنو ريام ، حيث تمكن الإمام من الانتصار عليهم ، وتفرقت جيوشهم وهربوا ، وأمر الإمام بهدم حصن مانع بن سنان الذي قصد لوى مع محمد بن جفير .

ثم جهز الإمام ناصر جيشاً بقيادة عبد الله بن محمد بن غسان^(٢) لحرب سيف بن محمد الهنائي في بلاد سبت ، الذي بنى حصناً هناك ، بعد أن خرج من بهلا ، وتمكن عبد الله بن محمد من الانتصار عليه ، وأمر بهدم الحصن ، وهكذا دانت للإمام ناصر بن مرشد العربي معظم بلاد عُمان .^(٣)

في وقت لاحق جهز الإمام ناصر جيشاً ومعه الشيخ خميس بن سعيد الشقصي الرستاقى^(٤)، وقصد به ينقل ، حيث يتمركز ناصر بن قطن (أحد زعماء القواسم) ، فحاصرها أياماً عديدة ، ثم "فتحها" وعاد إلى الرستاق .

بعد "فتح" على ينقل والجو قصد ناصر بن مرشد قرية لوى ، حيث اختلف الجبور فيما بينهم ، وقتلوا محمد بن جفير ، فنزل عبد الله بن محمد بن غسان فيها ، وهاجم جنوده الحصن الذي كان تحت سيطرة سيف بن محمد بن جفير، بعدما لجأ أخوته إلى البرتغاليين في صحار ، وأدرك سيف أن لا قدرة له على المقاومة ، فأرسل إليه يريد الصلح والأمان لنفسه والخروج من الحصن ، فأعطاه الوالي الأمان ، ودخل الحصن

(١) المعولي ، محمد بن عامر: المصدر نفسه ، ص ٢١٧.

(٢) وهو : عبد الله بن محمد بن غسان بن محمد النزوي الكندي ، من علماء وقادة الإمام ناصر بن مرشد العربي ، عرف بالوالي الأكبر ، له من المؤلفات " خزانة الأخبار في بيع الخيار " توفي في حياة الإمام ناصر . أنظر: المعولي ، محمد بن عامر: المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

(٣) البطاشي ، حمود بن سيف : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧٩.

(٤) وهو : الشيخ خميس بن سعيد بن علي بن مسعود بن عبد الله بن زياد الشقصي الرستاقى ، كان رئيس العلماء في القرن الحادي عشر الهجري ، وقامت إمامة ناصر بن مرشد على يديه . أنظر : البطاشي ، حمود بن سيف : المصدر نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥٩.

في عام ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م ، بعد حصار دام ستة أشهر ، وقد ساعد في حصار الحصن ناصر بن قطن وبعض رجال العمور .^(١)

بعد إعادة توحيد البلاد تحت إدارته ، توجه الإمام ناصر لتنفيذ المهمة الأكبر ، وهي طرد البرتغاليين من عُمان ، وكان البرتغاليون قد عوّضوا عن خسارتهم لهرمز ، بزيادة نشاطهم وقدراتهم العسكرية والتجارية في مسقط ، وعززوا وجودهم العسكري في ساحل عُمان وبخاصة في جلفار وخورفكان ، في الوقت الذي نجح فيه اليعاربة في التحول إلى قوة لها تأثيرها في منطقة الخليج العربي كله ، وشكل عهد إمامتهم في عُمان فاتحة حقبة جديدة ومهمة ، ليس فقط بالنسبة لعُمان فحسب ، وإنما للخليج العربي كله ، وبدأت عُمان في تلك الفترة تعيش حالة من الرفاه والقوة لم يسبق لها مثيل ، بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعتها مؤسس الدولة وموحد البلاد الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ، فبعد أن تخلص من أعدائه في الداخل ، أمر بإنشاء أسطول حربي ، لأنه كان يعرف جيداً أنه لا يمكن الانتصار على البرتغاليين إلا بمحاربتهم بالسلاح نفسه ، بمعنى كان عليه بناء قوة بحرية عُمانية جديدة ، تكون قادرة ليس فقط على تحرير الشواطئ العمانية من السيطرة البرتغالية ، وإنما أيضاً حمايتها من اعتداء أي قوة خارجية أخرى ، ونجح في تشكيل نواة أسطول حربي جديد كانت قطعه البحرية الأولى من السفن البرتغالية التي استولى عليها ، ومن قطع أخرى حصل عليها من الإنكليز والهولنديين ، بالإضافة إلى السفن المحلية الصنع ، وبعد أن انتهى من إعداد القوات البحرية أعلن " الجهاد المقدس " ضد البرتغاليين ، وألقى بكل ثقله في محاربتهم ، وأرسل حملة عسكرية كبيرة إلى صور بقيادة أبي العرب مانع بن إسماعيل عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م^(٢) ، لكنها منيت بالفشل بسبب مناعة التحصينات العسكرية التي بناها البرتغاليون ، فأرسل الإمام حملة ثانية إليها بقيادة ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي ، فلما وصل إليها ضرب الحصار على حصنها المنيع ، وأخذه قهراً من يد البرتغاليين ، ثم سارت بعض قطع الجيش العماني إلى قريات ، وكان فيها حصن كبير بناه البرتغاليون ، حرّر بعد معارك طاحنة بين الطرفين ، كما بنى العمانيون حصناً

(١) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد: المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠ . وأنظر أيضاً : ابن رزيق: الفتح المبين ، ص ٢٣٨ . والعمور قبيلة عدنانية من بطون عبد القيس ، أنظر : السالمي ، محمد بن عبد الله : إسعاف الأعيان بحرية أهل عمان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٦٩ .
(٢) المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ ..

آخر فيها بعد الاستيلاء عليها. ويبدو أن مهمة انتزاع صور وقريات لم تكن سهلة، فقد كان التباين واضحاً بين حجم وكفاءة القوتين المتنافستين ، إضافة إلى أن الوحدة الوطنية لم تكن قد تحققت بما يتناسب وأعباء المواجهة التي كانت تقضي بقدر كبير من الانسجام والتفاهم، خصوصاً وأن البرتغاليين كانوا قد استردوا أنفاسهم منذ أن طردوا من هرمز في عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م ، بسبب انشغال القبائل العُمانية بالحروب الأهلية.

ثم طلب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي من واليه " حافظ بن سيف " على منطقة " لوى " تحرير صحار، حيث تمكن من هزيمة البرتغاليين في منطقة " البدعة " وسيطر على صحار بعد معارك طاحنة مع البرتغاليين عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م ^(١) ، وأرغمهم على عقد معاهدة تعهدوا فيها بدفع الجزية السنوية والسماح بحرية التجارة ^(٢) حسب شروط الإمام. ^(٣)، على أن يبقى البرتغاليون في صحار للتجارة ، ولم يبق بيد البرتغاليين إلا حصنها، مما أعطى لليعاربة فرصة طيبة لكي يضاعفوا من نشاطهم التجاري والحربي وأتاح لهم قدراً كبيراً في تطوير سفنهم الحربية واستخدامها في مهاجمة البرتغاليين ، ثم قام الوالي حافظ بن سيف ببناء قلعة في صحار ، وعاد إلى لوى ، بعد أن جعل الشيخ ناصر بن ثاني بن جمعة الصحاري ، والياً على الحصن ^(٤)

وكان العمانيون قد نجحوا في وقت سابق في الحصول على عدد من السفن المتطورة وبعض الذخيرة والبارود من البريطانيين مما مكنهم من مضاعفة حجم العمليات العسكرية ضد القواعد البرتغالية عموماً وإن لم يصل حجم المساعدات البريطانية لعمان إلى حد يحقق نوعاً من التوازن العسكري مع القوات العسكرية البرتغالية في الخليج العربي ، كما حدث في اتفاقية ميناب في عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م الموقعة بين الفرس والبريطانيين ، حيث حاربت بريطانيا إلى جانب الفرس لتحرير هرمز من السيطرة

(١) قاسم ، جمال زكريا : "دولة آلْبوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ١٨٤١-١٨٦١م "، القاهرة، د.ط ١٩٦٨م ، ص. ٢٠.

(٢) الخصوصي ، بدر عباس : "العامل الاقتصادي وأثره على إنسان الخليج العربي في العصر الحديث"، محاضرات الموسم السابع، ١٩٧٤؛ "الخليج العربي في مواجهة التحديات"، رابطة الاجتماعيين، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٧م ، ص. ٤٠٥.

(3) Derek, Hopwood: The Arabian peninsula , society and politics, London , 1972, p , 97.

(٤) المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

البرتغالية ، فقد حارب اليعاربة في ظروف مختلفة ، ولم يستعينوا بقوة أجنبية ، إضافة إلى ذلك فقد طرد البرتغاليون من هرمز في وقت كانت فيه بلادهم تابعة لإسبانيا ، في حين اضطر العمانيون إلى مضاعفة جهودهم بشكل ملحوظ في مواجهة البرتغاليين على شواطئ بلادهم ، بعد أن استردت البرتغال استقلالها ونشاطها بما في ذلك قوتها البحرية المعروفة.

بعد أحداث صحار توجه القائد العماني علي بن أحمد بن عثمان النزوي إلى جلفار (رأس الخيمة) الواقعة على ساحل عُمان لتحريرها من البرتغاليين في عام ١٦٤٣م، حيث كانت تخضع للسيطرة البرتغالية ، وتحكم من قبل قائد الحصن الفارسي ناصر الدين العجمي ، فشن العمانيون بالتعاون مع القوى المحلية من القواسم هجوماً واسع النطاق على المدينة ، وبالرغم من مساعدة الفرس للبرتغاليين ، إلا أن اليعاربة والقواسم تمكنوا من الاستيلاء على الحصن بعد حصار شديد ،^(١) وقاموا ببناء حصن جديد مكانه بعدما تعرض لأضرار كبيرة أثناء القصف المدفعي خلال مدة الحصار ، إلا أن مدينة جلفار نفسها بقيت في يد البرتغاليين ، إلى أن أرسل الإمام حملة ثانية إليها ، تمكنت بالتعاون مع القواسم من " فتحها " عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م .

بعد تحرير جلفار توجه الجيش العُماني بقيادة خميس بن مخزوم إلى (دبا) وكان فيها حصن على الساحل يخضع للسيطرة البرتغالية ، وهناك وقعت معارك ضارية بين الطرفين ، لم تؤد إلى حسم المعركة لأي منهما ، فأمر الإمام ناصر بن مرشد ببناء حصن جديد فيها لتثبيت أقدام المقاتلين، وظلت القوات العمانية تقاتل إلى أن فتحت المدينة في العام نفسه.

في وقت لاحق ، رفض البرتغاليون دفع الجزية للإمام ناصر بن مرشد ، فأرسل حملة عسكرية إلى مسقط بقيادة مسعود بن رمضان النبهاني، ودارت أولى المعارك بين الطرفين في منطقة (طوي الرولة) قرب مسقط ، انتهت بعقد اتفاق في عام ١٦٤٨م، كان في مصلحة اليعاربة ، تضمن ما يأتي:

- أن يتنازل البرتغاليون عن كل الأراضي والمباني التابعة لهم في منطقة صحار.
- أن يدفع البرتغاليون جزية سنوية للإمام .

(١) الرواحي ، سالم محمد: الدعوة الإسلامية في عهد اليعاربة ١٠٣٤ - ١١٣٣ هـ ، دار الألوان الحديثة ، مسقط ، ط ١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٨٧ . وأنظر أيضاً : العيدروس ، محمد حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

- يعامل المسلمون من البرتغاليين معاملة حسنة في مسقط ومطرح. ^(١)

وعلى الرغم من أن تلك المعركة لم تنته الوجود البرتغالي في المنطقة، إلا أنها مثلت ضربة حقيقية له، وتركت آثاراً سلبية على البرتغاليين عسكرياً وتجارياً، وشكلت خطراً على مستقبلهم في عُمان، وشكل ذلك المقدمات الموضوعية للانهيـار البرتغالي في المنطقة، فبعد هذه المعركة انتقل البرتغاليون من حالة الهجوم إلى حالة الدفاع، وكان قبولهم الجزية يعني الاستسلام ضمناً لليعاربة، وترتب على تلك الهزيمة قيام لشبونة بعزل القائد البرتغالي الذي وقع الاتفاقية، وأعطت أوامرها بجعل السفن البرتغالية في مسقط بصورة دائمة، وتعزيز ما بقي من القلاع بأيدي البرتغاليين، ومنها قلعة جلفار قرب رأس الخيمة التي بنوها في عام ١٦٣١م بعدما انهـارت سيطرتهم في هرمز على يد التحالف الفارسي - البريطاني ^(٢).

رداً على تعنت البرتغاليين وتمسكهم بالمناطق التي كانت ما تزال تحت سيطرتهم على الشواطئ العُمانية، ورداً على رفضهم دفع الجزية، جهز الإمام ناصر بن مرشد اليعربي جيشاً كبيراً وأوكل قيادته إلى القاضي خميس بن سعيد الشقصي، وأمره بالتوجه لتأديب البرتغاليين في مسقط بحجة رفضهم مواصلة دفع الجزية، حيث نزلت قواته في بوشر، ثم تقدمت نحو مطرح، فقرر البرتغاليون التفاوض مع قائد قوات الإمام، وتحاشي المواجهة العسكرية، وتم التوصل إلى عقد اتفاقية جديدة في عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م نصت على ما يأتي :

١. أن يدفع البرتغاليون الجزية المترتبة عليهم .

٢. إعادة بناء حصن مطرح .

٣. السماح للعُمانيين بالاتجار بحرية كاملة .

٤. منع القيام بأي عمل حربي .

في عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م، أرسل الإمام ناصر جيشاً آخر بقيادة سيف بن صالح القاسمي ^(٣) و مسعود بن رمضان النبھاني إلى مسقط بهدف تحريرها من السيطرة

(١) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢.

(2) Head , Frank - Bey : *From Trucial States to United Arab Emirates, A society in transition*, center for documents & research, Abu Dhabi, p. 272

(٣) عبد الله، محمد مرسى: قراءة حديثة في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٥.

البرتغالية ، وتمكن سيف بن صالح القاسمي من ضرب الحصار على المدينة ، في حين تمكنت قوات مسعود بن رمضان من الوصول إلى مطرح ، وضربت الحصار عليها أيضاً، في وقت تفشى فيه مرض الطاعون في المدينتين ، وأصيب البرتغاليون بهلع شديد ، لكن الحصار لم يؤد إلى تحرير مسقط ومطرح ، وتم التوقيع على هدنة كتب بنودها سيف بن صالح القاسمي ، جاءت معظمها في صالح العمانيين ، وأهمها:

١. أن يعيد البرتغاليون للعمانيين مراكزهم في مطرح ، التي تقع على بعد ميلين من مسقط.
٢. أن تسمح البرتغال بحرية الملاحة للعمانيين، وأن تمتنع عن القيام بأية أعمال عدوانية ضد الإمام ناصر.
٣. أن يسلم البرتغاليون جميع التحصينات التي بأيديهم خارج مسقط ، إلى الإمام ناصر بن مرشد . (١)

وبموجب هذه الاتفاقية أُخرج البرتغاليون من صور، وقلعات ، وقرىات . (٢)
في عام ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م توفي الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ، ودفن في العاصمة نزوى، بعد أن تمكن من طرد البرتغاليين من جميع الشواطئ العمانية ، إلا مسقط والمطرح (٣)، تاركاً مهمة تحريرها لخليفته.

بعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد ، بويع بالإمامة من بعده لابن عمه الإمام سلطان بن سيف اليعربي (١٠٥٩ - ١٠٩١هـ / ١٦٤٩ - ١٦٨٠م) نظراً لكفاءته وخبرته الطويلة في مجال الحرب والسياسة ، حيث اعتمد عليه الإمام ناصر لفترة طويلة في تصريف الأمور ، وتدبير شؤون الحكم ، ناهيك عما اتصف به من التدبّر والتقوى والورع ، وكان الشيخ خميس بن سعيد الشقصي في مقدمة المبايعين له .

اتصف الإمام سلطان بن سيف بالقوة والحزم والمهارة في تدبير الأمور ، وتسلم الحكم في عمان والبلاد تعيش حالة من الاستقرار ، مما مكنه من متابعة مهمة تحرير الشواطئ العمانية من السيطرة البرتغالية في مسقط والمطرح ، ومتابعة مسيرة البناء والإعمار ، والحفاظ على حالة الأمن والاستقرار في ربوع عُمان .

(١) شهاب ، حسن صالح: من تاريخ بحرية عُمان التقليدية ،وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ١٤٦.

(٢) عوض ، عبد العزيز: الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٩ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٠

(٣) المطرح : مدينة تبعد ميلين غربي مسقط . أنظر : خوري ، إبراهيم ، و التدمري جلال : المرجع نفسه ، ص ٢٢٩.

بعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ، نكث البرتغاليون عهودهم مع العمانيين ، والتي تضمنتها الاتفاقات الموقعة مع الإمام ناصر ، ورفضوا دفع الجزية ، ومنعوا العمانيين من الاتصال بمسقط ، لاعتقادهم أن دولة اليعاربة انتهت ، ويشكل هذا نقضاً صريحاً للمعاهدة ، لكنهم بتصرفهم هذا ، أسأؤوا تقدير الأوضاع هذه المرة ، والدليل على ذلك هو أن الإمام سلطان بن سيف أعدّ بعد أيام من توليه الحكم قوة عسكرية ضاربة تمهيداً للمعركة الحاسمة مع البرتغاليين في مسقط .

كانت دفاعات البرتغاليين في مسقط ومطرح قوية للغاية ، وأقاموا التحصينات والبروج على رؤوس الجبال في محيط المدينة ، وشحنوها بالمقاتلين من حملة البنادق ، لرمي كل من يقترب منها من الجنود العمانيين بالرصاص ، كما نصبوا سوراً حديدياً لإحاطة المدينة (١) ونصبوا الكمائن في كل الأماكن المؤدية إلى داخل مدينة مسقط وخارجها ، وبثوا عيونهم وجواسيسهم في كل مكان ، ليستطلعوا أخبار العمانيين وتحركاتهم . (٢)

بعد استكمال الاستعدادات العسكرية اللازمة للمعركة القادمة مع البرتغاليين تحرك جيش الإمام سلطان بن سيف من نزوى إلى مسقط في العاشر من رجب ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م ، وضرب حصاراً على المدينة استمر خمسة أشهر ، دخل خلالها في مناوشات عسكرية يومية مع البرتغاليين ، واستخدم أسلوب شن الهجمات الخاطفة على بعض المواقع البرتغالية والانسحاب السريع إلى القواعد التي انطلق منها (الكر ، والفر) لاختبار استحکاماتهم ودفاعاتهم التي بنوها ، لكن ذلك لم يعط نتيجة تذكر ، ثم تحولت المواجهات إلى حرب بين الطرفين ، شهدت وقوع معارك ضارية في محيط مسقط ، استخدم البرتغاليون خلالها المدافع والبنادق من قلعتي مسقط (الجلالي والميراني) وقلعة المطرح ، ومن أبراج سور مدينة مسقط ، والأبراج التي بناها البرتغاليون فوق قمم الجبال المحيطة بمدينة مسقط .

بينما كانت المعارك تجري بين العُثمانيين والبرتغاليين في محيط مسقط والمطرح وقع خلاف بين القائد البرتغالي في مسقط (بيريرا) و (نروتم ، أو سكييلة كما تسميه المصادر التاريخية العمانية) كبير التجار الهنود المقيمين في مسقط ، (٣) الذي عينه

(١) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٢٥٠ .

(٢) الرواحي ، سالم: المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١١٢ . وأنظر أيضاً : ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

البرتغاليون وكيلاً لهم ، وأعطوه التفويض في إدارة الشؤون المالية في المدينة، ويعود سبب هذا الخلاف إلى أن القائد البرتغالي بيريرا طلب الزواج من ابنة التاجر الهندي نروتم ، فرفض تزويجه لأنه مسيحي وابنته هندوسية ، فمارس عليه بيريرا ضغوطاً هائلة كي يجبره على التراجع عن قراره ، فرفض نروتم الضغوط ، وقرر اللجوء إلى الحيلة ، وكاتب الإمام سلطان بن سيف، واتفق معه على وضع خطة تمكن الإمام وجيشه من دخول مسقط ، حيث تظاهر نروتم بموافقته على زواج ابنته من بيريرا ، وأقنعه بضرورة تغيير الماء والبارود والمؤن والمواد الغذائية الموجودة في حصون مسقط والمطرح بحجة أنها فاسدة وقديمة ، ولم تعد صالحة للاستعمال ، في وقت رتب فيه نروتم خطة الهجوم على مسقط والمطرح مع الإمام ، وحددت ساعة الصفر يوم الأحد ٢٥ كانون الأول ١٦٤٩م الذي يصادف عيد الميلاد عند المسيحيين ، فلا يحملون فيه السلاح ، لانشغالهم بشرب الخمر والنفخ بالزمر، وكان نروتم قد صبّ الخل فوق البارود المخزن في مستودعات حصون مسقط والمطرح حتى لا يشتعل، كما أفرغت خزانات المياه الموجودة في الحصون بحجة تلوثها وضرورة تجديدها استعداداً لمقاومة الحصار. وبذلك أحكم نروتم خطته وأخبر الإمام سلطان بذلك، في وقت كانت فيه قواته على أتم الاستعداد لتنفيذ عملية الهجوم على مسقط .

في صبيحة يوم عيد الميلاد ، تحرك جيش الإمام سلطان لتنفيذ الخطة المتفق عليها، وبدأ هجوماً واسع النطاق على مسقط ، بعد أن قسم جيشه إلى مجموعتين ، هاجمت الأولى الحصن الشرقي ، والثانية الحصن الغربي (حصن الجيلاي والميراني)، وبدأت معركة ضارية مع البرتغاليين، استخدمت فيها المدافع والبنادق ، تمكن خلالها جنود الجيش العماني من تسلق أسوار مسقط باستخدام السلالم المتحركة ^(١) ، والوصول إلى الحصنين ، وقتلوا من فيهما من الجنود البرتغاليين ، وانتهت المعركة بسقوط مسقط وقلاعها وحصونها بيد جيش الإمام سلطان بن سيف ، وكان آخرها برج كبريته.

بعد سقوط حصون مسقط ، وسيطرة جيش اليعاربة عليها ، توجهت قوة عسكرية بقيادة الإمام سلطان بن سيف نحو المطرح، آخر معقل للبرتغاليين على الشواطئ العُمانية، وقبيل بدء الهجوم على حصنه ، خرج القائد البرتغالي رافعاً الراية البيضاء، وطلب

(١) المعولي ، محمد بن عامر: المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ . وأنظر أيضاً : حول معركة مسقط ، حنظل فالح : العرب والبرتغال في التاريخ ٧١١ - ١٧٢٠م ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي، د.ط ، ١٩٩٧م ، ص ٥١٧ - ٥٢٠ .

الصلح مع الإمام ، فصالحه، وأمنه ، فسلم المدينة وحصنها له، في حين وضع الجيش العُماني يده على جميع المراكب والسفن البرتغالية التي كانت راسية في الميناء، وكان ذلك في شهر رجب ١٠٥٩هـ / كانون الأول ١٦٤٩م^(١)

تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض السفن البرتغالية تراجعت إلى عرض البحر أثناء معركة مسقط ، وراحت تقصف مسقط ومطرح بالمدافع ، فأرسل الإمام قوة من الزوارق الصغيرة ، تحت جناح الظلام تمكنت من إغراقها، وألقي القبض على من بقي على قيد الحياة من الجنود البرتغاليين ، فأمر الإمام سلطان بن سيف بترحيلهم إلى (غوا) على ساحل الهند الغربي^(٢)

بعد طرد البرتغاليين من كل السواحل العُمانية أمر الإمام سلطان بن سيف ببناء قوة بحرية جديدة ، لمواجهة أية اعتداءات جديدة على عُمان ، وأمر ببناء نوع من السفن المحلية العُمانية المعروفة بسرعة حركتها ، وقدرتها على المناورة : " الغراب ، العكيري... " بعد تزويدهما بالمدافع اللازمة،^(٣) ناهيك عن شراء عدد من السفن الحديثة من بريطانيا وهولندا الدولتين العدوتين للبرتغال آنذاك .

وبعد فترة قصيرة ، من تحرير مسقط ، استطاع الإمام سلطان بن سيف أن يعيد للبحرية العُمانية مجدها القديم ، الذي كانت تشتهر به ، فقد أشار موظف في شركة الهند الشرقية البريطانية في تقرير كتبه إلى إدارة الشركة إلى ((أن عرب مسقط أصبحوا مصدر رعب للبرتغاليين في البحر بأسطولهم المكون من السفن التي استولوا عليها منهم ، وسفنه الخاصة))^(٤).

وكانت البحرية العُمانية تقوم ، إلى جانب حماية الشواطئ العمانية والأسطول التجاري العُماني، بغارات انتقامية على القواعد البحرية البرتغالية ، المتوضعة على ساحل الهند الغربي، وساحل أفريقيا الشرقي ، ووصلت غاراتها على هذا الساحل إلى (كلوه) و(موزنبيق) و إلى (كنج) على الساحل الفارسي^(٥)

(١) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد: المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) شهاب ، حسن صالح : المرجع نفسه ، ص ١٤٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(4) Bathurst : *The Yarubi Dynasty* , 1st Ed , Oxford 1967 , p. 114 .

(٥) شهاب ، حسن صالح : المرجع نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

ففي عام ١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م ، وجّه الإمام سلطان بن سيف حملة عسكرية إلى شرق إفريقيا ، تمكنت من تحطيم القوات البرتغالية في بات وزنجبار ، وفي عام ١٠٦٥هـ / ١٦٥٥م ، وجه حملة عسكرية أخرى ، حاصرت ممباسا مدة خمس سنوات ، اضطرت البرتغاليين إلى الاستسلام في عام ١٠٧٠هـ / ١٦٦٠م ، كما تمكنت قواته البحرية من صدّ جميع محاولات البرتغاليين إعادة السيطرة على المنطقة .

بعد القضاء على الوجود البرتغالي في شرق إفريقيا ، هاجمت القوات العمانية نقاط الارتكاز البرتغالية في جمبرون وكنج على الشواطئ الفارسية ، ودمرتها بالكامل ، لأن القوات البحرية البرتغالية كانت تستخدمها قواعد انطلاق لمهاجمة الشواطئ العمانية . في وقت لاحق بنى الإمام سلطان بن سيف أسطولاً بحرياً كبيراً مكوناً من (٢٨) سفينة ، وأمره بالتوجه إلى ممباسا في كانون الثاني ١٦٦٩م ثم تابع تقدمه على الشواطئ الإفريقية الشرقية حتى وصل إلى موزنبيق ، وحاصر قلعتها ، لكنه لم يتمكن من التغلب على حاميتها .

في العام نفسه أمر الإمام سلطان بن سيف بتجهيز حملتين عسكريتين ، توجهت الأولى إلى جزيرة قشم لضرب القوات البرتغالية المتمركزة بها ، والثانية إلى هرمز التي كانت تحت السيطرة الفارسية ، وفي عام ١٠٨٠هـ / ١٦٧٠م أرسل حملة عسكرية بحرية ضخمة إلى ديو ، أكبر معاقل البرتغاليين في الهند ، حيث تمكن الجنود من النزول إلى المدينة ليلاً دون أن يشعر بهم أحد ، وما أن طلع الفجر حتى اندفع المهاجمون نحو قلعتها ، وفيها قوة برتغالية مكونة من أربعة آلاف جندي وسجين ، غير أن القوات العمانية انسحبت من المدينة بعد معركة عنيفة قتل فيها عدد كبير من الطرفين ، ثم عادت إلى عُمان محملةً بغنائم كثيرة .

حاول البرتغاليون بعد ذلك مهاجمة مسقط ، وأعدوا لذلك أسطولاً ضخماً ، وعندما وصلوا إلى مشارف المدينة ، وجدوا أن استحكاماتها أقوى مما كانوا يظنون ، فأنزلوا قواتهم في سداب ، ^(١) غير أنهم اضطروا إلى الانسحاب منها بسبب المقاومة الضارية التي أبدتها المدافعون عنها .

(١) سداب : قرية على الشاطئ العماني ، تقع إلى الجنوب من مدينة مسقط. أنظر : المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ .

بعد هذه الحادثة وفي عام ١٠٨٣هـ / ١٦٧٣م وجه الإمام سلطان بن سيف حملة مكونة من سفن تجارية ترافقها سفن حربية لاحقت الأسطول البرتغالي غرب ديو، وتمكنت من تدمير عدد كبير من سفنه ^(١).

وبعد وفاة الإمام سلطان بن سيف سنة ١٠٩١هـ - ١٦٨٠م ، تولى منصب الإمامة ابنه بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب بن سلطان اليعربي (١٠٩١ - ١١٠٣هـ / ١٦٨٠ - ١٦٩٢م) ^(٢)، وكان قد اكتسب خلال فترة حكم والده الخبرة العملية في مجال الحكم وإدارة شؤون الدولة ، وجاء إلى الحكم والصراع لا يزال قائماً مع البرتغاليين في أعالي البحار في مواقع كثيرة خارج عُمان.

في السنوات الأخيرة من عهد الإمام بلعرب بن سلطان ، خرج عليه أخوه سيف بن سلطان " قيد الأرض " مطالباً إياه باعتزال الحكم ، ومنذ ذلك التاريخ ، بدأت دولة اليعاربة تسير في غير المسار الذي كانت تسير عليه ، وابتلي أهل عمان بخروج سيف على أخيه بلعرب.

بعد مواجهات عسكرية ضارية وقعت بين الإمام بلعرب وأخيه سيف، اضطر الإمام إلى الخروج من نزوى قاصداً منطقة الشمال ، وعندما رجع بعد فترة وجيزة إلى نزوى منعه أهلها من دخولها ، فذهب إلى حصن جبرين ، الذي كان قد بناه في عهد والده الإمام سلطان بن سيف ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م ، واتخذ مقرراً لحكمه ^(٣)، فاجتمعت غالبية علماء عُمان ، وعقدوا الإمامة لأخيه سيف بن سلطان " الأول " ، رغم معارضة بعض العلماء الذين اضطروا إلى الموافقة على البيعة بعد فترة قصيرة خوفاً من وقوع الفتنة ، وأخذ سيف كافة حصون عمان، إلا حصن جبرين ، فوجه الإمام سيف رسالة في رجب ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م إلى أخيه بلعرب في حصن جبرين يطلب فيها منه ومن رجاله الخروج من الحصن ، وأمهله ثلاثة أيام ، وقد جاء فيها : " فإني محب لك ، مشفق ، ناصح ، ودود ، صادق ، صفي ، محق ، أمين ، وستجد من ثمره ذلك إن أجبتنا لما نريد إن شاء الله ، وأنت قد جربت ما جربت ، ورأيت ما رأيت ، وقد كلفني الدهر

(١) حصاد ندوة الدراسات العمانية : مجموعة من الباحثين ، وزارة التراث والثقافة ، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٠م ، ١٠ ج ، ٢ ج ، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد: المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥١.

(٣) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٢٥٧. جبرين : وتلفظ في بعض الأحيان بـيرين ، وهي بلدة تقع على بعد أربعة أميال من مدينة بهلا العمانية .

ما يسوئني فيك ، وقلبي حازن عليك " (١) لكن الإمام بلعرب رفض طلب أخيه ، وبقي محاصراً في الحصن حتى وفاته في ٢٢ شعبان ١١٠٤هـ / ٢٨ نيسان ١٦٩٢م ، فطلب أصحابه الأمان ، فأمنهم الإمام سيف ، وخضعت له عُمان كلها ، ولم يكن له منازع في الإمامة من اليعاربة .

لُقِبَ الإمام سيف بن سلطان الأول بـ (قيد الأرض) لأنه ضبط البلاد ، ولعدله وصلابته وهيبته . (٢) وبلغت البحرية العمانية في عهده أوج قوتها ، وغدت بمستوى القوى البحرية لأي دولة من الدول الأوروبية ، في المحيط الهندي ، كما قام بحفر أكثر من خمسة عشر فلجاً جديداً ، منها فلج البركة ، وفلج البزيلي في الظاهرة ، وفلج الحزم ، وأفلاج منطقة جعلان بني بوحسن .

واصل الإمام سيف بن سلطان الأول سياسة الأئمة السابقين ، وامتلك قوة عسكرية ضاربة ، مكنته من مقاومة البرتغاليين وغيرهم في شرق إفريقيا والهند ، وزاد عدد أسطوله الحربي عن مئة سفينة ، وعندما زار الرحالة والتاجر الإنكليزي (تشارلز لوكير) مسقط في عام ١١١٧هـ / ١٧٠٦م ، شاهد في مينائها أربع عشرة سفينة حربية ، وعشرين سفينة تجارية ، ويُقال : إن سفينة الملك كانت مزودة بسبعين مدفعاً . (٣) وتشير المصادر التاريخية إلى أسماء السفن الكبيرة في عهده منها : " الملك ، الناصري ، الوافي ، الفلك " وفي سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٤م هاجم العمانيون القاعدة البرتغالية في جزيرة سالت و مدينة دامن (Daman) شمالي بومباي ، وعادوا بغنائم كثيرة ، بالإضافة إلى ١٤٠٠ أسير (٤) ، وفي عام ١١٠٦هـ / ١٦٩٥ هوجمت بارسلور (Barceloor) ، حيث توجد مستودعات الأرز ، التي كانت تموّن منها القواعد البرتغالية في غوا Goa و منجلور Mangalore وتم إحراقها ، وحصل العمانيون على غنائم كثيرة من المدينتين . (٥)

(١) المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٣) شهاب ، حسن : المرجع نفسه ، ص ١٦١ . وأنظر أيضاً Charles Lockyer , *An Account of Trade in India* : London, 1711, p . 206 - 7

(٤) شهاب ، حسن : المرجع نفسه ، ص ١٦٢ .

(٥) المرجع نفسه : ص ١٦٢ .

في جمادى الأولى ١١٠٦هـ/ كانون الثاني ١٦٩٥م أرسل الإمام سيف بن سلطان الأول خمس سفن حربية إلى (كنج) على الشواطئ الفارسية ، حيث تمكنت من تدمير القاعدة البرتغالية فيها ، وأسرت سفينة تحمل شحنة من البضائع التجارية، كانت ترسو في مينائها ، وبعد هذه العملية الناجحة أرسل الإمام سيف بن سلطان الأول إلى سلطان حسين شاه إيران ، يطالبه بأن تكون له نفس الحقوق التي منحت للبرتغاليين في كنج، وهدده بتدمير بندر عباس في حال رفض طلبه.^(١)

في عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٦م أرسل الإمام سيف أسطولاً إلى شرق أفريقيا مؤلفاً من سفينتين كبيرتين وخمس سفن صغيرة ، ضربت حصاراً على ممباسا، استمر حتى عام ١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م ، حيث استسلمت الحامية البرتغالية ، ورفع العلم العُماني على قلعتها .^(٢)

لم يزل الإمام سيف يقاتل البرتغاليين حتى وفاته في الرستاق سنة (١١٢٣هـ/ ١٧١١م) فتولى الإمامة من بعده ولده الإمام سلطان بن سيف بن سلطان بن سيف بن مالك اليعربي المعروف بسلطان بن سيف الثاني ، واتبع سياسة والده ، وبنى حصن الحزم ، ونقل عاصمته إليه ، ليكون على مقربة من الشواطئ العمانية ، بعدما ظهر الخطر الفارسي على عمان من جديد . وفكر جدياً بتوسيع دائرة نفوذ دولته، فسيطر على البحرين ، وقشم ، و لارك ، وهرمز بعد أن خلصها من أيدي الفرس.^(٣)

إلا أن (لوكهارت) يذكر في كتابه " التهديد العُماني ونتائجه " أن الإمام سلطان لم يسيطر على هرمز ، بل فرض حصاره عليها ، بعد معركة سورات ، التي لم يحقق فيها الإمام النصر، فأمر والي البحرية (الأميرال) بمهاجمة لارك وقطع الطرق البحرية بين الهند والموانئ الفارسية ، ونجحت الحملة بالاستيلاء على لارك ، وقشم، والبحرين .^(٤)

(١) شهاب ، حسن : المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .

(٢) السيار ، عائشة : دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤ - ١٧٤١ ، بيروت ، د.ط ، ١٩٧٥م ، ص ١٠٠ .

(٣) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٤) لوكهارت ، لورنس : التهديد العُماني ونتائجه في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، ترجمة علاء الدين حسين ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد العاشر، البصرة ١٩٧٨م ، ص ٩٠ .

توفي الإمام سلطان بن سيف (الثاني) في جمادى الآخرة ١١٣٠هـ/ أيار ١٧١٨م ،
بعد حكم دام سبع سنوات وبضعة شهور ، وبوفاته تصدعت الوحدة الوطنية في عمان ،
وبدأت دولة اليعاربة تسير في طريقها إلى السقوط .

ثالثاً: أسباب انهيار النفوذ البرتغالي في عُمان والخليج العربي

١- طبيعة الاستعمار البرتغالي للمنطقة ، الذي ارتكز على بناء سلسلة من القواعد العسكرية على الطريق البحري بين الهند والبرتغال ، إذ لم يتوغل البرتغاليون في داخل البلدان التي استعمروها ، واقتصروا وجودهم على المدن الساحلية منها ، ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك ، نظراً لقلّة عدد سكان البرتغال ، واتساع رقعة إمبراطوريتهم التي تتطلب عملية الحفاظ عليها امتلاك أعداد كبيرة من الجنود ، وكان الإبقاء على تلك القواعد في أيديهم مرهون بقوة وحالة البحرية البرتغالية، فلما ضعفت قوتها البحرية ، فقدت القسم الأعظم من مستعمراتها في الشرق .

٢- مثل الاستعمار البرتغالي بداية الاستعمار الأوروبي في التاريخ الحديث ، واتصف البرتغاليون بالتعطش للغزو والبطش ونهب ثروات الشعوب ، في وقت خلت فيه الساحة الدولية أمامهم من وجود أي منافس حقيقي ، فلما ظهرت القوى الأوروبية الأخرى الأكثر قوة منهم مثل: هولندا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والأكثر طموحاً بأن يكون لها النصيب الأكبر في لعبة التنافس الدولي على الشرق وبشكل يتفق مع ثقافتها السياسي والعسكري ، لم يعد بمقدور البرتغال الصمود أمام هذه القوى الطامعة .

٣- استغلال العمانيين للظروف الدولية المناسبة وتسخيرها من أجل توجيه الضربة القاضية للوجود البرتغالي في عمان ، فالتنافس الذي ساد العلاقات بين البرتغاليين من جهة والفرس والهولنديين والانجليز من جهة أخرى ، ورغبتهم في القضاء على النفوذ البرتغالي وإبعادهم من منطقة الخليج العربي ساعد العمانيين إلى حد كبير، جعل مهمة القضاء على الوجود البرتغالي في السواحل العمانية أقل كلفة مادية ، وأقل تعقيداً من الناحية العسكرية.

٤- اتبع البرتغاليون سياسة الشدة والبطش في معاملتهم للشعوب التي سيطروا على بلدانها ، وحكموها في منطقة الخليج العربي ، واستنزفوا ثرواتها ومواردها ، مما زاد في كراهية تلك الشعوب لهم ، وجعلها تتحين الفرص المناسبة للخلاص منهم .

٥- ازدياد قوة العمانيين الاقتصادية والعسكرية ، وثقتهم بنفسهم ، وتفوقهم في مجال الملاحة البحرية ، فقد أدركوا مبكراً أن الصراع بينهم وبين البرتغاليين هو صراع في

البحر أولاً وقبل كل شيء ... ولذا فقد أعدوا أسطولاً بحرياً مدرباً ومنظماً ساعدهم في التغلب على أهم نقاط القوة لدى البرتغاليين . وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى القضاء على النفوذ البرتغالي في عمان والمحيط الهندي .

٦- تحقيق الوحدة الوطنية بأعلى درجاتها ، حيث التزم الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، بتوحيد الجبهة الداخلية العُمانية منذ بداية إمامته ، وأدرك بأنه من دون الوحدة لن تتحقق المصالح العليا للبلاد ، وفي سبيل الالتزام بهذا المبدأ خاض الإمام حروباً ضارية ضد أنصار التجزئة داخل البلاد ، فحيداً أخطر عوامل الفشل في سياسته الخارجية.

٧- سعي الأئمة اليعاربة إلى استثمار كل مقومات النجاح على الصعيدين الداخلي والخارجي وبخاصة في المجال الاقتصادي، وكانت العناية بالزراعة في مقدمة اهتماماتهم ، حيث شُقت الأفلاج ، وأدخلت أنواع جديدة من المحاصيل الزراعية من شرق أفريقيا ، ونجحت تجربة زراعتها بشكل ملحوظ ، مما انعس إيجاباً على الأوضاع الاقتصادية في البلاد .

كما اهتموا بقطاع التجارة بعد أن تم القضاء على سياسة الاحتكار التي ابتدعها البرتغاليون ، وباتت تجارة الخليج العربي جزءاً من حركة التجارة العالمية، وهو ما عاد على عمان بطفرة اقتصادية كبيرة .

٨- العودة إلى الجذور العمانية الأصيلة بإبراز الهوية العربية والإسلامية ، وفي هذا المجال نجح اليعاربة بشكل ضاعف من ترابط دولتهم ، وأدى إلى طرد عدوهم ، والقضاء على النفوذ البرتغالي، سواءً في عمان، أو في ساحل شرقي أفريقيا ، وحتى في المحيط الهندي ، فقد كان للعمانيين في عهد اليعاربة النصيب الأوفر في القضاء على هذا النفوذ الذي استمر قرابة قرن ونصف من الزمن .

رابعاً: الحرب الأهلية في عُمان ١١٣٤ - ١١٥٤هـ / ١٧٢٢ - ١٧٤١م ودور القواسم فيها :

بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف (الثاني) في عام ١١٣٠هـ / ١٧١٨م، وقع خلاف بين أهل عمان حول مسألة الإمامة ، وانقسم الناس إلى فريقين ، الأول : أهل الحل والعقد ، ويتكون من رجال الدين الذين رأوا أن تكون الإمامة للمهنا بن سلطان ، الابن الأكبر للإمام المتوفى، لما كان يتصف به من الحلم ، والتقوى ، والورع .

الثاني : ويتكون من أسرة اليعاربة وعامة الناس ، حيث نادى اليعاربة بمبايعة أخيه الصغير سيف بن سلطان الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد ، كي يتحكموا بشؤون الحكم في البلاد مستغلين حداثة سنه.

اعترض أهل الحل والعقد ، ورفضوا مبايعة سيف بن سلطان ، لأن إمامة الصبي لا تجوز عند الإباضية، إذ لا يجوز أن يكون إماماً في الصلاة ، فكيف يجوز أن يكون إماماً على المسلمين ، يتولى أحكامهم ، وحرز دمائهم ، وحفظ فروجهم ؟ كما لا يجوز له أن يقبض ماله ، فكيف يجوز له أن يقبض مال الله ومال الأيتام ، ثم يحق لم لا يملك أمره أن يملك أمر غيره ؟ . (١)

أبى زعماء اليعاربة والعامة إلا مبايعة الصبي سيف بن سلطان بالإمامة ، وتجاهلوا رأي العلماء، وتجمعوا واجتمعوا بالسلاح ، وربما أشهروا سلاحاً ، ووقع بعض الجراح، فخاف العلماء وقوع الفتنة وانتشار الشر ، وبادر القاضي عدي بن سليمان الذهلي (٢) إلى إتباع الحيلة لتفريق الناس ، فأحضر الصبي سيف بن سلطان ، وتظاهر بمبايعة قائلاً : " هذا سيف بن سلطان أَمَامُكُمْ " - بفتح الهمزة - أي قدامكم ، وفهم العامة من الناس أنه بايعه بالإمامة، في حين أراد بذلك تفريق جمعهم وإطفاء الفتنة ، ونادت العامة بالإمامة، وضربت المدافع إظهاراً للأمر وإشهاراً للإمامة ، وانتشر الخبر الكاذب في البلدان أن سيف بن سلطان هو الإمام .

فلما سكنت الحركات ، وهدأت الناس ، أدخلوا الشيخ مهنا بن سلطان إلى قلعة الرستاق خفية ، وعقد له الشيخ عدي بن سليمان الذهلي الإمامة في عام ١٧١٨م، فقام بالأمر خير قيام (٣) . غير أن البيعة لم تحظَ بإجماع قبلي .

ولم تنزل اليعاربة وأهل الرستاق مسرّين العداوة لمهنا بن سلطان ، وللقاضي عدي بن سليمان الذهلي، فأخذوا يحضون يعرب بن بلعرب بن سلطان اليعربي على العصيان

(١) ابن رزيق ، حميد بن محمد: *الفتح المبين* ، ص ٢٦٤. وأنظر أيضاً : السالمي ، نور الدين : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) هو عدي بن سليمان بن راشد بن حسن بن غسان ، من علماء القرن الثاني عشر الهجري ، وإليه آلت رئاسة العلماء. انظر : المعولي ، محمد بن عامر ، المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

(٣) ابن رزيق ، حميد بن محمد: *الفتح المبين* ، ص ٢٦٤. وأنظر أيضاً: السالمي ، نور الدين : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

والانقلاب على الإمام الجديد المهنا بن سلطان ، حتى خرج عليه^(١) . ومن حصن جبرين باشر يعرب بن بلعرب نشاطه السياسي ضد الإمام المهنا بن سلطان، ولاقى ذلك قبولاً حسناً في نفوس اليعاربة، كما أعلنت مدينة الرستاق ولاءها ليعرب بن بلعرب، الذي قرر أن يحسم الأمر عسكرياً، فجند جيشاً من أنصاره ، وتوجه به إلى مدينة مسقط، حيث استقبله وفد من سكانها ، واتخذها قاعدة لتحركاته، وفوجئ الوالي مسعود بن محمد الصارمي بيعرب وجيشه يدخل القصر ، فأعلن استسلامه ، وفي صباح اليوم التالي، أعلن يعرب الثورة رسمياً على الإمام ، وجعل من مسقط قاعدة له ، وأعلن انفصاله عن الإمام المهنا بن سلطان. الذي كان في حينها في منطقة البريمي، فتركها مسرعاً ، وتوجه إلى مدينة الرستاق، ودخلها^(٢). وبدأ صراع بين الفريقين ، أدى إلى مقتل الإمام الجديد مهنا بعد مرور ثلاثة أعوام على ولايته، (١١٣٣هـ / ١٧٢١م) ، وشكل الخلاف على منصب الإمامة بين اليعاربة أنفسهم فاتحة لما أصبح يعرف في التاريخ العُماني الحديث بالحرب الأهلية العمانية (١٧٢٢ - ١٧٤١م) .

بعد مقتل الإمام المهنا بن سلطان ، دبّ الخلاف بين أبناء المجتمع العُماني ، وكثر النقاش والجدال ، وبويع يعرب بن بلعرب بن سلطان بالإمامة، لكنه تظاهر بأنه لا يريد الإمامة لنفسه ورفضها ، وإنما يريد لها لسيف بن سلطان الصغير ، الذي نادى العامة من الناس بإمامته أولاً ، فكان يعرب هو الوصي عليه ، فسلمت لهم جميع حصون عُمان وقبائلها في عام ١١٣٤هـ / ١٧٢٢م، وبايعه القاضي عدي بن سليمان ، بعد أن استتابه عن جميع أعماله ، بما في ذلك قتل الإمام المهنا بن سلطان .

فتح الصلح بين يعرب بن بلعرب والقاضي عدي المجال للحديث عن إسقاط إمامة الصبي سيف بن سلطان ، ومبايعة الوصي يعرب بن بلعرب رسمياً بالإمامة ، وأقر القضاء هذا الأمر فيما بعد، بل إنهم أقروا حتى إسقاط دفع التعويضات لمتضرري الحرب الأهلية. وتم إعلان البيعة في مدينة نزوى للإمام يعرب بن بلعرب^(٣). وحصر جميع السلطات في يديه^(٤). فعارضه بعض أفراد أسرة اليعاربة في مدينة الرستاق،

(١) الازكوي ، سرحان بن سعيد بن سرحان : مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، يُحقق الآن من قبل أ.د محمد حبيب صالح ، ص ٤٩٥ .

(٢) حنظل ، فالح : المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، لجنة التراث والتاريخ، أبو ظبي ، ط ١ ، ١٩٨٣م ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٣) قاسم ، جمال زكريا : دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ، ص ٣٨ .

(٤) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

وأعلن سكانها عدم رضاهم على بيعة يعرب بن بلعرب. وعندما قام الإمام يعرب بن بلعرب، واجهه سكان الرستاق بالاحتجاج، وتمكن أعوان الإمام الصبي المخلوع سيف بن سلطان " الثاني " من خطفه ونقله إلى إحدى ضواحي مدينة نزوى ، حيث يقيم بلعرب بن ناصر اليعربي خال سيف بن سلطان المخلوع . وكانت وفود من أهالي نزوى قد توجهت إلى منزل بلعرب بن ناصر وابن أخته الصبي سيف بن سلطان، وقدموا له فروض الطاعة ، وطلبوا منه قيادة الثورة على الإمام الجديد يعرب بن بلعرب ، وإعادة ابن أخته إلى الحكم ، كما وصلت إليه كتب ورسائل من أنحاء عمان يعلن مرسلوها الولاء له ، وتحرضه على الثورة (١) .

وكان على بلعرب بن ناصر أن يشكل حلفاً قوياً من أنصاره، يعتمد عليه سياسياً وعسكرياً في مواجهة خصمه يعرب بن بلعرب ، في وقت انقسمت فيه عمان إلى حزبين سياسيين، قاد أولهما الزعيم خلف بن مبارك الهنائي المعروف " بالقصير " ، وقاد الثاني محمد بن ناصر الغافري ، وكان لكل منهما أتباعه وقبائله، وفي حينها انقسم أهل عُمان إلى غافرية وهناوية .

كانت قبيلة بني هناة وأحلافها من القبائل العُمانية الأخرى على خصام مع مؤسس الدولة اليعربية الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، لأنه كان قد حجر على بعض أملاكهم وحجزها، مما أدى إلى نشوب خلاف سياسي بين الأسرة اليعربية وبني هناة (٢). وخلال فترة الصراع على السلطة في أواخر عهد اليعاربة ، قرر بلعرب بن ناصر أن يستغل ذلك الخلاف لصالحه ، وأن يكسب بني هناة إلى جانبه، فترك مدينة نزوى، واتجه إلى بلاد سبت ، حيث يقيم الزعيم خلف بن مبارك الهنائي " القصير " ، واتفق الطرفان على التحالف ، شريطة أن تعاد أملاك بني هناة التي حجزتها الدولة اليعربية إليهم في حال نجاح بلعرب بن ناصر في الاستيلاء على السلطة في عمان (٣).

(١) حنظل ، فالج : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٢) بني هناة : قبيلة أزدية عدنانية ، يرجع نسبها إلى هناة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان ابن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث ، وهي التي تزعمها خلف القصير في قتاله مع الغافرية النزارية، أنظر : ، الخروصي ، سليمان بن خلف : المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ .

(٣) حنظل ، فالج : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

وهكذا نجح بلعرب بالتحالف مع بني هناة ، فأعلنوا الحرب على يعرب بن بلعرب ، وهاجموا الرستاق ، وتمكنوا من محاصرة الحصن من كل جانب ، وأحرقوا بابه.^(١) وهكذا بدأت مرحلة من الحروب الدامية بين الأهالي، تمكن خلالها بلعرب بن ناصر من إجبار سائر القبائل المعارضة على طاعة الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، وبعد فترة خضعت له سمائل ، وإزكي ، ونخل، ونزوى ، إضافة إلى الرستاق ، وانتهت الأحداث بتدخل عليّة القوم الذين طالبوا يعرب بن بلعرب بالتنازل عن الإمامة ، فوافق ، وبويع سيف بن سلطان " الثاني " مرة ثانية إماماً ، على أن يكون بلعرب بن ناصر وصياً عليه، وقائماً بأعمال الدولة .^(٢)

بلعرب بن ناصر وتكريس الانقسام إلى هنائية وغازية (١٧٢٢-١٧٤١م):
يرى بعض المؤرخين أن التحزب الهنائي الغازي صورة من صور التعصب التقليدي بين عرب الحجاز العدنانيين وبين اليمانيين القحطانيين.^(٣) وأن العرب القحطانية في عُمان يرون أحقيتهم بالسلطة ، على اعتبار أنهم الأغلبية، فالغافريون يمثلون عرب الحجاز ، والهنائيون يمثلون عرب اليمن، والصراع بينهما قائم منذ القديم.^(٤) وكان العرب القحطانيون أول من هاجر إلى عُمان من اليمن مباشرة ، في حين أن الحجازيين جاؤوا إليها فيما بعد .

لا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الطرح غير دقيق ، على الأقل من الناحية السياسية ، لأن غالبية القبائل العمانية التي تنتمي إلى الحزبين الغازي و الهنائي هي في الأصل قبائل يمانية ، ترجع في أصولها إلى الأزدي وقضاعة ، وتحالفت مع قبيلة كندة الحضرمية ، وبالتالي فإن كلا الفريقين من الطرفين الغازي والهنائي كان يضم قبائل قحطانية وعدنانية ، لذلك فإننا لا نميل إلى الرأي المبين أعلاه .

(١) السيابي ، سالم بن حمود: عُمان عبر التاريخ ، وزارة الثقافة والتراث القومي ، مسقط ، ط٤ ، ٢٠٠١م ، ج٤ ، ص ٢٣-٢٤.

(٢) قاسم ، جمال زكريا : دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ، ص ١٣٣ . وأنظر أيضاً : Miles : Op Cit , P. 242 ، وأيضاً : الأزكوي ، سرحان بن سعيد : مخطوطة كشف الغمة ، ص ١١٩ .

(3) Miles : Op Cit , p 240 .

(٤) العقاد ، صلاح : التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنكلو مصرية، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩١م ، ص ٤٦ .

وهناك من يرى أن لهذا الصراع والتحزب، طابعاً مذهبياً^(١). فبنو غافر ومنهم القواسم في غالبيتهم من أهل السنة والجماعة ، من أتباع المذهب المالكي ، ومن الشوافعة ، ولذا كانت تشايعهم معظم القبائل التي كانت تسكن منطقة الظاهرة ، وساحل عُمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) بحكم الوحدة المذهبية ، أما بنو هناة وأنصارهم، فكان أغلبهم من أتباع المذهب الخارجي الإباضي الذي يدين به القسم الأكبر من سكان المناطق الداخلية من عُمان ، وسكان سهل الباطنة المطل على خليج عُمان، وقد يبدو هذا الرأي حول بعض المناطق الجغرافية مقبولاً إلى حد ما، في حين أن إصباغ المذهب السني على الحزب الغافري والمذهب الإباضي على الحزب الهنائي ليس دقيقاً، لأن المذهب الإباضي هو الغالب على الحزبين، فأغلب المناطق الغافرية (إلا ساحل عُمان الذي يسكنه القواسم) هي في عمان الداخلية ، وهي معقل الإباضية ، وذات كثافة سكانية عالية ، حيث تتركز فيها معظم القبائل العمانية ، كما يوجد فيها مقر الحكم والسلطات الدينية الإباضية والسياسية، في حين نجد مناطق ساحل عمان الشمالي كرأس الخيمة " موطن القواسم "، والظاهرة، بحكم كونها منطقة صحراوية ، هي ذات كثافة سكانية قليلة. إضافة إلى ذلك، كان اعتماد اليعاربة ذوي الأصول اليمانية الإباضية على قبيلة بني غافر الحجازية السنية في الغالب خلال حكمهم، في حين كانت قبيلة بني هناة اليمانية الإباضية في الجانب المعارض لليعاربة، حتى جاء بلعرب بن ناصر ، وقرب الهنائية ، ورفع الحجر والحجز عنهم ، وبذلك أصبحوا إلى جانب اليعاربة.

لقد تشابكت المصالح السياسية والاقتصادية بين الأطراف في عمان آنذاك ، وكان لها أثر كبير في تفجير الكثير من النزعات القبلية والمذهبية. ولذا فإن ظهور الحزبين الهنائي والغافري في وسط القبائل المختلفة يعد تطوراً كبيراً في الحياة السياسية العمانية^(٢). إذ أن الحزبين أعادا تشكيل تحالفات القبائل وولاءها على أساس الولاء السياسي والاقتصادي بدلاً من الولاء للقبيلة والعصبيات القبلية، وبالتالي لا يمكننا أن نعدّ التحزب الهنائي والغافري صورة من صور التعصب التقليدي بين القبائل الحجازية العدنانية واليمانية القحطانية، أو نوعاً من أنواع التعصب المذهبي بين الإباضية والسنة،

(١) عبد الله ، محمد مرسي : إمارات الساحل وُعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٣٩ – ١٨١٨ م ، المكتب المصري ، القاهرة ، د. ط ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٤ .

(2) J. C. Wilkinson : *The Organization of the Falaj Irrigation of Oman* , 1st Ed, Oxford 1971 p 25

وإنما هو نوع من الصراع السياسي الذي جعل القبائل في ضوء المصلحة المشتركة في حزبين، هما : الهنائية، والغافرية ^(١).

مع هذا التحول الخطير في الحياة السياسية داخل المجتمع العُماني ، بدأت عمان تواجه فترة من أصعب فترات تاريخها ، شهدت خلالها من الانقسام ما يمكن أن نعدّه حقيقة بداية النهاية لدولة اليعاربة ^(٢). وانطلقت شرارة الانقسام الأولى أثناء الاحتفال بمناسبة مبايعة الإمام الجديد سيف بن سلطان " الثاني " ، حيث وصل إلى الرستاق كثير من الوفود من أجل تقديم التهاني للإمام ووصيه بلعرب بن ناصر، الذي كان يمثل القوة الفعلية للدولة ^(٣). وجاءت وفود قبائل بني غافر وأهالي بهلا وعلى رأسها الشيخ محمد بن ناصر الغافري ^(٤)، الذي عاد إلى عمان ، بعد أن ترك ولاية البحرين التي كانت تخضع لليعاربة ، إلا أن بلعرب بن ناصر لم يحسن استقبال محمد بن ناصر الغافري ، مما أدى في النهاية إلى جفوة بين الرجلين ، وتحولت الاحتفالات بمناسبة مبايعة الإمام الجديد إلى مناسبة لإعلان الولاء بين معظم القبائل العمانية لهذا الفريق أو ذاك، وإلى بداية لحرب أهلية مدمرة ، شهدتها البلاد على امتداد عقدين من الزمن .

كان على محمد بن ناصر الغافري أن يثار لكرامته ، وتمكن من أن يقنع يعرب بن بلعرب بالخروج على بلعرب بن ناصر ، ورفع راية العصيان ضده ، وبايعه بالإمامة ، ووعدته بتأييد قبائل ساحل عُمان (القواسم وبني ياس وغيرهم في رأس الخيمة ، وأبو ظبي) والظاهرة ، والبريمي ، وغيرها. ^(٥)

نجح محمد بن ناصر الغافري في إشعال نار الفتنة بين اليعاربة أنفسهم ، وهاجم يعرب بن بلعرب إزكي، إلا أنه هزم على يد قوات بلعرب بن ناصر ، ورجع إلى نزوى ، فتقدمت القوة التي جمعها محمد بن ناصر الغافري نحو نزوى، ودارت الدائرة على بلعرب بن ناصر .

شجعت الانتصارات التي حققها محمد بن ناصر الغافري ويعرب بن بلعرب على تشكيل أكبر تحالف قبلي ضم القواسم إليه ، ونجح في الاستيلاء على الرستاق ، وأسر بلعرب

(١) قاسم ، جمال زكريا : دراسة التاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ١٣٣

(٢) السيار ، عائشة : دولة اليعاربة ، المرجع نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) قاسم ، جمال زكريا : الإمارات العربية المتحدة في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ١٣٦ .

(٥) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٨٣ .

بن ناصر الذي أودع السجن، وبدلاً من أن يلغي محمد بن ناصر إمامه سيف بن سلطان " الثاني " كما كان متوقعاً ، تثبته في منصب الإمامة ، وأعلن نفسه وصياً عليه. ^(١) ولعله رأى في ذلك فرصة لممارسة سلطته على عمان ، فتستر خلف اسم الإمام الصغير ، في وقت توفي فيه حليفه يعرب بن بلعرب سنة (١١٣٥هـ / ١٧٢٢م) ، وخلصت له جميع حصون عمان ، ولم يبق سوى مسقط وبركة بيد الهنائية . ^(٢) وكان إعلان محمد بن ناصر الغافري الوصاية في عام ١١٣٤هـ / ١٧٢٢م إيذاناً بانقسام عمان بين زعيمين لا ينتميان إلى الأسرة اليعربية، يدعي كل منهما الحفاظ على إمامة سيف بن سلطان الصغير، الذي كان برعاية محمد بن ناصر الغافري.

بدأت المعارك بين الغافرية والهنائية تزداد حدة ، بعد وصاية محمد بن ناصر، حيث انضم إلى قواته ألف رجل من بني كعب ، وجاءه زعيم القواسم رحمة بن مطر القاسمي الهولي بخمسة آلاف رجل من بدو وحضر ^(٣) ، وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير الهنائي في بلدة الغشب ^(٤) عندما أخذ محمد بن ناصر حصن الرستاق وقلعته، فخاف على نفسه، وذهب إلى بركة ، واستولى على حصنها ، ثم مضى إلى مسقط ، التي أصبحت في قبضته ، وبلغ محمد بن ناصر الغافري الخبر ، فأمر علي بن ناصر الحراصي بالمسير إلى بركة ، حيث قتل هناك ، فأمر رحمة بن مطر القاسمي بالمسير بمن معه من قومه ، فلما عسكر بالمصنعة ، أتاه كتاب قرع الدرمني يتهددهم فيه، ومما جاء فيه : " إلى رحمة بن مطر الهولي ، يا رحمة ، لا تصل إلينا ، فنحن نصلك قبل أن تصل إلينا " . ^(٥) فلما قرأه رحمة بن مطر القاسمي أمر بالمسير لملاقاة قرع ، فالتقاهم بموقع يقال له وادي القاسم في " بركة " ، ف وقعت الحرب بين الطرفين ، وقتل قرع الدرمني وعدد كبير من رجاله ، أما رحمة بن مطر القاسمي ، فقد التقى هو وخلف بن مبارك ومن معهما غربي بركة ، ف وقعت بينهما معركة شديدة ، ودارت الدائرة على خلف بن مبارك ، وقتل كثير من رجاله ، ثم عاد رحمة بن مطر القاسمي

(١) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٨٤ . وتبعد بركة ٤٣ ميلاً غربي مسقط.
(٢) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الشعاع الشائع بالمعان في ذكر أئمة عُمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، دط ، ١٩٨٤م ، ص ٢٩٧ .
(٣) حول أسماء وتاريخ حكام القواسم أنظر في الملاحق ، ص ١٦٨ .
(٤) الغشب : هي قرية من قرى ولاية الرستاق وتبعد عنها من الناحية الشمالية الشرقية حوالي ٢ كم . أنظر : المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .
(٥) السيابي ، سالم بن حمود : عُمان عبر التاريخ ، ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٨ .

إلى الرستاق بمن معه ، وعاد خلف بن مبارك إلى مسقط ، وكان محمد بن ناصر الغافري قد عين محمد بن ناصر الحراسي والياً على الرستاق ، ثم توجه هو إلى ينقل ، إحدى مدن الظاهرة ، ومعه سيف بن سلطان الثاني اليعربي ، فأتاه الخبر بأن سعيد بن جويد قد دخل السليف ومعه عدد من الرجال من بني هناة ، فتوجه محمد بن ناصر الغافري إلى السليف ، وهاجم حصن المراثيد ، بعد رفض أهل السليف تقديم فروض الطاعة له ، وقام بهدم الحصن على من فيه من رجال ونساء ، عندئذ طلب ابن جويد الأمان له ولقومه ، فصالحه محمد بن ناصر الغافري ، وصالحته المناذرة كذلك الأمر^(١) . أما الصوافة^(٢) فلم يخضعوا لمحمد بن ناصر الغافري ، إلا بعد أن قطع نخلهم ، وحاصرهم لمدة شهرين ، حتى صالحوه على هدم حصنهم بأيديهم .

بعد ذلك جهز محمد بن ناصر الغافري جيشاً من البدو ، فيه قوم رحمة بن مطر القاسمي ، وتوجه بهم إلى بلدان الحبوس في المنطقة الشرقية (المضيبي والروضة) ، والتقى بجيش خلف بن مبارك والحبوس في المضيبي^(٣) ، فانهزم خلف ومن معه ، وتوجه محمد بن ناصر الغافري إلى نزوى ، ومعه الإمام سيف بن سلطان الثاني ، واجتمع مع علماء الدين ، ورجال القضاء ، والفقه ، ورؤساء القبائل ، وطلب إعفائه من منصب الوصاية والقيامة على الإمام الصغير ، مدعياً أنه لم تعد لديه طاقة لمواجهة القتال ، وطلب منهم انتخاب وصي آخر بدلاً منه . وقبول طلبه برفض الجميع ، وطلبوا منه أن يبقى على رأس السلطة ، لأن تخليه يعني أن خلف بن مبارك الهنائي سيظهر من جديد ، وستقوى شوكته . وكان الاجتماع عاصفاً ، استمر يوماً وليلة ، فكان من أبرز المتحدثين والي نزوى الشيخ عبد الله بن محمد ، ومعه قاضي القضاة ناصر بن سليمان بن مداد^(٤) ، واقترحوا عقد اجتماع مغلق لمناقشة الطلب ، وفي الاجتماع قرروا إبقاء السلطة بيد محمد بن ناصر الغافري ، ومبايعته بالإمامة رسمياً ، أي أن يتسلم الإمامة

(١) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الشعاع الشائع ، ص ٣٠٢ . والمناذرة قبيلة قحطانية ، تنسب إلى المنذر بن امرؤ القيس بن يشجب .

(٢) الصوافة : قبيلة مضرية عدنانية تنسب إلى صوافة بن مر بن أوس بن طابخة بن الياس بن مضر ، وأكثر تواجدهم بالسليف ، أنظر : المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

(٣) الأزكوي ، سرحان بن سعيد : المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ .

(٤) هو القاضي ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد بن أحمد المدادي الناعبي النزوي . تولت أسرته القضاء . المعولي ، محمد بن عامر : المرجع نفسه ، ص ٢٧٨ .

بدلاً من سيف بن سلطان الثاني بمعنى أن يتسلم الحكم بنفسه، بدلاً من أن يكون وصياً.^(١)

واتفق علماء الدين ، والقضاة ، ورجال القبائل على مبايعة محمد بن ناصر الغافري بالإمامة ، وعرضوا الأمر عليه ، فرفض يوماً وليلة، ثم قبل بعد ذلك. وفي يوم ٢٥ جمادى الآخرة ١١٣٤هـ/ ٧ تشرين الأول ١٧٢٢م، أعلن قاضي القضاة سقوط إمامة سيف بن سلطان " الثاني " للمرة الثانية، ومبايعة محمد بن ناصر الغافري إماماً على عُمان .

اتخذ الإمام محمد بن ناصر الغافري من مدينة جبرين قاعدة لحكمه ، وحكم عمان حكماً قوياً ، إلا أن هذه البيعة كانت بداية مرحلة جديدة من الصراع الدموي ، وفتحت الأبواب على مصراعيها أمام منافس آخر هو خلف بن مبارك الهنائي الذي رفع شعار إسقاط الإمام محمد بن ناصر الغافري .^(٢)

سعى الإمام محمد بن ناصر الغافري إلى التخلص من معارضيه، وإخضاع جميع المناطق العمانية لسيطرته ، بما فيها منطقة الظاهرة ، ولما رأى خلف بن مبارك انشغال محمد بن ناصر الغافري بحرب قرى الظاهرة ، زحف بجيشه على الرستاق، وأحاط بحصنها وحاصرها ، وقتل سنان بن محمد بن سنان الغافري الذي ولاه محمد ابن ناصر الغافري على قلعة الرستاق. ولما وصلت الأخبار إلى محمد بن ناصر الغافري الذي سرعان ما اكتشف ميل أهل الرستاق لمناصرة خلف بن مبارك الهنائي ، وخرج من جبرين إلى الظاهرة ، وجمع جيشاً كبيراً عبر به بلدان بني النعيم^(٣)، وجمع ناساً من بني ياس (فرع من القواسم) وغيرهم من قبائل ساحل عُمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) ومضى بهم إلى الرستاق ماراً بحدود الباطنة ، فالتقاء خلف بن مبارك وجيشه عند أفلاج عرعر من الرستاق ، ف وقعت بينهم حرب شديدة ، ولى أصحاب خلف بن مبارك على أثرها هاربين .

(١) حنظل ، فالج : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(2) N . Niebuhr : *Travel through Arabia* , Vol ii , 1st Ed , Edinburgh , 1972, p . 118

(٣) النعيم : قبيلة أزدية قحطانية تنسب إلى نعيم بن عمران بن عمرو ، أنظر : المعولي ، محمد بن عامر : المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .

بعد هزيمة خلف بن مبارك الهنائي ، توجه الإمام محمد بن ناصر الغافري إلى صحار على رأس جيشه لحسم الصراع مع خلف بن مبارك ، الذي كان يتحصن في قلعتها ، وهناك أصيب برصاصة طائشة ، أودت بحياته، وبعد مرور وقت قصير، علم المتمرّدون من الهنائية أن قائدهم خلف بن مبارك لقي مصرعه أيضاً أثناء المعركة خارج حصن صُحار في عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٨م . (١)

بعد مقتل الإمام محمد بن ناصر الغافري ، عاد بنو غافر ومن معهم إلى نزوى ، فبويع سيف بن سلطان " الثاني " بالإمامة في نزوى (٢) في عام ١٧٢٨م ، لأنه كان قريباً من الإمام محمد بن ناصر الغافري ، وملزماً له في السلم والحرب ، فواجه الكثير من الصعوبات والمشكلات الداخلية والخارجية ، حيث عاد البرتغاليون في عام ١١٤٣هـ / ١٧٣١م لإتباع سياسات استفزازية ضد عُمان ، مستغلين ظروف الحرب الأهلية التي كانت تعيشها ، وتمكنوا من استعادة السيطرة على ساحل شرق إفريقيا ، فاستجد أهله بالإمام سيف بن سلطان " الثاني " الذي أرسل حملة عسكرية من ثلاث سفن حربية من الأسطول العماني بقيادة محمد بن سعيد العمري ، وتمكنت الحملة من الانتصار بعد مواجهة صعبة مع البرتغاليين في ممباسا ، وعيّن الإمام سيف بن سلطان " الثاني " نائباً عنه في حكمها . (٣)

أما المشكلات الداخلية فقد بدأت بامتناع مدينة نخل على الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، وكان الوالي بها يومئذ جسّاس بن عمير بن راشد الحراسي من قبل محمد ابن ناصر الغافري ، فلما مات محمد بن ناصر أبى أن يسلم المدينة لغيره ، فأرسل سيف بن سلطان " الثاني " إليه لمقابلته ، فرفض ، فجاء الإمام سيف بمن معه من الجند إلى وادي المعاول ، فأطاعوه ، وأذعنوا له .

توقف الصراع الغافري الهنائي لفترة من الزمن بعد مقتل محمد بن ناصر الغافري وخلف بن مبارك الهنائي ، لأن غالبية الشعب العماني أيدت بيعه الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، غير أنه عجز عن إدارة أمور البلاد ، وفي وقت اختفى فيه منافسوه على السلطة .

(١) السيابي ، سالم بن حمود : عمان عبر التاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٦ - ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(3) Miles, Samuel : Op Cit , p 256 .

وبرغم نجاح الإمام في سياسته الخارجية، أثبت فشله وعدم كفاءته في الداغل كإمام للمسلمين^(١). وانصرف عن شؤون الرعية وشؤون الحكم إلى أمور الترف والملذات. ويبدو أن قبائل عُمان لم تكن راضية عن سيرته.

في وقتٍ لاحقٍ تجددت الحرب الأهلية في عُمان ، بسبب تصرفات الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، والتي كانت تتعارض مع الشريعة الإسلامية ، خاصة وأنه كان يشرب الخمر، علماً أن حكم الإمامة في عُمان كان يتم وفق ضوابط الشريعة الإسلامية من وجهة النظر الإباضية ، وكان علماء الدين من أبناء المذهب الإباضي يمثلون الجهاز الرقابي على تصرفات الحاكم^(٢).

اختلفت الحرب الأهلية في هذه المرحلة عن سابقتها. وتركز الصراع فيها بين أبناء أسرة اليعاربة أنفسهم هذه المرة. كما اتسعت دائرة الحرب نتيجة استعانة أطرافها ببعض القوى الخارجية مثل البلوش والفرس، وبذلك أخذت الدولة اليعربية تتجه نحو التدهور والسقوط النهائي ، وبخاصة مع بداية التدخل الفارسي .

ويعود السبب المباشر لتجدد الحرب الأهلية في عُمان إلى أن الإمام سيف بن سلطان الثاني كان قد تقدم بطلب ، بعد توليه الإمامة ، إلى قاضي القضاة الشيخ سعيد بن بشير الصباحي يسأله فيه زيادة مخصصاته المالية من خزينة الدولة، لكن الشيخ سعيد بن بشير أحاله إلى مجلس العلماء للنظر فيه قبل الموافقة عليه^(٣)، في وقت جعل فيه سلوك الإمام الشخصي غير السوي ، بلعرب بن حمير اليعربي يخرج عليه في عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م^(٤)، وتمكن من الاستيلاء على سمائل ، وإزكي ، وبهلا ، والشرقية ، وحصون الظاهرة^(٥). ولم يبق بيد الإمام سيف بن سلطان " الثاني " إلا حصون الباطنة ومسقط^(٦).

في تطور لاحق اجتمع علماء الدين الإباضية في نزوى، وأعلنوا تأييدهم لبلعرب بن حمير بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب اليعربي ، مما زاد الأمر تعقيداً

(1) Neibuhr : OP Cit , Vol ii , p, 118.

(٢) السيار، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٩٠ .

(٣) حنظل ، فالح : المفضل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٤) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٥) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الشعاع الشائع ، ص ٣٢٧ .

(٦) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : المرجع نفسه ، ص ١٧٧ .

وخطورة، وبدأ التنافس بين الإمام وبلعرب بن حمير، وكل واحد يدعي مسألة الولاء والطاعة لليعاربة المتقاتلين على الحكم^(١).

أدى هذا الانقسام إلى شلل الإدارة السياسية في عُمان ، وتوقف النشاط التجاري والاقتصادي، وترك آثاراً سيئة على مكانة عمان الخارجية. فلم يعد الأسطول العماني مثار اهتمام وتقدير من القوى الإقليمية والدولية^(٢). وكان من البديهي أن يقع الصدام بين الطرفين، خاصة وأنهما كانا يستعدان له. وكان بلعرب بن حمير قد عقد العزم على محاربة الإمام سيف بن سلطان " الثاني " بعد أن انضوت تحت لوائه معظم قبائل عمان.^(٣) فالتقى الجيشان في أرض الجوف ، وهُزمت قوات الإمام سيف التي كانت بقيادة أخيه بلعرب بن سلطان^(٤)، وأصبح بلعرب بن حمير سيد الموقف، وبدأ يعمل على إعادة توحيد عمان، في وقت بدأ فيه الإمام سيف بن سلطان الثاني يبحث في الخارج عن حلفاء لمساعدته في التغلب على هذا المنافس الجديد من أسرة اليعاربة نفسها .

أقدم الإمام سيف بعد الهزائم المتكررة التي لحقت بجنوده إلى الاستعانة بجنود مرتزقة من ساحل مكران في بلوشستان^(٥). فجاءته أعداد كبيرة منهم إلى مسقط ، وأصبحوا يشكلون قوة خطيرة ، ثم قادهم بنفسه إلى الظاهرة.^(٦) وقد أشار أحد المؤلفين العمانيين المعاصرين إلى ذلك بقوله : "استنهض سلاطين مكران لمؤازرته ضد بلعرب، وانتهى القتال بانتصار بلعرب بن حمير ، وقتل عدد كبير من البلوش " .^(٧)

(١) حنظل ، فالح : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(2) Miles ,Samuel: Op Cit , p . 251

(٣) الازكوي ، سرحان بن سعيد : تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة ، تحقيق القيسي ، عبد المجيد ، ط٤ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، ٢٠٠٥م ، ص ١٣٩ .

(٤) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الشعاع الشائع ، ص ٣٢٧ .

(٥) عاشور ، عبد الفتاح : المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .

(6) Miles, Samuel : Op Cit , p 270.

(٧) البلوش قبيلة عربية قحطانية يتصل نسبها إلى بلي بن عمرو بن الحاق بن قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير الأكبر بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان هود عليه الصلاة والسلام ، أنظر الخروصي ، سليمان بن خلف : جريدة عمان اليومية الصادرة في ١٠ آب في عام ١٩٩١م . على خلاف ما ذكرته عائشة السيار بأنهم من غير العرب ، في كتابها دولة اليعاربة في الصفحة ١٤٢ .

شكل اعتماد الإمام سيف بن سلطان " الثاني " على قوات من البلوش ، بداية اعتماد حكام عمان على جنود مرتزقة من مكران ، وفي وقت لاحق استقر هؤلاء في عمان، ولم يعودوا إلى بلوشستان ، وأنشأوا لهم حواضر في الظاهرة . ويبدو أن الشعب العماني انصرف عن مساندة الإمام سيف بن سلطان " الثاني " بسبب خروجه على التقاليد الإباضية التي ترفض الاستعانة بالقوى الخارجية .^(١) ونظراً لعدم فعالية البلوش، فإن الإمام سيف بن سلطان " الثاني " كرس الخطأ في الممارسة السياسية مرة ثانية ، وارتكب حماقة كبيرة ، عندما راح يبحث بين العمانيين عن شخصيات قوية يستعين بها ، حيث وقع اختياره على أحمد بن سعيد البوسعيدي ، والي صحار، ومؤسس دولة البوسعيد فيما بعد ، في وقت كان فيه أحمد بن سعيد ، يتمتع بشعبية كبيرة بين زعماء القبائل العمانية الشمالية ، وسرعان ما أصبحت هذه الشهرة مثار شكوك لدى الإمام سيف بن سلطان " الثاني " فرسم خطة للقبض عليه ، ودعاه للمثول بين يديه في مسقط ، لكن جدّ المؤرخ العُماني ابن رزيق أخبره بالمؤامرة لدى قدومه إلى مسقط ، فسارع بالعودة إلى صحار ، فجهز الإمام سيف حملة بحرية على صحار ، انتهت بإعلان أحمد بن سعيد ولاءه للإمام سيف بن سلطان الثاني ، وأن يرسل ابنه الأكبر هلال بن أحمد رهينة بين يدي الإمام سيف بن سلطان .^(٢)

تؤكد هذه الحادثة أن الإمام سيف بن سلطان " الثاني " لم يعد يثق بأخلص أعوانه ، وبالتالي لم يبق أمامه إلا الاستعانة بالقوى الخارجية ، وفتح باب الاستعانة بالقوى الأجنبية لحسم الصراع على السلطة في عمان مع خصومه السياسيين .

في تلك المرحلة كان الشاه نادر (١١٣٤ - ١١٦٠هـ / ١٧٢٢ - ١٧٤٧م) قد بدأ تكوين قوة بحرية كبيرة في الخليج العربي.^(٣) واتبع سياسة التوسع والسيطرة على الشواطئ العمانية ، وخاصةً بعدما تمكنت البحرية الفارسية من إلحاق الهزيمة بالأسطول العثماني في البصرة ، والسيطرة على العراق ، واحتلال البحرين، وهنا جاءت الفرصة المناسبة لتحقيق مطامعه بالسيطرة على الخليج العربي كله وتحويله إلى

(١) الخطيب ، مصطفى : التنافس الدولي في الخليج العربي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، د.ط ، ١٩٨١م ، ص ٢٧٦ .

(٢) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

(٣) محمد أمين ، عبد الأمير : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، مطبعة أسعد ، بغداد ، د.ط ، ١٩٦٦م ، ص ٢٠ .

بحيرة فارسية ، ^(١) عندما طلب الإمام سيف بن سلطان " الثاني " مساعدته . وبذلك أسهمت الحروب الأهلية في إضعاف القوى العمانية ، وتصدع وحدتها الوطنية ، بإجبار أحد الأطراف المتنازعة على الاستعانة بالقوى الأجنبية نفسها كالفرس .

وافق الشاه نادر على طلب التدخل الذي تقدم به الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، وسارع إلى إرسال حملة عسكرية ضخمة إلى عمان ، نزلت في خورفكان في عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٧م رافعةً العلم الفارسي الأبيض ذا السيف الأحمر ، واتجهت إلى جلفار (رأس الخيمة) على ساحل عُمان ، ولم يكن الفرس واثقين بولاء القواسم حكام رأس الخيمة وإخلاصهم لهم ، حيث لم يبدِ الشيخ رحمة بن مطر القاسمي رغبته بقتال العمانيين ، فتم اعتقاله من قبل الفرس ، واقتيد على ظهر سفينة هولندية بناءً على طلب من الفرس إلى ميناء بندر عباس الفارسي ، حيث عومل معاملة جيدة من قبل الفرس ^(٢) ، وفي جلفار اجتمع الإمام سيف بن سلطان " الثاني " بالفرس بعد خروجه من مسقط لاستقبالهم هناك ، وفي السنينة " قرب واحة البريمي " دخلت قواته في معركة ضارية مع جيش بلعرب بن حمير ، انتهت بانتصار قوات بلعرب بن حمير ^(٣) ، فطلب الإمام سيف بن سلطان " الثاني " مزيداً من القوات الفارسية ، فجاءته قوات داعمة من شيراز تحمل الأعلام الفارسية ، واتجهت إلى شمال رأس مسندم ، ومنها إلى جلفار (رأس الخيمة) ، حيث انضمت إلى القوات الفارسية المرابطة هناك ، وانطلق الجيش الفارسي والجيش العماني التابع للإمام سيف ومعظمه من الكتلة الغافرية تحت قيادة زعيمهم مبارك بن مسعود نحو منطقة الظاهرة وعمان الداخلية . ^(٤)

نجح الجيش العماني المتحالف مع الجيش الفارسي في الاستيلاء على مواقع كانت خاضعة للإمام بلعرب بن حمير ، حيث سيطر على الظاهرة ، ثم هاجم مدينة عبري ^(٥)

(1) Miles, Samuel : Op Cit , p . 254.

(2) *English Daily Documents in Bandar Abbas No: 1-4 1737-1738*, Abu Dhabi Research Center.

(٣) السيابي ، سالم بن حمود : *عمان عبر التاريخ* ، ج ٤ ، ص ٩٨ . وأنظر أيضاً : الازكوي ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(٤) محمد أمين ، عبد الأمير : المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

(٥) عبري : وهي إحدى مدن الظاهرة . أنظر : ابن رزيق ، حميد بن محمد : *الفتح المبين* ، ص ٢٩٧ .

، واستباحها الفرس استباحة كاملة ، وقاموا بقتل الأهالي وخطف النساء وإرسالهن إلى أسواق شيراز لبيعهن في أسواق النخاسة^(١).

ثم تابعت القوات تقدمها، وسيطرت على بهلا ونزوى ، ومن هناك زحفت إلى إزكي التي صالحوها على أن تؤدي لهم الخراج ، ومن إزكي توجهوا إلى مسقط، وسيطروا عليها، في حين ظلت القلعتان الشرقية والغربية (الجلالي والميراني) تقاوم إلى أن سقطتا في عام ١١٥١هـ / ١٧٣٨م بيد القوات الفارسية .^(٢)

كان سيف بن سلطان " الثاني " قد تمكن من الهرب من مسقط عن طريق البحر إلى بركة، ومنها إلى نخل ، ثم إلى الظاهرة ، قبل قدوم القوات الفارسية إليها بعد أن غير موقفه من الفرس بضغط من رجال الدين الإباضية. وأدى التدخل العسكري الفارسي في عمان إلى وقف الحرب الأهلية ، وتحالف كل قوى الشعب العماني في وجه الغزو الفارسي، حيث تداعت كل القوى السياسية العمانية إلى التحالف والتعاون بما في ذلك الإمام سيف بن سلطان " الثاني " ، الذي التقى مع الإمام بلعرب بن حمير وعلماء عمان ومشايخها، وتقرر أن يتنازل بلعرب بن حمير عن الإمامة لسيف بن سلطان " الثاني " حتى ينتصر العمانيون على الفرس .^(٣)

أعلن الإمام سيف بن سلطان " الثاني " حرب التحرير على القوات الفارسية التي جاءت إلى عُمان بطلب منه ، بعد ما تبينت له حقيقة الأطماع الفارسية في بلاده ، حيث سعت هذه القوات إلى بسط السيطرة الكاملة على عمان ، وهنا وقف القواسم إلى جانب العُمانيين ، وانضموا إلى أحمد بن سعيد آل بوسعيد الذي كان يحاصر القوات الفارسية في صحار، ومكنوه من الانتصار عليهم، ثم اشتبكت قوات القواسم مع الفرس في معسكرهم الخاص في بندر عباس على الساحل الفارسي،^(٤) وانتهت عملية التحرير بانسحاب الفرس من مسقط إلى بركة، ومنها إلى رأس الخيمة.

وبفضل هذه الحرب أعيد تكوين وحدة القبائل العمانية، إلا أن هذه الوحدة كانت قصيرة الأمد ، إذ أن الإمام سيف بن سلطان " الثاني " عاد إلى سلوكه الشخصي السابق، وإلى ممارسة بعض الأفعال التي لم يرضَ عنها الشعب العماني، مما دفع الفقهاء وعلماء

(١) مراد ، محمد عدنان : المرجع نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢) ابن رزيق ، حميد بن محمد : الفتح المبين ، ص ٢٩٨ .

(٣) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

(٤) غباش ، حسين : المرجع نفسه ، ص ١٦٢ .

الدين والقضاة في نزوى والرساق وغيرها من المدن العُمانية الأخرى إلى الاجتماع، والاتفاق على خلعه ، ومبايعة سلطان بن مرشد بن عدي اليعربي إماماً على عُمان، وتختلف المصادر في تحديد تاريخ مبايعة سلطان بن مرشد^(١). فقد ذكر " ابن رزيق " أنها كانت في عام ١١٥١هـ / ١٧٣٨م^(٢)، بينما يحددها كتاب "تاريخ أهل عمان" لمؤلف مجهول^(٣) وسرحان بن سعيد الازكوي في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤٢م^(٤) ، والرأي الأول أقرب إلى الصواب لأن وفاة سيف بن سلطان الثاني كانت في عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م .

وقعت المواجهة بين الإمام الجديد سلطان بن مرشد اليعربي والإمام المخلوع سيف بن سلطان " الثاني " ، وانتهت بهزيمة الإمام سيف. ومع أن الإمام المخلوع سيف بن سلطان " الثاني " تراجع عن التزاماته مع الفرس في المرة الأولى، فقد عاد وطلب منهم المساعدة مرة أخرى ، مما جعله يواجه فشلاً كاملاً في الوصول إلى السلطة بمساعدة القوى الأجنبية في هذه المرة. فقد أرسل الشاه نادر جيشاً ضخماً بلغ تعداده حوالي ستين ألفاً ، وبذلك استولى الفرس على معظم المدن العمانية بمساعدة الأسطولين البريطانيين والهولندي ،^(٥) وبينما كان الإمام المخلوع يريد استعادة الإمامة المفقودة، قدم تعهداً بالتنازل عن مدينة صحار للفرس ، حيث حاصرها الجيش الفارسي لمدة تسعة أشهر دون أن يتمكن من اقتحامها، بسبب المقاومة الضارية التي أبدتها قوات الإمام سلطان بن مرشد اليعربي، ووقع الخلاف بين القائدين الفارسيين الذين كانا يقودان الحملة محمد تقي خان ولطيف خان^(٦). وهب الإمام سلطان بن مرشد لمحاربة الفرس، الذين اجتاحتها عمان وغزوها، وارتكبوا مذابح للمرة الثانية فيها ، واستولوا على مسقط ومطرح ، وبذلك فقد الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثاني سلطته كلها تقريباً ، ونشب قتال عنيف بين الطرفين الفارسي والعُماني، قاوم خلاله والي صحار أحمد بن سعيد ، واستطاع

(١) محمد أمين ، عبد الأمير : المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

(٢) ابن رزيق ، حميد بن محمد: *الفتح المبين* ، ص ٣٠٠ .

(٣) عاشور ، عبد الفتاح : المرجع نفسه ، ص ١٨٢ .

(٤) الازكوي ، سرحان بن سعيد : *تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة* ، المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٥) وثائق الأرشيف الإماراتي رقم : ٢٤٤٨ ، ص ٨٨٩ ، تاريخ ١٧٣٧ - ١٧٣٨ ، مركز البحوث و الوثائق ، أبو ظبي .

(٦) العيدروس ، محمد حسن : *دراسات في تاريخ الخليج العربي* ، ص ٦٧ .

بمساعدة الإمام سلطان بن مرشد أن يوقف تقدم الفرس ، ومنعهم من احتلال صحار^(١). وفي أثناء ذلك، توفي الإمام سلطان بن مرشد متأثراً بجراحه من جراء رصاصة أصابته أثناء اقتحامه صفوف الجيش الفارسي في عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م. وبعد أيام، لحق به سيف بن سلطان الثاني ، الذي توفي كمداً وحزناً. وانتهت هذه المرحلة بالنجاح الذي حققه أحمد بن سعيد آلْبوسعيد على الفرس ، حيث استخدم أساليب المكر والخداع للوصول إلى الحكم من خلال التخلص من الفرس، وتضييق الخناق على قواتهم في ميناء بركة ثم إبادة قواتهم فيها على يد الشعب العماني .

بعد مقتل الإمام سلطان بن مرشد اليعربي ، و وفاة سيف بن سلطان " الثاني " بايع الشعب العماني بلعرب بن حمير بالإمامة للمرة الثانية في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م. فخرج عليه أحمد بن سعيد آلْبوسعيد حاكم صحار ، وسيطر على نزوى في عام ١٧٤١م، بعدما تمكن من قتله في معركة (فرق) الشهيرة في وادي كلبوة. وكان موت بلعرب بن حمير ضربة قاضية لليعاربة، فقد بقي ماجد بن سلطان شقيق سيف بن سلطان " الثاني " في عزلة، إذ لم تكن لديه قوة تقف معه ، ولم يبق من اليعاربة من يعارض أحمد بن سعيد سوى سليمان بن محمد بن عدي اليعربي ، وكان والياً للإمام سلطان بن مرشد على سمد الشان، فلما وجد سليمان بن محمد بن عدي اليعربي أن المدن الداخلية أعلنت خضوعها لأحمد بن سعيد آلْبوسعيد، أتى إليه، وأعلن تنازله عن سمد الشان، فكافأه أحمد بن سعيد بأن ولاه على نخل^(٢). وبذلك انتهى حكم اليعاربة في عمان، وانتهت الحروب الأهلية، وظهرت دولة آلْبوسعيد الجديدة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه في العام الذي تم الخلاص فيه من الفرس (١٧٤١م) ظهرت إلى الوجود دولتان ، دولة آلْبوسعيد بزعامة مؤسسها أحمد بن سعيد ، ودولة القواسم الذين انفصلوا عن عُمان بقيادة رحمة بن مطر القاسمي، والذين سيكون لهم دور كبير في سير الأحداث ، ورسم السياسات الجديدة في الخليج العربي ، بعد أن أعلنوا انفصالهم في ساحل عُمان، وجعلوا رأس الخيمة عاصمتهم السياسية والإدارية .وهو ما سنأتي على ذكره في الفصل القادم عن القواسم وعلاقاتهم الإقليمية والدولية.

(١) مراد ، محمد عدنان : المرجع نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ٢٠٥ .

ويذكر ابن رزيق أن استلام أحمد بن سعيد للحكم كان في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م^(١) وبويع بالإمامة رسمياً في عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م^(٢) وهو ما تتفق عليه معظم المصادر التاريخية ، وبخاصة العُمانية منها.

خامساً: دور القواسم في الحياة الاقتصادية في عُمان في عهد اليعاربة ١٠٣٣ - ١١٥٤هـ / ١٦٢٤ - ١٧٤١م

الأوضاع الاقتصادية:

يتميز الاقتصاد لدى دولة اليعاربة ، بصورة عامة ، والقواسم الذين كانوا جزءاً لا يتجزأ من الدولة اليعربية آنذاك ، بكونه اقتصاداً تقليدياً قائماً على الصيد البحري، والغوص بحثاً عن اللؤلؤ ، والزراعة في المناطق الساحلية (صلالة ، سهل الباطنة) وبعض مناطق الواحات المحدودة ، والتجارة البحرية مع العالم الخارجي .

أ - الزراعة:

أولى أئمة عمان الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً وبخاصة قطاع الزراعة ، عماد الاقتصاد العماني في حينها، فمنذ بداية عهدهم قاموا بإصلاح قنوات المياه وتوسيعها ، وتنظيمها ، وقام الإمام سلطان بن سيف " الأول" منذ بداية عهده ، بإصلاح قنوات المياه التي تقع بين إزكي ونزوى ، وأنشأ قناة لجرّ المياه من بركة الموز إلى إزكي لري البساتين المحيطة بالمدينة وما تزال إلى يومنا هذا . كما شجع على زراعة الكثير من المحاصيل التي كانت تفتقر إليها عمان وساحلها ، وكانت نتيجة اهتمام الإمام سلطان بن سيف " الأول " بالزراعة أن فاقت عمان وساحلها في عهده بقية مناطق الخليج العربي . جاء التطور الأكبر في مجال الزراعة في عهد الإمام سيف بن سلطان الذي لُقّب بـ (قيد الأرض) حيث حُفِرَ في عهده سبعة عشر فلجاً منها : فلج الملكي الذي كان له ثلاثمائة رافد ، وفلج البركة (بركة الموز) الذي يقع بين إزكي ونزوى ، والحزم ، والكوثر ، والبزيلي في منطقة الظاهرة ، والمسفاة الذي حفره في الرستاق ، ومسفاة وادي السحتن ، وفلج الصائغي ، وأفلاج منطقة جعلان التي في بلاد بني بو حسن ، وفلج الهدب ، وفلج برزمان من ناحية البدو، وغيرها الكثير .^(٣)

(١) ابن رزيق ، حميد بن محمد: *الفتح المبين* ، ص ٣٠٦ .

(٢) السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : *المصدر نفسه* ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

(٣) السيابي ، سالم : *عمان عبر التاريخ* ، ج ٤ ، ص ٩ .

وفي عهده تمت زراعة نخلة المبسلى ، والتي تعدّ من أجود أنواع النخيل في العالم ، وأمر بزراعة مساحات واسعة منه ، حيث وصل عدد أشجار النخيل في عهده إلى ثلاثين ألف نخلة بلح ، وستة آلاف شجرة من أشجار النارجيل (جوز الهند) كما عُرس في عهده، أشجار الورد ، والزعفران في منطقة الجبل الأخضر . (١)

وتأتي رأس الخيمة بالمرتبة الأولى اقتصادياً بين مناطق ساحل عُمان ، وتمتاز بإمكانياتها الزراعية بسبب توفر التربة الخصبة ، والغنية ، ومياهها الجوفية ، واعتدال أمطارها .

إلا أن قطاع الزراعة تعرض لحالة من الانهيار في عُمان مع دخول البلاد خضم الصراعات الدموية الداخلية في أواخر عهد اليعاربة ، واستمر الوضع كذلك حتى قيام دولة آلْبوسعيد في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م وقيام دولة القواسم في العام نفسه.

ب- التجارة:

كان للموقع الجغرافي الذي تتمتع به عُمان على طريق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أهمية خاصة جداً في زيادة وتفعيل الدور التاريخي الذي لعبه العمانيون في هذا المجال بالذات ، وبالتالي ركبوا بحار الشرق سعياً وراء التبادل التجاري مع الشعوب المجاورة ، وشكل البحارة العمانيون طليعة رواد المحيطات على مرّ العصور .

شكلت التجارة البحرية العمود الفقري للاقتصاد العماني في عهد اليعاربة ، وكذلك القواسم ، وساعدت الانتصارات العسكرية الكبرى التي حققها الإمام سلطان بن سيف الأول على تحويل مسقط إلى محور للتجارة الدولية في الخليج العربي والمحيط الهندي . أصبحت مدينتا مسقط ورأس الخيمة (معقل القواسم) مناطق حرة للتجارة ، ترسو فيهما السفن القادمة من اليمن وشرق إفريقيا وسواحل الهند ، ثم تنقل السلع والبضائع عبر الخليج العربي إلى قطر والبحرين والبصرة (التمور ، البن ، المنسوجات القطنية، الأرز ، الأخشاب.... الخ) .

بعد تنامي تجارة مسقط وبقية الموانئ البحرية العمانية (صور ، صحار ، خورفكان ، رأس الخيمة ...) أصبحت السفن العمانية والقاسمية تجوب مياه وموانئ الخليج العربي والمحيط الهندي ، مما دعا ممثلي شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة إلى الطلب

(١) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٥٢ .

من إدارة الشركة في الهند تفعيل التعاون التجاري مع عُمان ، وإنشاء وكالة لهم في مسقط. (١)

دفعت النجاحات الكبرى التي حققها التجار العمانيون في قطاع التجارة البحرية ، الإمام سلطان بن سيف الأول ، إلى زيادة عدد سفن الأسطول التجاري العماني (٢)، كما فعل الشيء نفسه الشيخ رحمة بن مطر القاسمي بعد استقلاله عن عُمان في عام ١٧٤١م، مما ساعد في زيادة النشاط التجاري إلى درجة كبيرة ، حيث أصبحت البحرستان العمانية والقاسمية مصدر قلق حقيقي لأساطيل الدول الأوروبية في الشرق.

تعرضت التجارة الخارجية العمانية لضربة مؤلمة في أواخر أيام اليعاربة وخمدت حركة الأسطول العماني بعدما غرقت عُمان في بحر الصراعات الدموية بدءاً من في عام ١٠٣٤هـ / ١٧٢٢م وحتى في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م والتي قادت إلى التدخل الفارسي في عُمان وسقوط دولة اليعاربة وظهور تحالف القواسم إلى الوجود ككيان سياسي منفصل عن عُمان ، حيث تابعت البحرية القاسمية نموها وتوسعها في بحار الشرق .

تجد الإشارة هنا إلى أن السفن الحربية كانت تستخدم للتجارة في وقت السلم ، وكانت السفن التجارية تستخدم أحياناً لمساعدة الأسطول الحربي في أعمال التموين ، وهكذا أصبحت عمان في عهد اليعاربة وساحلها في عهد القواسم، فيما بعد ملتقى التجارة بين الهند وشرق إفريقيا ، حيث ازدهرت كل من مسقط ومدينة رأس الخيمة ازدهاراً عظيماً، وأصبحتا من أهم مراكز التجارة في منطقة الخليج العربي في أواخر القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر الميلاديين .

وبسبب اهتمام الأئمة العمانيين وشيوخ القواسم بالناحية الاقتصادية، فقد أولوا التجارة قسطاً وافراً من الاهتمام وشجعوا تنشيط حركة التجارة، بين عمان وساحلها من جهة ، والعالم الخارجي كالهند ، والصين ، والعراق من جهة أخرى، ونظراً للاهتمام بالتجارة، فقد تم إلغاء جميع الرسوم الجمركية عن أهل عمان وساحلها (دولة الإمارات العربية

(١) الحياة الاقتصادية في عهد اليعاربة : محاضرة للدكتور محمد حبيب صالح في قسم التاريخ في عُمان ، ص ١

(٢) المرجع نفسه : ص ١

المتحدة حالياً)، فارتفعت أرباح التجارة ، وانخفضت الأسعار ، وازدادت المحاصيل الزراعية . ووجدت في الداخل أسواق لعرض المنتجات المحلية والمستوردة معاً .^(١) وكانت العائدات التجارية تسهم في سدّ قسط وافر من نفقات الدولة على الدفاع والجهاد في سبيل الله ، وإقامة المنشآت العسكرية ، والمساجد ، وعلى العجزة وكبار السن واليتامى ، وأبناء السبيل ، ورواتب موظفي الحكومة ، كما يتقاضى الإمام نفقاته الخاصة من خزينة الدولة .

ولم يشكل القواسم في عهد اليعاربة حالة خاصة ومختلفة عن بقية أبناء المجتمع العماني، ولم تختلف حياتهم عن حياة اليعاربة ، في الوقت الذي كانوا يشكلون فيه جزءاً من دولة اليعاربة ، أو بعد استقلالهم عن عُمان بُعيد سقوط اليعاربة في عام ١٧٤١م، غير أنه يجب الاعتراف للقواسم هنا بأنهم نجحوا في تأكيد سيادتهم على المنطقة الساحلية الممتدة من رأس مسندم إلى ديرة دبي ، وانتعشت في منطقة نفوذهم الكثير من الموانئ تجارياً واقتصادياً ، وكان من أهمها : مدينة رأس الخيمة ، المعقل الرئيسي للقواسم ، والشارقة ، التي تعدّ قاعدتهم الثانية .

سادساً: الحياة الاجتماعية في عهد اليعاربة والقواسم:

تتصل الأوضاع الاجتماعية في دولة اليعاربة وإمارات الساحل العماني (الإمارات العربية المتحدة حالياً) بجانبين مهمين هما:

١. طبيعة التشكيل الاجتماعي في البلاد الذي يتكون من عدد كبير من القبائل.
٢. تأثير الاستقرار النسبي الذي شهدته عمان في عهد دولة اليعاربة على الجو الحضاري العام فيها، خاصة ما اتصل منه بمحاولات تنظيم التعليم ، وظهور مجموعات مؤثرة من رجال الدين، والأدباء، والشعراء.

ظل المجتمع العماني في عهد دولة اليعاربة (١٦٢٤ - ١٧٤١ م) ، كما في دولة القواسم فيما بعد (١٧٤١ - ١٨٢٠ م) يرتكز على القبيلة كأساس في تشكيله مما ساعد في ظهور سلطة مركزية قوية في البلاد ، وفي إحداث تغيير نوعي في العلاقة بين القبائل والدولة ، وعلاقة الدولة مع التشكيلات الاجتماعية القائمة وإن كان يختلف اختلافاً عميقاً مع مفهوم الدولة الحديثة ، التي ظهرت في أوروبا ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المنطقة العربية ، ذلك أن الدولة الحديثة قامت على أنقاض النظم الاجتماعية

(١) السالمي ، نور الدين : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

القديمة، أما اليعاربة والقواسم بعد استقلالهم فقد ظلت تلك العلاقات تنبثق من نفس النظم الاجتماعية التي كانت سائدة قبل قيامهما ، مع الاعتماد على آلية جديدة في تشكيل سلطة الدولة التي تقوم على أساس الاشتراك المتوازن للقبائل في السلطة .

من أهم سمات التركيب الاجتماعي في عُمان وساحلها، أنّ أغلب القبائل كانت تنقسم إلى قسمين : البدو ، والحضر ، أما الحضر ، يتكونون من جميع المشتغلين بشؤون البحر من تجارة ، وحرب ، أو يعملون بالزراعة . أما البدو ، الذين يتكونون من الرعاة ، ويعيشون في الغالب في المناطق الداخلية ، كالوحدات ، مثل : (البريمي ، ليوا ، وبعض الوحدات في الإمارات الشمالية ، وكذلك في منطقة الختم ، والظفرة) وكانوا يعتمدون في حياتهم على التنقل والترحال من منطقة إلى أخرى ، وكانوا يهاجرون إلى المدن في الشتاء ، وبخاصة إلى رأس الخيمة ، والشارقة ، وأبو ظبي ، ودبي ، أما في الصيف فيعيشون في الوحدات ، حيث تقل الحرارة ، وتتعدم الرطوبة تقريباً ، بسبب بعدها عن البحر ، ولتوفر المياه الجارية، والعيون ، والأشجار .^(١)

عندما كان البدوي يضيق به العيش في مكان ما نتيجة الظروف الطبيعية القاسية ، كان يفكر في الانتقال إلى مكان آخر ، إلى أن تتغير الظروف البيئية ، أو الطبيعية من حوله، ولا شك أن الأقسام البدوية من القبائل العمانية كانت لها الغلبة والصدارة خلال الفترة السابقة لعهد اليعاربة ، وذلك لأسباب أهمها : أضعفت سيطرة البرتغاليين على مياه الخليج العربي من النشاط البحري للعُمانيين إلى حدّ بعيد، أضف إلى ذلك أدت طبيعة الصراع الداخلي الذي شهدته السنوات الأخيرة من عهد الدولة النبهانية، وإسهام العناصر البدوية من القبائل بالنصيب الأكبر في تلك الصراعات ، إلى منح هذه العناصر مكانة الصدارة في المجتمع العماني .^(٢)

أ- قبائل ساحل عمان (في عهد اليعاربة والقواسم) :

ينتمي سكان ساحل عمان بشكل في عام إلى تجمعي القواسم ، وبني ياس ، وتتوزع قبائلهم على مدن ساحل عُمان وفق ما يأتي :

رأس الخيمة : القواسم ، السودان ، بنو علي ، بنو مرة ، المزاريق ، النعيم ، بنو سليم ، الشحوح ، الغفلة ، الحبوس ، بنو سهيل ، بنو إبراهيم ، بنو حصن ، بنو سعيد .

(١) القاسمي ، خالد بن محمد : التاريخ الحديث والمعاصر لدولة الإمارات العربية المتحدة ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ط٢ ، ١٩٩٩م ، ص ١١٢ .
(٢) (السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .

الشارقة : القواسم ، المزاريع ، النعيم ، بنو مرة ، بنو قنتب ، بنو ياس ، بنو علي ، النقبون ، المدافعة ، الشواميس ، العوامر ، العبادلة ، الهوالة ، المطاريش .

أم القيوين : بنو علي ، البومهير ، الجفالة .

دبي: بنو ياس (ومنهم البوفلاسة التي تنتمي إليها أسرة آل مكتوم حالياً) ، بنو مرة ، السودان ، البومهير ، المناصير ، المزاريع .

أبو ظبي : تجمع بني ياس ويضم مجموعة من العشائر : البوفلاح ومنهم بنو نهيان ، البوفلاسة ، السودان ، المرر ، الهوامل ، المحاربة ، الرميثات ، بنو بومهير ،

المزاريع، القمران – البوصير ، الرواشد . (١)

ب - دور المرأة في عهد القواسم واليعاربة

لعبت المرأة دوراً مهماً في المجتمع القبلي لدى القواسم واليعاربة في ذلك العهد ، فالانفتاح نحو البحر يؤدي في العادة إلى زيادة حجم الدور الذي تؤديه المرأة في المجتمع على النقيض من مجتمع الرعاة من البدو الذي تعتمد فيه المرأة تماماً على الرجل ، مما يؤدي في النهاية إلى أن تبقى عالية عليه .

وتبدو زيادة حجم دور المرأة في مجتمع العاملين بالنشاط البحري من اعتماد الرجل عليها في إدارة شؤون الأسرة ، بسبب فترات غيابه الطويل في البحر ، أو في إسهامها

في أعمال التجارة في المدن الساحلية التي تنمو نمواً بسبب الرحلات البحرية . (٢)

ج - الرقيق : أدى الانفتاح العماني نحو البحر والعمل بالتجارة وخوض المعارك والحروب في أعالي البحار وبخاصة في عهد اليعاربة إلى جلب أعداد من الرقيق تفوق الأعداد التي كانت موجودة في البلاد قبل ذلك، كما أدت عودة السيطرة العمانية على سواحل شرق إفريقيا بعد طرد البرتغاليين منها إلى انتعاش تجارة الرقيق في ذلك العهد، وأدى بيع رؤساء القبائل الإفريقية أبناء القبائل التي هزموها للعرب الذين كانوا يحملونهم إلى بلادهم إلى تفشي ظاهرة الرقيق والعبودية في تلك الفترة .

(١) القاسمي ، خالد بن محمد : المرجع نفسه ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) التميمي ، عبد الملك خلف : الخليج العربي والمغرب العربي "دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي" ، دار الشباب للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٤ .

وقد احتفظ العرب بكثير من هؤلاء في المدن الساحلية والمزارع ، كما جندوا آخرين في القوات الوطنية ، التي تكونت في بعض الإمارات الإسلامية على ساحل إفريقيا الشرقي. (١)

وكما جرت العادة في المجتمعات العربية الإسلامية ، لم يكن هناك عزل جنسي بين العناصر المختلفة ، في مجتمع ساحل عُمان مما ساعد في انصهار العبيد في المجتمعات المحلية وسرعان ما ذاب الزنوج في المجتمع العماني .

سابعاً: أسباب سقوط دولة اليعاربة :

تضافرت مجموعة من الأسباب والعوامل للإجهاد على دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا خلال أربعينيات القرن الثامن عشر الميلادي، أهمها :

١- الصراعات الداخلية التي واجهتها عمان ، والتدخل الفارسي في شؤونها الداخلية مما ترك أثراً سلبياً على الأوضاع العامة فيها ، وأدى إلى تجدد الاضطرابات والفتن الداخلية بين التجمعات القبلية العُمانية .

٢- كان للدين دور بارز في الحياة السياسية في عُمان وبخاصة في العصر الذهبي لدولة اليعاربة ، فقد امتزج المفهوم السياسي بالمفهوم الديني الوحدوي لي طرح شعار: بناء الجبهة الداخلية وتوحيدها، وتحرير عمان من الاستعمار البرتغالي. حيث قام علماء الدين من أبناء المذهب الإباضي والفقهاء بدور أساسي إلى جانب الحكام السياسيين الممثلين بالإمامة، إضافة إلى دورهم في اختيار الأئمة. وكانوا المحرك الأساسي للأمور المهمة، وكانوا يتوخون العدل والمصلحة العامة. وبذلك شكل رجال الدين الجهاز الرقابي على تصرفات الأئمة، وشكلوا هيئة أقرب إلى الجهاز التشريعي أو البرلمان المنتخب في حين كانت البيعة أو انتخاب الإمام، أي الحاكم يتم مباشرة من الشعب، كما يحدث اليوم في معظم الدول الديمقراطية الغربية ، وإن كان الرأي الأول لعلماء الدين ، وخاصة قاضي القضاة الذي يرشح الأشخاص الذين يجد فيهم الكفاءة ، وتتنطبق عليهم شروط الإمامة ، في حين يكون القرار النهائي للشعب بغض النظر عن كفاءة المرشح أو عدم كفاءته. غير أن هذا الوضع تغير بصورة تامة في أواخر أيام اليعاربة ، وأدى إلى الحرب الأهلية في عمان، نظراً لغياب الوعي السياسي الكامل لدى العامة ، وتفضيلهم العامل الوراثي على مبدأ الشورى والانتخاب.

(١) السيار ، عائشة : المرجع نفسه ، ص ١٣٣ .

٣- أثر سقوط دولة اليعاربة ليس على الاستقرار الداخلي والازدهار الفكري والاقتصادي في عمان فقط، بل أدى أيضاً إلى اختفاء الأسطول العربي العماني القوي (الذي كان عامل أمن واستقرار ، وأداة ردع وحماية من أطماع الاستعمار الأوروبي)، وإلى تكالب القوى الدولية للسيطرة على عُمان ، وخاصة بريطانيا التي ملأت الفراغ العسكري الذي خلفه اليعاربة نتيجة للحروب الأهلية، رغم عودة العمانيين إلى البحار الشرقية بعد سقوط دولة اليعاربة ، وعودة العلاقات مع شرق أفريقيا، تحت حماية المظلة البريطانية. وبذلك فقدت المنطقة استقلالها ، وقسمتها بريطانيا إلى كيانات سياسية صغيرة أقرب إلى إمارات المدن المتناثرة .

وأخيراً وبعد دراسة دور القواسم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عُمان حتى عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م يمكن وضع النتائج التالية:

١- شكل القواسم قبل عام ١٧٤١م جزءاً أساسياً من النسيج الاجتماعي في عُمان ، ولعبوا دوراً فاعلاً ومؤثراً في الأحداث التاريخية التي شهدتها قبل انفصالهم عنها ، وإقامة دولتهم المستقلة في ساحل عُمان عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م. وكانوا طرفاً رئيسياً في المعادلة السياسية العمانية ، وتمكن شيوخهم من التعايش مع نظام الإمامة الإباضية العمانية ، وكان لهم شرف المشاركة الحقيقية في الدفاع عن عُمان ضدّ الأخطار الخارجية بدليل مساهمتهم الكبيرة في طرد البرتغاليين من السواحل العمانية في عهد اليعاربة . كما وجدوا أنفسهم في وسط دوامة الحرب الأهلية المدمرة التي عصفت بعمان في أواخر عهد اليعاربة (١١٣٣ - ١١٥٤هـ / ١٧٢١ - ١٧٤١م) ، وشكلوا قوّة سياسية وعسكرية لها وزنها الثقيل وسط الحزب الغافري وبخاصة لدى مبايعة محمد بن ناصر الغافري إماماً على عُمان .

٢- كانت للتجربة السياسية المميزة التي خاضها اليعاربة في عُمان في عصر قوتهم والمكاسب السياسية والعسكرية والاقتصادية التي حققوها منذ قيام دولة اليعاربة في عام ١٦٢٤م، وحتى بداية الحرب الأهلية العمانية في عام ١١٣٣هـ / ١٧٢١م عظيم الأثر في رسم مستقبل القواسم والقبائل التي تحالفت معهم في ساحل عُمان ، ففي الوقت الذي فهم فيه القواسم أهمية امتلاك عناصر القوّة (السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية) في لعب دور محلي وإقليمي في منطقة الخليج العربي أدركوا مدى خطورة الصراع القديم والمتجدد بين تيار الإمامة الإباضية من جهة وتيار الملوك الجبابرة من جهة أخرى على وحدة الدولة العمانية واستقرارها ، وبالتالي تولدت لديهم الرغبة في الابتعاد عن هذا

الصراع، والانفصال بساحل عُمان ، وإقامة دولتهم المستقلة فيه على يد زعيمهم رحمة بن مطر القاسمي في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م مستغلين ظروف سقوط دولة اليعاربة وقيام دولة البوسعيدية .

الفصل الثالث

القواسم وعلاقتهم الإقليمية (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)

القواسم وعلاقتهم الإقليمية (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)

ظهر القواسم كقوة بحرية خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، واتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لمد نفوذهم في الخليج العربي، واستطاعوا بسط سلطانهم على ساحل عمان بين قطر وخورفكان ، الأمر الذي جعلهم يسهمون في بناء تاريخ المنطقة ، لاسيما حين انتهزوا فرصة الغزو الأفغاني لبلاد فارس في عام ١١٣٤هـ / ١٧٢٢م ، واستولوا على جزيرة قشم في الخليج العربي، كما كان لهم دور مؤثر في الصراع الذي دار في عمان بين الغافرية والهنأوية ، حين وقف زعيم القواسم الشيخ رحمه بن مطر القاسمي إلى جانب محمد بن ناصر الغافري ضد خلف بن مبارك الهناوي.^(١)

وما أن أشرف القرن الثامن عشر الميلادي على الانتهاء ، حتى أصبحت البحرية القاسمية المنافسة الأولى للبحرية العمانية، التي كانت تعدُّ أقوى قوة بحرية آنذاك ، في الخليج العربي والمحيط الهندي ، وقد ساعدت الظروف المحلية والدولية وانعكاساتها في منطقة الخليج العربي ، على اشتداد شوكة القواسم في هذه الحقبة الزمنية ، حيث انضوى تحت لوأهم قبائل عديدة ، نذكر منها :

آل علي : يقيمون في مدينتي رأس الخيمة والشارقة بصورة رئيسية ، كما يقيم عدد منهم في أم القيوين ، وإليهم تنتمي الأسرة الحاكمة فيها حالياً ، ويعملون بالزراعة والصيد البحري.^(٢)

العبادلة : يقيمون في الشارقة في منطقة الجبال وفي سهل الباطنة ، ويعملون بالزراعة والصيد البحري.

المهرة : يقيمون في مدينة رأس الخيمة، ويكادون ينصرفون كلياً إلى الصيد البحري.
النقبويون : يقيمون في سهل الحصوي الداخلي ضمن إمارتي الشارقة ورأس الخيمة ، ويعملون في الزراعة.

(١) حلف القواسم : من الإمارات المتصالحة إلى الإمارات العربية المتحدة ، مركز الوثائق والبحوث ، أبو ظبي ، ص ٢٧٥ .

(٢) (السالمي ، نور الدين عبد الله بن حميد : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

آلبومهير : يقيم أفراد هذه القبيلة في جميع المدن الساحلية بين دبي ورأس الخيمة . ويعمل معظمهم بالصيد البحري ، إلا أن أعداداً قليلة منهم يعملون بالرعي ، وهم أنصاف مستقرين .

المزاريع : يقيم أفراد هذه القبيلة في وادي حام، وفي رأس الخيمة، وفي سهل الباطنة ، كما يتواجدون في دبي ويعملون بالزراعة والصيد البحري ، إلا أنهم يمارسون حياة الترحال ضمن دبي.

المرر : يتواجد أبناء هذه القبيلة في مدينة الشارقة بصورة رئيسية ، غير أن عدداً منهم يقيمون أيضاً في مدينتي دبي وأبو ظبي، وقد اشتهر أفرادها منذ القدم باستخراج اللؤلؤ والصيد البحري.

الهولة : يقيمون في مدينة الشارقة ، ويُعتقد أنهم من قبيلة الهولة الكبيرة التي تقطن الجزء الإيراني من ساحل الخليج العربي الشمالي ، ويعملون بالصيد البحري . **الشويهيون :** يقيمون في الشارقة بصورة رئيسية ، وفي مدينة دبي ، وهم يعملون بالصيد البحري ، ويرتبطون بقبيلة بني قتب.

آل زعاب : يقيم أفراد هذه القبيلة بصورة رئيسية في جزيرة الحمراء، وفي مدينة كلبا ضمن إمارتي الشارقة ورأس الخيمة ، وهي من العشائر المستقرة التي يعمل أفرادها بصورة خاصة بزراعة بساتين النخيل .

بنو شميلي : يقيمون في مدينة رأس الخيمة ، ويعملون بالزراعة والصيد البحري ، غير أن عدداً قليلاً منهم يعمل بالرعي، ولا سيما في المنطقة الجبلية . **الطنيج :** يتواجدون بصورة رئيسية في الشارقة ، ولا سيما في قرية الحميرية ، وفي قرى الذيد ورمس ، وغالبيتهم مستقرون ، ويعملون بالزراعة ، غير أن عدداً غير قليل منهم رعاة متجولون .

بنو قتب : يتوزع أفراد هذه القبيلة في مناطق سهل الظاهرة ضمن إمارة الشارقة ، وفي جنوب واحة البريمي ، وفي عمان ، وهناك عدد كبير من أفرادها يعملون رعاة متجولين ، غير أن نصف أفرادها تقريباً استقروا ، ويعملون بالزراعة ، وخاصة أولئك الذين يقيمون في منطقة الذيد .

الخواطر : يعدّون فرعاً من فروع القسم الجنوبي من قبيلة النعيم الكبيرة، والتي يتوزع أفرادها في منطقة الظاهرة، وفي واحة البريمي، ويمكن القول أن معظم أفراد الخواطر

استقروا، ولا سيما في رأس الخيمة ومنطقتي حيرة والذيد ، ويعملون بالصيد البحري والزراعة .

الحبوس : يقيم أفراد هذه القبيلة في المناطق الجبلية الشمالية من إمارة رأس الخيمة ، وهم مستقرون ، ويعملون بالزراعة وتربية قطعان الماعز والأبقار ، كما أن بعضهم يعمل بالصيد البحري ، غير أن عدداً قليلاً منهم لا يزالون رعاة .

الشحوح : يتوزعون في الجهات الجبلية من إمارة رأس الخيمة ، ويمارسون حياة الترحال وتربية الحيوان .

المطاريش : يقيمون في مدينة الشارقة ، وفي سهل الباطنة، حيث يعملون بالزراعة وبالصيد البحري .

الغلافه : يقيمون في رأس الخيمة وسهوبها الداخلية خاصة ، كما يتواجدون أيضاً في بعض مناطق إمارة أم القيوين ، ويعملون بالصيد البحري والزراعة. (١)

ويعود تشكيل اتحاد القواسم إلى مجموعة من العوامل ، أهمها :

١. فقدان القوة البحرية المتفوقة للبرتغاليين منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث أعقب انهيار النفوذ البرتغالي ظهور قوى أوروبية جديدة كالهولنديين والإنكليز والفرنسيين، إلا أن بعض هذه القوى لم يكن هدفها في البداية تأسيس إمبراطوريات على الطراز البرتغالي ، وإنما وجهت جلّ نشاطها نحو التجارة ، وأعلنت كسر الاحتكار البرتغالي ، وبذلك تركّ الباب مفتوحاً أمام القوى العربية النامية كالقواسم كي تمارس نشاطها البحري والتجاري بقوة في مياه الخليج العربي. لكنها بطبيعة الحال لم تستطع منافسة القوى الأوروبية الجديدة التي أصبحت تملك السفن الكبيرة والشركات الضخمة ، ووجهت نشاطها المعادي لها باعتبارها سبباً في حرمانها من موارد ثرواتها.
٢. انهيار دولة اليعاربة في عُمان في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، بعدما تمكنت في عصرها الذهبي أن تجمع القبائل العربية معاً للقضاء على النفوذ البرتغالي، وأعادت إلى عُمان وحدتها وتماسكها، إلا أنها تعرضت كما رأينا في أواخر أيامها للتمزق الداخلي ، وانقسمت قبائلها إلى حزبي الهناوية والغافرية. وعندما قامت دولة آلбусعيد بانتصار الحزب الهنائي ، أخذت المعارضة ضدّ الحكم الجديد تتجمع في المناطق الشمالية ذات الأصول العدنانية، مما كان سبباً في نشأة الاتحاد القاسمي .

(١) الجبوري ، عبد الكريم : القواسم ودورهم في مقاومة الاحتلال البريطاني للخليج العربي ، دار الطليعة الجديدة، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٥٠ - ٥١

٣. حالة الاضطراب والفوضى التي تعرضت لها بلاد فارس بعد اغتيال الشاه نادر في عام ١٧٤٧م ، ووقوع الأسطول الفارسي في أيدي القواسم ، حيث كان عدد كبير من بحارة القواسم يتولون قيادة هذا الأسطول منذ تأسيسه في عهد الشاه نادر ، بسبب جهل الفرس في قيادة الأسطول ، وخبرة العرب القديمة والواسعة في أمور ركوب البحر . (١)
أولاً : العلاقات بين القواسم وعمان (١١٥٤ - ١٢٣٥هـ / ١٧٤١ - ١٨٢٠م)
مرت العلاقات القاسمية - العمانية بالمراحل الثلاث التالية :

أ - المرحلة الأولى (١٧٤١م - ١٨٠٠م) : تولى مطر بن كايد زعامة القواسم في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ، وامتد نفوذه حتى جزيرة قشم ، وخلال ذلك تصاعد النشاط البحري للقواسم ، وبدأت علاقاتهم مع حكام مسقط ، الذين كانوا يتطلعون في الوقت نفسه للتفوق وبسط نفوذهم على الخليج العربي ، ويبدو أن العُمانيين كانوا يسعون إلى انتهاز فرصة تفوق القواسم والتحالف معهم لإضعاف القوى المحلية الأخرى في المنطقة .

وبناء عليه توثقت العلاقات القاسمية - العمانية لتحقيق الأهداف ذاتها ، فحينما طلب حاكم لنجة (٢) الشيخ قضيبي بن كايد القاسمي في عام ١١٢٧هـ / ١٧١٤م معاونة إمام عُمان سلطان بن سيف الثاني في تخليص مدينته من الفرس تحركت السفن العُمانية نحو الساحل الشرقي ، وقدمت الدعم والمساندة لقوات المقاومة القاسمية داخل البلدة ، وتمكن الحليفان من مهاجمة الحامية الفارسية ، مما أجبر أميرها " شجاع الدين العجمي " على الهرب نحو مقاطعة شيراز . (٣)

بعد إعلان القواسم استقلالهم عن عُمان على أثر سقوط دولة اليعاربة في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، تأثرت العلاقات القاسمية _ العُمانية بعوامل داخلية وخارجية بالنسبة لكلا الطرفين من جهة ، و ببعض القوى المحيطة بهما من جهة أخرى ، حيث أدت الحروب التي شهدتها عُمان في الآونة الأخيرة إلى اضطراب في علاقاتها الدولية، واستمر الحال كذلك إلى نهاية أربعينيات القرن الثامن عشر الميلادي، حين شرع الإمام أحمد بن سعيد

(١) قاسم ، جمال زكريا : الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٢٤٠ - ٢٤١
(٢) تقع لنجة وتسمى أيضاً بلنجة على الشاطئ الشرقي للخليج العربي في مواجهة رأس الخيمة تقريباً .
(٣) الحمدي ، صبري فالح : صفحات من تاريخ الخليج العربي الحديث ، دار الحكمة ، لندن ، ٢٠٠٢م ، دط ، ص ١٣٨ ، وأنظر أيضاً : حنظل ، فالح : المفصل في تاريخ الإمارات ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

آلبوسعيدي بإعادة بناء مؤسسات الدولة العُمانية، وإحياء علاقاتها التجارية الدولية، مستفيداً من خبرته الشخصية الطويلة في مجال التجارة. وأعاد بناء الأسطول البحري العماني، من أجل الدفاع عن المناطق التي كانت خاضعة لعمان على سواحل الخليج العربي وشرق إفريقيا، ولتأمين الملاحة في المحيط الهندي وبحر العرب. وقد دشّن الإمام أحمد فترته بتوقيع اتفاقية في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م مع الفرس للجلء عن صحار وبقية مناطق سهل الباطنة، ولم يبق للفرس من وجود في عُمان إلا في مسقط ، ومن أجل الضغط عليهم للخروج منها أيضاً قام بتحويل خط التجارة البحرية إلى بركة، مما أدى إلى انخفاض كبير في عوائد مسقط من الرسوم الجمركية لدرجة أن الحامية العسكرية الفارسية المتواجدة فيها لم تتمكن من تدبير المبالغ اللازمة لتأمين حاجات جنودها اليومية ، مما اضطرهم إلى الرحيل عن المدينة .

التفت الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيدي بعد ذلك إلى توحيد الصف الداخلي ، فقد واجه خلال مسيرة توحيد البلاد الكثير من المتاعب والمشكلات ، حيث شكل قيام الدولة الجديدة انقلاباً سياسياً في عُمان لم يرض عنه بنو غافر وحلفاؤهم من القواسم والنعيم ، ووصل الأمر بالشيخ (رحمة بن مطر القاسمي) إلى حد الاعتصام ، ورفع راية العصيان ضدّ الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيدي في جلفار ، وأعلن انفصاله رسمياً عن عُمان في أعقاب انهيار دولة اليعاربة في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م ، مستغلاً اعتراف الشاه نادر به حاكماً على جلفار (رأس الخيمة) منذ عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م ، فقرر الإمام أحمد بن سعيد الاعتراف بسلطته مؤقتاً تجنباً لإراقة الدماء .

في تلك الأثناء أراد الشيخ رحمة بن مطر القاسمي تثبيت وجوده في منطقة الشميالية ومنطقة خورفكان ، وما جاورهما من المناطق المطلة على خليج عمان ، وحدث الاحتكاك الأول بين القواسم والوحدات العسكرية العُمانية حول مدينة البثنة في عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م ، ودخل الطرفان في معركة كبيرة خسرها فيها عدداً كبيراً من خيرة مقاتليهما ، وعجز كل منهما عن حسم المعركة لصالحه ، وانتهت معركة البثنة بالتعادل بين القوتين القاسمية والعمانية ، وانسحبت قوات الطرفين من ساحة القتال وهي بحالة فوضى واضطراب إلى معسكراتها ، دون أن يحقق أي طرف النصر على الطرف الآخر^(١).

(١) الحمدي ، صبري فالح: المرجع نفسه ، ص ١٩٢ .

بعد معركتي فرق في عام ١٧٤١م والبننة في عام ١٧٤٩م قرر الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد استعمل الحكمة مع المعارضة الغافرية ، فعقد صلحاً مع الزعيم الغافري ناصر بن محمد بن ناصر الغافري ، وتزوج من أخته^(١) ، مما هدأ الأجواء السياسية في عُمان بشكل ملحوظ ، وفتح الطريق أمام عودة العناصر العربية من الساحل الفارسي إلى الساحل العربي، وشهدت موانئ بلنجة هجرة عربية واسعة ، كما هاجر عدد كبير من بني علي من سكان جزيرة قيس إلى ساحل عُمان، كما أتاحت الأجواء السياسية الجديدة في داخلية عُمان للحكام القواسم الفرصة لبناء قوتهم البحرية والعسكرية بشكل أفضل ، بينما كانوا في وضع المترقب للأحداث في بلاد فارس ، لكن ذلك لا يعني أن الإمام أحمد بن سعيد بعد مهادنته للغوافر قد أنهى الصراع معهم ، خاصة وأنه لم يتمكن بعد من بسط سيطرته الكاملة على عُمان .

كان الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد يتخوف كثيراً من احتمال التفوق البحري والبري للقواسم في جلفار، خاصة بعد أن وصلته أنباء الحصار القاسمي لجزيرة القشم والمعارك التي دارت بين القواسم وبني معين ، واحتمال قيام القواسم باحتلال الجزيرة، فوجه كتاباً إلى الشيخ عبد الله المعيني حاكم جزيرة القشم يعرض عليه حمايته من القواسم ، وكتب إلى ناصر خان في بندر عباس يعرض عليه عقد حلف لمواجهة القواسم مع الملا علي شاه.^(٢)

من ناحية أخرى أحكم الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد السيطرة على رأس مسندم ، المنطقة التي تسيطر على مدخل الخليج من الجانب العربي ، وبخاصة منطقتي (خصب وكمرازي)، اللتان تقطنهما قبيلة الشحوح الجبلية ، التي فرقها النزاعات السياسية ، فهي تارة مع الحزب الغافري ، وتارة أخرى مع الحزب الهناوي ، إلا أنها استقرت أخيراً على موالاته الحزب الهنائي المؤيد للإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد .

(١) ناصر بن محمد بن ناصر الغافري : وهو ابن الإمام محمد بن ناصر الغافري ، ويعُدُّ داهية زمانه ، ولاه أئمة اليعاربة إمارة البحرين ، ظل فيها رديحاً من الزمن ، وازدهرت في زمانه ، ثم رجع إلى عُمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد ، وتزعم في عهده الظاهرة ، فكان له فيها نفوذ الحاكم المطلق ، وبني إذ ذاك حصن " العينين " الشهير الأمر الذي دعاه أن يقود حملة تمرد ضدَّ الإمام ، ف وقعت بين الرجلين صدامات عنيفة ، كانت حادثة منطقة " سيح الطيب " أعنفها ، أنظر : ابن رزيق ، حميد بن محمد : *الصحيفة القحطانية* ، تحقيق : السليمي ، محمود بن مبارك ، و صالح ، محمد حبيب ، و الغازي ، علال الصديق ، وزارة التراث والثقافة ، مسقط ، ط ١ ، ٢٠٠٩م ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ .

(٢) قاسم ، جمال زكريا : *الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول* ، ص ٢٧٤ .

في عام ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م اشتعلت نار الحرب بين الإمام أحمد بن سعيد والقواسم، فبعد أن أتم الإمام استعداداته السياسية بعقد حلف مع بني معين في جزيرة القشم، ومع ناصر خان حاكم لار، قرر السيطرة على إمارة القواسم المتنامية، بمهاجمتها من جهة البحر، فحشد أسطوله في مسقط لتحقيق هذا الهدف، وكانت الخطة تقضي أن يتوجه الأسطول الحربي العماني نحو رأس مسندم، ثم يستدير نحو مياه الخليج العربي لمهاجمة القواعد القاسمية في رأس الخيمة وغيرها. وبعد الانتهاء من إعداد الحملة تولى الإمام القيادة بنفسه يعاونه القائد خلفان بن محمد آلبوسعيدي والي مسقط، وتوجهت الحملة نحو مناطق رؤوس الجبال، وأنزلت بعض القطع العسكرية في منطقة (خصب)، دون أن تواجه أي مقاومة تذكر من الشحوح هناك، حتى أن الشيخ

حسن الشحي كان يرغب بالانضمام إلى قوات الإمام أحمد بن سعيد آلبوسعيدي .^(١) غير أن تطورات الأحداث الداخلية في عُمان سارت في غير مصلحة الإمام أحمد، واضطر إلى العودة إلى مسقط لمعالجة بعض الاضطرابات الداخلية هناك كدرجة بعض الولاة بالانفصال التام عن الدولة، كما عاد معه القائد خلفان بن محمد، وقبيل عودته أسند القيادة إلى القائد علي بن سيف، وأمره بالتوجه بأسطول مكون من أربع عشرة سفينة حربية إلى رأس الخيمة، إلا أن علي بن سيف جوبه بمقاومة عنيفة من القواعد القاسمية في موانئ الجزيرة الحمراء، عندها حاول الالتفاف بعيداً لمهاجمة الشارقة، لكن المدافعين عنها أبدوا مقاومة ضارية أيضاً في بلدة (فشت) الساحلية قرب الشارقة، فاضطر للعودة إلى رأس الخيمة، وفرض عليها حصاراً استمر قرابة العام.^(٢)

دفع ذلك الحصار القواسم في عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٣م في عهد زعيمهم راشد بن مطر (١١٧٣-١١٩١هـ / ١٧٦٠ - ١٧٧٧م) إلى إرسال حملة انتقامية وصلت إلى مدينة الرستاق عاصمة الإمام أحمد بن سعيد. وفي نهاية في عام ١٧٦٣م توجه صقر بن راشد، برفقة عمه عبد الله بن مطر، ومحمد بن علي، إلى الرستاق، من أجل تسوية الخلافات بين الجانبين، وتمّ التوصل إلى اتفاق يقضي برفع الحصار عن موانئ القواسم، وسحب الأسطول العماني، وبذلك وافق الإمام أحمد على الاعتراف باستقلال القواسم بمقاطعاتهم في عام ١١٧٨هـ / ١٧٦٥م^(٣)، إلا أن هذا الاعتراف لا يعني أن

(١) العابد، صالح: دور القواسم في الخليج العربي، ص ٩١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢.

(٣) قاسم، جمال زكريا: الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول، ص ٢٧٠.

القواسم كانوا حتى عام ١٧٦٥م تحت التبعية العُمانية ، بل كانوا قد حققوا استقلالهم عن عمان، وأصبحوا كياناً سياسياً مستقلاً منذ عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م .

في بداية سبعينيات القرن الثامن عشر الميلادي دخلت العلاقات القاسمية - العُمانية مرحلة جديدة قوامها التلاحم والتكاتف لمواجهة تهديدات كريم زند خان (١١٦٩ - ١١٩٣هـ / ١٧٥٦ - ١٧٧٩) للساحل الغربي من الخليج العربي ، فقد طلب حاكم لنجة العربي الشيخ سعيد بن قضيبي القاسمي في عام ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م مساعدة شيخ رأس الخيمة ، الذي طلب بدوره مساندة إمام عُمان أحمد بن سعيد آلْبوسعيد ، فتحركت القوات العمانية بقيادة خلفان بن محمد لنجة القواسم ، وتمكنت من طرد القوات الفارسية من لنجة ، كما هاجمت قوات القواسم والقوات العمانية المتحالفة معها ميناء بندر عباس ، ودمرتا عدداً من السفن الفارسية ومستودعاً حربياً كان قد أنشأه الفرس في ميناء لنجة ، وبذلك نجح هذا الجمع المتحالف من تحرير مناطق مهمة في الخليج العربي من السيطرة الفارسية . (١)

غير أن هذا التحالف لم يلبث أن انهار في عام ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م ، بسبب الدسائس التي كانت تحاك بين الطرفين من قبل الفرس، إذ وجد الفرس أنه من مصلحتهم عدم استمرار التحالف بين القواسم وعُمان ، مما سيؤدي مستقبلاً إلى تهديد بلادهم ، وتجددت المواجهات العسكرية بين الطرفين القاسمي والعُماني، واعتمد شيخ رأس الخيمة على مطاردة السفن العمانية ومصادرتها، ولم يتردد أيضاً من مهاجمة بعض سفن بوشهر والاستيلاء عليها ، معللاً ذلك بأنها كانت تحمل شحنات خاصة للإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد . (٢)

إلا أن هذه الحرب توقفت لفترة وجيزة من الزمن بعد استقالة الشيخ راشد من زعامة القواسم بسبب تقدمه بالسن في عام ١١٩١هـ / ١٧٧٧م ، حيث تولى ولده صقر بن راشد (١١٩١ - ١٢١٧هـ / ١٧٧٧ - ١٨٠٣) ، الحكم من بعده ، فاتبع سياسة المهادنة مع أعدائه ، وشهدت العلاقات القاسمية - العُمانية حالة من الهدوء والاستقرار، خاصة في أول أيام حكمه. (٣)

(١) الحمدي ، صبري فالح : المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .
(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ٩٥ .
(٣) حنظل ، فالح : المرجع نفسه ، ص ٢٣٢ .

إلا أنّ هذا الهدوء ما لبث أن انتهى بعد فترة قصيرة ، وتجددت حالة التوتر في العلاقات القاسمية - العُمانية . وقد أدى ذلك إلى اندلاع الحرب بين رأس الخيمة ومسقط ، فقد دفع الخطر القاسمي المتزايد الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي إلى القيام بحملة بحرية كبيرة ضد القواسم، حيث توجه أسطول عُماني مؤلف من اثنتي عشرة سفينة حربية كبيرة ومائة سفينة صغيرة إلى رأس الخيمة ، غير أن السفن الكبيرة لم تتمكن من الاقتراب من الساحل ، وتوقفت على بعد ميلين عن المدينة بسبب ضحالة المياه قرب ساحلها ، وكانت نتيجة ذلك انسحاب الحملة العسكرية بعد أن فشلت في تحقيق أهدافها.(١)

رد الشيخ صقر بن راشد على الحملة بهجوم مضاد ، وزحف على رأس قوة كبيرة إلى الباطنة ، وحاصر الرستاق عاصمة إمارة عُمان آنذاك، لكنه لم يتمكن من تحقيق أية نتائج تذكر بسبب المقاومة التي أبدتها المدافعون عنها، فعاد إلى رأس الخيمة . كما استغل القواسم الظروف الداخلية في عُمان أثناء الخلاف الذي وقع بين الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي وولديه (سيف ، وسلطان) حيث تمكنوا من السيطرة على مسقط وعلى قلعتها (الجلالي والميراني) ، واضطر الإمام أحمد بن سعيد إلى الزحف نحو مسقط لاستعادتها من ولديه، فطلب الأخوان سيف وسلطان المساعدة العسكرية من زعيم القواسم الشيخ صقر بن راشد القاسمي ضدّ والدهما الإمام أحمد بن سعيد، ونجح الشيخ صقر بن راشد بمعاونة الزعيم الغافري ناصر بن محمد في محاصرة الرستاق العاصمة سنة ١١٩١هـ / ١٧٧٧م (٢)، فأصبح الموقف حرجاً في عُمان إلى حدّ تبين فيه لأبناء الإمام أحمد أن نزاعهم مع أبيهما سيؤدي أخيراً إلى القضاء على حكم الأسرة البوسعيدية، فقرروا فضّ الخلاف معه ، وسلموا له الحصن الغربي في مسقط ، واحتفظوا بالحصن الشرقي ، وما أن انتشر خبر الصلح بين أفراد العائلة البوسعيدية حتى بادر الشيخ صقر بن راشد وحليفه ناصر بن محمد الغافري إلى فك الحصار عن الرستاق ،

(1) Miles , Samuel : Op -Cit , p . 278.

(٢) عبد الله ، محمد مرسي : إمارات الساحل وعُمان والدولة السعودية الأولى، ص ٧٢ - ٧٤ . وأنظر أيضاً : ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٣٣٤ .

وتمت المصالحة بين القواسم والإمام أحمد بن سعيد، وانسحب الشيخ صقر بقواته عائداً إلى رأس الخيمة . (١)

في عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م قام الأخوان سيف وسلطان بعصيان آخر ضدّ والدهما الإمام أحمد بن سعيد، أسرا فيه أخاهما سعيد وأخذه رهينة ، فحاصروهم الإمام أحمد في قلعة (الجلاي) وقام بقصف مواقعهم بالمدافع، غير أن هذا التمرد باء بالفشل ، ولم يسفر عنه شيء حاسم .

بعد وفاة الإمام أحمد بن سعيد في عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ، تولى ابنه سعيد بن أحمد الإمامة (١١٩٢ - ١٢٠٦هـ / ١٧٧٨ - ١٧٩٢م) ، وهو ما أثار معارضة أخويه سيف وسلطان ، اللذان طلبا العون من الشيخ صقر بن راشد القاسمي ، الذي وجد في ذلك فرصة للتدخل بشؤون عُمان الداخلية، وبالتالي شكل هذا الأمر استمراراً لحالة الحرب القائمة بينهم وبين حكام آلْبوسعيد. فقد أدى ضعف الإمام الجديد ، وسوء سياسته ، وعدم كفاءته ، إلى وقوع البلاد في حالة من الاضطراب والفوضى ، وأدرك أخواه سيف وسلطان ، الخطر من بقاءه في الحكم ، فقررا الاستعانة بالشيخ صقر بن راشد القاسمي من أجل إقصائه عن السلطة، فقام الشيخ صقر في عام ١١٩٨هـ / ١٧٨٤م بمهاجمة السواحل العُمانية، وثبت قبضته على موانئها الشمالية ، وجعلها قاعدة انطلاق للإغارة على السواحل العمانية، عبر رقبة شبه جزيرة مسندم على ساحل عُمان، فسارع الإمام سعيد لمواجهة الموقف، وجرّت معارك عنيفة بين الطرفين في البر والبحر ، لم يستطع فيها أي من الفريقين تحقيق نجاح ملموسٍ على الآخر، كما أخفقت جهود الشيخ صقر بن راشد القاسمي في إقصاء الإمام سعيد بن أحمد عن السلطة ، وتعيين أخيه سيف مكانه. (٢)

بعد المواجهات العسكرية الدامية أدرك الأخوان سيف وسلطان أن عليهما مغادرة عُمان، فتوجه سلطان إلى جوارر على ساحل مكران سنة ١١٩٨هـ / ١٧٨٤م ، ونزل ضيفاً على ناصر خان ، حاكم كلات ، حيث رحب به ، ومنحه حمايته ، وأعطاه مدينة وميناء جوارر كإقطاعه يحتفظ بنصف مواردها ، فاتخذها سلطان بن الإمام أحمد قاعدة

(١) ويلسون ، آرنولدت : المصدر نفسه ، ص ٣٣١ ، وأنظر : السيابي ، سالم بن حمود : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، ص ١٧٩ .

(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ٩٩ .

لمواصلة صراعه ضد أخيه الإمام سعيد بن أحمد من وقتٍ لآخر ، (١) أما سيف فقد غادر إلى شرق إفريقيا ، على أمل الاستقلال بحكمها بصورة منفصلة عن عُمان ، لكنه توفي بعد وصوله إلى أرض لآمو .

لقد أثبتت هذه الأحداث عجز الإمام سعيد بن أحمد عن إدارة شؤون عُمان وتزايد عزلته ، وتعرض للعزل مرتين من جانب أخيه قيس بن أحمد ، حاكم صحار ، مما اضطره إلى التنازل عن صلاحياته الإدارية والسياسية لابنه حمد بن سعيد في أواخر سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٦م ، فجعل حمد من مسقط قاعدة لحكمه ، في حين أقام والده في الرستاق حتى وفاته في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م . (٢)

ازداد نشاط القواسم البحري في تلك الفترة ، وتجددت الحرب بين القواسم وعُمان ، حيث أعد حمد بن سعيد آلْبوسعيد حملة عسكرية كبرى ، برية وبحرية ضد القواسم ، في عام ١٢٠٠هـ / ١٧٨٦م ، قادها بنفسه ، في حين تولى قيادة الأسطول البحري محمد بن خلفان ، الذي تمكن من تحقيق انتصار كبير على القواسم ، وأعاد السيطرة على خورفكان وجزيرة الحمرا ، وفرض الحصار على رامس ، إلا أن اضطراب الأوضاع الداخلية مجدداً في عُمان ، أجبرت حمد بن سعيد على التوقف عن مواصلة حملته ضد القواسم ، وعاد إلى بلاده ، تاركاً الأسطول يواصل العمليات الحربية ضد رأس الخيمة ، غير أن الأسطول العماني لم يتمكن من تحقيق نجاح يذكر . كما عاد عمه سلطان بن أحمد آلْبوسعيد إلى عُمان من جواد ، مستنداً على دعم القبائل الغافرية ، مما اضطر حمد بن سعيد إلى تجريد حملة عسكرية لصدّه ، إلا أنه لم تقع مواجهات بين الفريقين ، وانسحب حمد إلى الرستاق . (٣)

توفي حمد بن سعيد في مسقط عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م بسبب إصابته بمرض الجدري ، فسارع والده الإمام سعيد إلى استعادة سلطته ، وولى ابن أخيه علي بن هلال بن الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيد على بركاء ، ومضى هو إلى الرستاق ، الأمر الذي فسح المجال أمام سلطان بن أحمد ، لبسط سلطته على عمان بعدما أدرك أن وفاة ابن أخيه حمد بن سعيد جعلت الأحداث تسير في صالحه ، فسارع إلى انتهاز الفرصة لتحقيق طموحاته ، وبدعم من الغافرية تمكن من الاستيلاء على بركة ومسقط ، واستعد

(1) Miles, Samuel : Op – Cit , p 282.

(٢) العابد ، صالح : المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

(3) Miles, Samuel : Op – Cit , p . 284 – 5.

لمواجهة أخويه ومنافسيه (قيس وسعيد)، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين دون أن يحسم الأمر لأي منهما ، وفي نهاية العام ، عقد مؤتمر في بركا ، تم التوصل فيه إلى تسوية بين المتنازعين ، احتفظ بموجبها سعيد بالإمامة في الرستاق كزعيم ديني للشعب العُماني ، وبقي قيس بن أحمد البوسعيدي حاكماً على صحار ، وتولى السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي قيادة السلطة السياسية في البلاد .^(١) وبدأ عهد جديد من تاريخ عُمان السياسي عرف باسم عهد السادة أو السلاطين .

تُعدّ فترة حكم السيّد سلطان بن أحمد (١٢٠٦-١٢١٨هـ / ١٧٩٢ - ١٨٠٤م) بداية العصر الذهبي للأسرة البوسعيدية، وهيبتها ، فقد أولى اهتماماً كبيراً لإعادة بناء القوة العسكرية البحرية العُمانية ، وسعى جاهداً إلى فرض سيطرته على حركة السفن العربية الداخلة إلى الخليج العربي والخارجة منه، غير أن ذلك زاد من حالة التوتر والعداء بينه وبين القواسم على وجه الخصوص ، واستمرت المواجهات العسكرية معهم طيلة في عام ١٢١١هـ / ١٧٩٧م.

في عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م عقد السيد سلطان صلحاً مع الشيخ صقر بن راشد القاسمي لتعزيز موقفه في مطالبة السلطة العثمانية في البصرة بالحقوق المالية المترتبة عليها، مقابل الخدمات التي قدمها والده الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي للبصرة أثناء حصارها من قبل القوات الفارسية ، وحاول الاستعانة بقوة القواسم البحرية من أجل ضمان نجاح مهمته ، فاضطر والي البصرة إلى تسوية خلافاته مع مسقط منعاً للمواجهة العسكرية ، وعادت الخلافات من جديد إلى العلاقات القاسمية - العمانية ، وتجددت المواجهات الدموية بين الطرفين ، وشن السيد سلطان بن أحمد هجوماً بحرياً على دبي ، فتصدى له أهالي الشارقة ، وألحقوا بقواته خسائر كبيرة .^(٢)

ب - المرحلة الثانية (١٢١٤ - ١٢١٨هـ / ١٨٠٠ - ١٨٠٤م)

ظهر الصراع بين القواسم والدولة البوسعيدية على أشده في عهد السيد سلطان بن أحمد بن سعيد البوسعيدي (١٢٠٦-١٢١٩هـ / ١٧٩٢-١٨٠٤م)، والذي دخل في صراعات خطيرة مع القواسم ، وشهدت الفترة بين عامي ١٢١٢ - ١٢٢٠هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠٥م وقوع مواجهات بحرية في الخليج العربي ، تمكن القواسم فيها من تحقيق مكاسب جديدة

(1) Kelly , John : *A Prevalence of furies: Tribes politics, and religion in Oman & in the Arabian peninsula society and politics* , 1st ed. Hopwood, London 1972, p. 108

(٢) (السيابي ، سالم بن حمود : *إيضاح المعالم* ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

في صراعهم السياسي والعسكري مع الدولة آلْبوسعيدية ، ونجحوا في انتزاع جزيرة قشم من السيطرة العمانية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وأقاموا مركزاً تجارياً في ميناء باسيدو بالجزيرة ، وشكل ذلك تحدياً كبيراً للسيادة البحرية العُمانية في الخليج العربي . (١)

بعد اعتناق القواسم المذهب الوهابي السلفي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، أصبح السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيد في وضع لا يحسد عليه ، وشارك القواسم في أول هجوم وهابي كبير على عُمان في بداية في عام ١٢١٤هـ / ١٨٠٠م ، وتمكنت الحملة العسكرية الوهابية - القاسمية من الوصول إلى واحة البريمي ، وطلب القائد الوهابي سالم الحارق من السيد سلطان بن أحمد قبول المبادئ الوهابية ، والتخلي عن المذهب الإباضي ، والاعتراف بسلطة الأمير عبد العزيز الروحية والزمنية في الدرعية، فسارع السيد سلطان بن أحمد إلى عقد هدنة مع زعيم القواسم صقر بن راشد (١٧٧٧ - ١٨٠٣م) من أجل أن يتفرغ لمواجهة الوهابيين، فكان له ما أراد ، وتوجه على رأس حملة عسكرية تساعده قوات أخيه قيس بن أحمد آلْبوسعيد حاكم صحار ، فلجأ القائد الوهابي إلى رأس الخيمة طالباً مؤازرة القواسم ، فنقضوا الهدنة مع السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيد ، وانضموا إلى قوات سالم الحارق ، إلا أن القوات العمانية قطعت الطريق على الجيش الوهابي - القاسمي الذي اضطر إلى التراجع باتجاه البريمي، فقرر الشيخ صقر بن راشد القاسمي عقد صلح آخر مع السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيد ، والذي وافق عليه بدوره ، لأنه يمنحه فرصة ذهبية لمواجهة القوات الوهابية. (٢)

في وقت لاحق حاول السيد سلطان الاستعانة بالقواسم في هجماته المتتالية على شهباز ومكران وقشم والبحرين ، حيث تمكن من السيطرة على البحرين ، وعين سيف بن علي بن محمد آلْبوسعيد حاكماً عليها ، ثم عزله ، وعين سالم بن سلطان ، إلا أن الحامية العُمانية التي تركها في الجزيرة ، بدت عاجزة عن الدفاع عنها ، وتم طردها من البحرين من قبل آل خليفة وبمساعدة الوهابيين .

(1) Hopkins, Johns: *The Persian Gulf States*, 1st Ed , London , 1981.p 45.

(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ١٥٩ .

في عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م حاول السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي الاستعانة بالقواسم في هجومه على الزبارة، غير أن محاولته باءت بالفشل ، لأن القواسم وجدوا أن سيطرة السيد سلطان بن أحمد عليها ستؤدي إلى توسيع حدود عُمان وتوطيد سلطته، مما سيعرضهم بالتالي للخطر المباشر.^(١)

أدت السياسة التي اتبعها السيد سلطان بن أحمد في الخليج العربي ، إلى تفوق البحرية القاسمية إلى درجة أصبح القواسم يهددون بقوتهم البحرية مسقط بذاتها ، بعد الخسائر العسكرية الكبيرة التي مني بها العمانيون ، وبخاصة في مجال القوة البحرية . غير أن اغتيال الأمير عبد العزيز آل سعود في الدرعية في الثامن عشر من جمادى الآخرة ١٢١٨هـ / الرابع من تشرين الأول ١٨٠٣م جعل تطورات الأحداث السياسية والعسكرية في الخليج العربي تسير بالشكل الذي يخدم المصالح العمانية، فقد سارعت القوات الوهابية إلى الانسحاب من البريمي ، فقرر السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي القضاء نهائياً على التهديد الوهابي لعُمان ، وتحطيم حلفائهم القواسم ، بالاعتماد على حليف قوي ، فكان تحالفه مع البريطانيين والعثمانيين لتحقيق هذا الهدف، في وقت كان يدرك فيه جيداً أن بريطانيا تسعى إلى القضاء على قوة القواسم البحرية المتحالفة مع الوهابية ، بعدما غدت تشكل خطراً كبيراً على المصالح التجارية البريطانية في الخليج العربي ، وبعد أن أصبحت الدعوة الوهابية تهدد حتى كيان الدولة العثمانية وولاياتها في المشرق العربي والخليج العربي كله ، وبالتالي تلاقت مصالح الدول الثلاث : عُمان ، وبريطانيا ، والدولة العثمانية حول هدف واحد هو القضاء على القوة الوهابية - القاسمية في الجزيرة العربية .

في سياق تنفيذ الاتفاق الضمني بين الدول الثلاث وجه السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ - ١٢٢٣هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٨م) أوامره إلى والي بغداد ودمشق في أواخر عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م بإعداد حملة عسكرية مشتركة ضد الدولة الوهابية ، فانتهز السيد سلطان بن أحمد الفرصة ، وأبحر على رأس أسطوله المكون من أربع عشرة سفينة حربية نحو مدينة البصرة ، لالتحاق بقوات والي بغداد ، ولدى وصوله إليها فوجئ بعدم استعداد السلطات العثمانية في العراق للقيام بتلك الحملة بسبب قيام الأكراد بشن هجوم داخل العراق بدعم من الدولة الفارسية ، فاضطر والي بغداد إلى التفرغ

(١) ابن رزيق ، حميد بن محمد: الفتح المبين ، ص ٣٧٨ .

لتأديب القبائل الكردية في العراق ، فقرر السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدي العودة إلى بلاده ، وأبحر من البصرة سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٤م ، وبالقرب من باسيديو عند نهاية

جزيرة قشم جرت مواجهة بحرية بينه وبين القواسم أدت إلى مصرعه .^(١)

لا بد من الإشارة هنا إلى وجود تضارب بين المؤرخين حول هوية المهاجمين ، وظروف اغتيال السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدي ، فبعضهم يعتقد أنهم كانوا من القواسم .^(٢)

والبعض الآخر يرى بأنه قتل على يد القواسم والعتوب معاً في عملية مشتركة .^(٣)

غير أن المؤرخ العماني الشهير ابن رزيق الذي عاصر تلك الفترة يروي بالتفصيل حادثة قتل السيد سلطان بن أحمد على يد القواسم ، الذين التقوا بسفينته صدفة في مياه الخليج العربي ، وحينما علموا بهوية بحارتها وبوجود السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدي على ظهرها استغلوا الفرصة للتخلص من عدوهم الخطير ، ويؤكد ابن رزيق في روايته على أن المهاجمين أبْقوا على حياة رجال السيد سلطان ، وأن السيد سلطان هو وحده من قتل بهذه الحادثة .^(٤)

يقول : (مكث في البصرة أياماً قلائل ، أي السيد سلطان بن أحمد ، ثم رجع بمركبه ، يريد مسقط ، فلما بلغ دون لنجة ، هبط من المركب إلى سفينة صغيرة تسمى البدري ، يريد أن يمضي خورته إلى البندر وهرمز ، وأمر على أهل مركبه أن يمكثوا فيه ، حتى يرجع ، فيهبط من البدري ، فيطلع في المركب ، فصادف بعد ما فارق المركب ثلاثة سفن للشويهييين ، وهم من أهل جلفار (رأس الخيمة) ، ولم يكن مع سلطان في سفينته البدري إلا عدد من عبيده وبعض الأحرار ، فسأل الشويهييون عن صاحب السفينة ، فأجابهم سلطان بنفسه : لسطان بن الإمام ، فاستقامت الحرب بين الطرفين من بعد صلاة الفجر ، وأحاط الشويهييون من أهل جلفار بالبدري ، وهجموا على من فيه ، فلما علموا بمقتل السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدي ، رفعوا السيف عن أصحابه ، وعادوا إلى بلدتهم .)^(٥)

(1) Miles, Samuel : Op – Cit , p , 303.

(2) Graham , S. Gerald: *Great Britain in the Indian Ocean 1810 – 1850* , Oxford 1967 p. 107

(3) Badger : Op – Cit , p 239.

(4) Badger : Op – Cit, P . 238-9 .

(٥) (ابن رزيق ، حميد بن محمد : *الصحيفة القحطانية* ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ .

كان لمصرع السيد سلطان بن أحمد ، نتائج مباشرة على الوضع الذي كان في الخليج العربي ، فقد حاول القواسم الاستيلاء على البحرية العُمانية ، وهاجموا بمشاركة بني معين قشم وهرمز ، في عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ، وواصلوا نشاطهم للاستيلاء على ميناء بندر عباس ، كما فرضوا الحصار على ميناب ، وبذلك أصبحوا سادة مضيق هرمز ، وبالتالي أصبح بمقدورهم مهاجمة أي سفينة تدخل إلى الخليج العربي أو تخرج منه ، كما نجح الشيخ ملا حسين المعيني شيخ قشم بالسيطرة على بندر عباس بمساعدة حسين بن رحمة أحد قادة القواسم . (١)

ج - المرحلة الثالثة (١٢١٨ - ١٢٣٥هـ / ١٨٠٤ - ١٨٢٠م)

أعقب مقتل السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدى تطورات كبيرة في الأوضاع الداخلية العُمانية ، كان لها التأثير الكبير على علاقة العمانيين بالقواسم ، فقد عين السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدى قبل ذهابه إلى البصرة ، محمد بن ناصر الجبري ، وصياً على ولديه سليم وسعيد ، وكلفه بتصرف أمور البلاد أثناء غيابه في البصرة. ولدى وصول أنباء مقتل السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيدى إلى مسقط ، قرر محمد بن ناصر الجبري القيام بعملية عسكرية للانتقام من القواسم ، وحملهم المسؤولية الكاملة عن مصرع السيد سلطان بن أحمد ، فأوكل إلى سعيد بن سلطان قيادة أسطول مؤلف من أربع سفن حربية ، لمهاجمة القواسم في قشم ، بالتزامن مع مهاجمة القوات البرية العمانية لرأس الخيمة ، غير أن محاولة قيس بن أحمد آلْبوسعيدى حاكم صحار (وعم سعيد وسليم ابنا سلطان) السيطرة على الحكم ، أجلت تلك الحملة ، فقد زحف قيس بقواته نحو مسقط ، واستولى على مطرح من دون مقاومة تذكر ، واندفع لحصار مسقط ، في وقت وصل فيه بدر بن سلطان آلْبوسعيدى من منفاه بالزبارة إلى مسقط ، (٢) بدعوة من محمد بن ناصر الجبري لمواجهة خطر قيس بن أحمد آلْبوسعيدى الذي حصل على تأييد القواسم الكامل ضد السيد بدر بن سلطان آلْبوسعيدى (٣) ، إذ لقيت هذه الدعوة استجابة منهم على أمل أن يحقق طموحاته في الوصول إلى الحكم ، كما استتجد بالدرعية ، التي بادرت إلى نجده ، فزحفت الحامية الوهابية التي كانت تتمركز في

(1) Hawley , Donald ,Op -Cit , p . p 99 – 100 .

(2) Miles, Samuel : Op – Cit , p 304 .

(٣) مختارات من الوثائق البريطانية ١٧٩٧ - ١٩٦٥م ، تحقيق عبد الله ، محمد مرسى ، ج ١ ، لندن للدراسات العربية ، ١٩٩٦م ، ص ٥٧ .

البريمي نحو صحار، وفرضت الحصار عليها ، كما أبحر أسطول حربي مكون من خمس عشرة سفينة حربية إلى مسقط بناء على أوامر سعود بن عبد العزيز، وبسبب هذا التطور أجبر قيس على رفع الحصار عن مسقط والعودة إلى صحار للدفاع عنها ضد الوهابيين ، ثم عقد صلحاً مع بدر ، لكنه نقضه بعد فترة قصيرة بدعم من القواسم ، وزحف إلى مطرح ، واستولى عليها مرة أخرى .^(١)

على أثر ذلك جاءت تعزيزات عسكرية وهابية عن طريق البحر من أجل وضع حد للصراع القائم ، مما أجبر قيس بن أحمد البوسعيدي على عقد الصلح مع السيد بدر وتسليم مطرح له باعتبارها حقاً من حقوق والده المكتسبة .

قرر السيد بدر بن سلطان البوسعيدي بعد تسوية مشكلاته الداخلية العمل على، استعادة بندر عباس من حلفاء القواسم ، بني معين ، وبدأ استعداداته للقيام بذلك منذ وصول سيتون (Seton)^(٢) إلى مسقط في عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ، والذي قرر المشاركة في تلك الحملة ، ويرافقه الطراد **Mornington** بالقرب من بندر عباس ، وبعد يوم من القصف المستمر استسلمت الحامية العسكرية المدفوعة عن بندر عباس ، وتم استرجاع ميناء بندر عباس وضواحيه ، وفرض حصار على بني معين في قشم ، فهرع القواسم لنجدة حلفائهم وفك الحصار عنهم ، وأرسلوا أسطولاً من ثلاثين سفينة نحو الجزيرة المحاصرة، لكن العمانيين والإنكليز نجحوا في محاصرة هذا الأسطول في ميناء قشم ، إلى أن تم الإعلان عن هدنة مدتها سبعة يوماً بين الطرفين^(٣)

أظهرت هذه الأحداث مدى اعتماد بدر بن سلطان البوسعيدي على الوهابيين ، وولدت حالة من الاستياء الكبير بين أبناء القبائل العمانية من الوجود الوهابي في عُمان، وظهر ذلك جلياً حتى بين البوسعيد أنفسهم ، فقد أدرك سعيد بن سلطان البوسعيدي مدى الخطر الوهابي على عُمان ، فتمكن بمعاونة محمد بن ناصر الجبري، من اغتيال السيد بدر في صيف ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م .^(٤)

(1) Kelly, John B. : *Britain and Persian Gulf 1795-1880*, Oxford 1968, p 107.

(٢) هو ديفيد سيتون المقيم البريطاني في مسقط وله يوميات كتبها في خط يده عن الأحداث التي جرت في الخليج العربي في عهده .

(3) Lorimer, G.J : Op Cit , Vol 1 A , p 181 .

(4) Miles, Samuel : Op – Cit , p 308 .

بعد أن تولى السيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيدى مقاليد الحكم في مسقط ، أرسل حملة عسكرية بقيادة الملا حسين ، وأمدّه بالمال والسلاح لاستعادة جزيرة القشم وجزيرة هرمز ، إلا أن قوة تابعة للقواسم في قشم هاجمت مدينة صور العمانية، لكنها جوبهت بمقاومة عنيفة من قبل المدافعين عنها، وأُجبرت على الانسحاب ، في الوقت الذي اتفق فيه السيد سعيد بن سلطان مع عمه قيس بن أحمد حاكم صحار على مهاجمة خورفكان ، ولتحقيق هذا الهدف تم إعداد حملتين عسكريتين لمهاجمة القواسم ، وقاد قيس بن أحمد الحملة العسكرية البرية ، في حين تولى السيد سعيد قيادة الحملة البحرية ، وتحولت خورفكان إلى مسرح للعمليات العسكرية التي دارت بين القواسم والعمانيين ، وبعد معارك دموية ضارية تمكن القواسم من الانتصار، وقتل قيس بن أحمد ، (١) في حين انسحبت بقية القوات إلى مسقط ، تحت قيادة السيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيدى .

دفعت الهزيمة التي حلت بالقوات العمانية السيد سعيد بن سلطان إلى توطيد علاقاته مع الإنكليز ، وبدأ يضع مخططاً للتخلص من القواسم والسعوديين معاً، وساهم العمانيون مساهمة فعالة في الحملة التي قامت بها بريطانيا ضد القواسم سنة ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م . وسط تلك الأحداث والتطورات قام السيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيدى بالاستعانة ببني ياس ، وعقد اجتماعاً مع شيخهم شخبوط في عام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م، حيث تردد زعيم بني ياس عن الهجوم على رأس الخيمة في البداية خوفاً من أن يشن القواسم هجوماً انتقامياً ضدّ بني ياس، إلا أن تطمينات السيد سعيد له بالوقوف إلى جانبه جعلته يوافق على مهاجمة القواسم . (٢)

بالمقابل أبدى شيوخ القبائل العربية على الساحل الشرقي للخليج العربي استعدادهم لمساعدة سلطان بن صقر القاسمي (١٢١٧ - ١٢٢٣هـ / ١٨٠٣ - ١٨٠٨م) الذي عزله السعوديون لأسباب سنورها في الفقرة التالية ، وأخذوه أسيراً إلى الدرعية ، وعينوا حسين بن علي مكانه (١٢٢٣ - ١٢٢٩هـ / ١٨٠٨ - ١٨١٤م) إلا أن سلطان هرب من الدرعية إلى مسقط ، ومنها إلى ساحل عُمان ، وتمكن من السيطرة على الشارقة بمساعدة حلفائه حكام مسقط وبني ياس ، والمستر بروس المقيم البريطاني في بوشهر، في الوقت الذي تمكن فيه السيد سعيد بن سلطان من عقد حلف مع الشيخ حسن

(١) السيادي ، سالم بن حمود : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، ص ٤٨ .

(2) Lorimer , G: Op – Cit, Vol.1A, p. 651.

بن رحمة (١٢٢٩ - ١٢٣٥هـ / ١٨١٤ - ١٨٢٠م)^(١)، الذي تضمن فصل مشيخة الشارقة عن رأس الخيمة ، وهكذا شهد في عام ١٨١٤م انقساماً حاداً بين زعماء القواسم ، فكانت لهم قيادة في رأس الخيمة، وقيادة أخرى في الشارقة بزعامه سلطان بن صقر، واستمرت الأوضاع على تلك الحالة حتى وصول قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى نجد وتحطيم الدرعية وسقوط الدولة السعودية الأولى في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ، وبسقوط الدرعية فقد الشيخ حسن بن رحمة أهم حلفائه، وقامت إنكلترا بحملتها الكبرى في عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م ضد القواسم ، وقسمت ساحل عُمان إلى مشيخات منفصلة بعضها عن بعض ، لكي تحكم سيطرتها عليها ، كما سنرى لاحقاً.

ثانياً - العلاقات بين القواسم والدولة السعودية الأولى (الدولة الوهابية)

في العقد السادس من القرن الثاني عشر الهجري، العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادي، بدأ محمد بن عبد الوهاب ، بنشر تعاليم دعوته التي أصبحت تُعرف باسم الدعوة الوهابية في الهضبة النجدية ، وبدأت مع تحولها إلى دعوة سياسية تشكل خطراً كبيراً على سلطة بني خالد في الأحساء ، فتحرك سليمان بن محمد آل حميد، رئيس بني خالد وحاكم الأحساء، وأرسل إلى عثمان بن حمد بن معمر، يأمره بقتل الشيخ ، فانتقل الشيخ محمد إلى الدرعية ، حيث لاقت الدعوة قبولاً عند الأمير محمد بن سعود الذي كان يتطلع للسيطرة على شبه الجزيرة العربية .^(٢)

منذ ذلك الوقت بدأت الدعوة الوهابية، تأخذ مساراً جديداً، تؤيدها وتساندها القوة السياسية، وتحولت الدرعية منذ ذلك الحين إلى عاصمة دينية وسياسية وحربية في الوقت نفسه.^(٣) فقد أدى تحالف القيادة الدينية للدعوة الوهابية ممثلة بزعميها محمد بن عبد الوهاب مع القيادة السياسية من آل سعود في الدرعية إلى قيام الدولة السعودية الأولى التي تبنت الدعوة الوهابية ، وعدتها مذهباً رسمياً للدولة ، وراحت تعمل على حمايتها، ونشر مبادئها، وكانت جيوشها تتحرك على أكثر من جبهة لنشر المذهب

(١) حنظل ، فالج : المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، ج ١ ، ص ٣٣٢.

(٢) فيليببي ، سنت جون : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ، تر : عمر الديراوي ، بيروت دبت ، د.ط ، ص ٣٩.

(٣) مؤلف مجهول : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق ، أبو حاكمه ، أحمد مصطفى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٦ - ٢٧.

الوهابي.

عندما وصل نفوذ الدعوة الوهابية إلى ساحل الخليج العربي، ولامس حدود عمان مباشرة، كانت عمان تحكم من قبل السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي ، وفي عهده بدأت جيوش آل سعود تغزو عمان، وتهدد جميع مناطقها ، وكان وصول السعوديين إلى سواحل الخليج العربي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، سبباً في إقامة علاقات تحالفية مع القواسم ، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي على سواحل الخليج العربي ، وشهد عهد الشيخ صقر بن راشد القاسمي مرحلة انطلاق الحركة السعودية، وبالتوافق مع تصاعد النشاط البحري القاسمي في مياه الخليج العربي ومحاولة القواسم توسيع مناطق نفوذهم .^(١)

مرت العلاقات القاسمية - الوهابية ، بمرحلتين : تمثلت الأولى منها بوقوف القواسم في وجه المحاولات الوهابية لإخضاعهم ، ومدتها ثلاث سنوات (١٢١١ - ١٢١٤هـ / ١٧٩٧ - ١٨٠٠ م) ، وفي المرحلة الثانية (١٢١٤ - ١٢٣٣هـ / ١٨٠٠ - ١٨١٨ م) تقبل القواسم تعاليم الوهابية ، واستمرت حتى سقوط الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨ م .

المرحلة الأولى (١٧٩٧ - ١٨٠٠ م) : تطلع الوهابيون، بعد أن نجحوا في تثبيت نفوذهم في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية (الإحساء) في عام ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م، إلى إخضاع مراكز القوى البحرية على ساحل الخليج العربي ، وبخاصة القواسم ، لأن سيطرتهم عليه ستمكنهم من استغلال الأسطول القاسمي القوي ، من أجل توجيه ضربة عسكرية قوية لعُمان، التي وقفت بصلابة في وجه طموحاتهم التوسعية، تمهيداً لإخضاعها.

اتبع الوهابيون ، في مهاجمتهم ساحل القواسم، أسلوبهم المعروف القائم على شن غارات سريعة والانسحاب إلى قواعدهم ، والقيام في الوقت نفسه بالتبشير بمبادئ الحركة عن طريق الدعاة ، في المناطق التي نجحوا في الحصول على موطن قدم فيها. تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك خلاف بين المؤرخين حول السنة التي بدأ التحرك الوهابي فيها نحو ساحل عُمان ، فقد حدّد لوريمر ذلك بسنة ١٢١٤هـ / ١٨٠٠ م ،

(١) ويلسون ، آرنولد : المرجع نفسه ، ص ١٧ .

ووافقه ولسون وكيله على ذلك، (١) في حين يرى مايلز أنه يعود إلى سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م (٢).

أما مؤلف كتاب لمع الشهاب فيرى أن الهجوم الوهابي على ساحل عُمان كان بعد سيطرتهم على الإحساء مباشرةً، (٣)، أي بعد في عام ١٧٨٧م ، على الرغم من أنه لم يشير إلى التاريخ بدقة ، إلا أنه من مقارنة تواريخ الوقائع والأحداث يتبين أن الغزو قد تم قبل اغتيال عبد العزيز بسبع سنوات ، ولما كان الاغتيال وقع سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٣م ، فإن تاريخ بدء الاندفاع الوهابي نحو الساحل العماني كان في عام ١٢١١هـ / ١٧٩٧م ، وقاوم القواسم محاولات الوهابيين لإخضاعهم طيلة ثلاث سنوات، إلا أنهم اضطروا إلى التسليم ، وخضعوا نهائياً في عام ١٢١٤هـ / ١٨٠٠م .

بعد نجاح الوهابيين في السيطرة على البريمي ، شيدوا فيها قلعة جديدة (قصر الصبارة) إلى الجنوب من قلعتها القديمة (قصر الخندق) ، لتأمين القبضة الوهابية على الواحة، وسعى القائد الوهابي سالم الحارق إلى كسب تأييد قبيلة النعيم ، القبيلة الرئيسية الأكبر في البريمي والظاهرة، فكان له ما أراد ، ونجح الوهابيون بمساعدتها في إخضاع قبيلة الظواهر ، الموالية لآلبوسعيد ، وبعد خضوع النعيم استدار الأمير عبد العزيز نحو القواسم ، وسعى في البداية إلى إقناع زعيمهم صقر بن راشد القاسمي، عن طريق قبائل النعيم بالانضمام إلى الدعوة الوهابية، وقد أشار إلى ذلك صاحب كتاب لمع الشهاب بقوله : " يا نعيم أنتم المجاهدون الموحدون ، أريد منكم أن تكتبوا لصقر بن راشد القاسمي بالطاعة ، وتبذلوا له النصيحة بأن يتبع ديننا ويؤدي الطاعة ، وإلا فحاربوه بقدر ما يمكن ، وإذا أعياكم قهره هذا أنا أمدكم بعسكر من الدرعية ، فافعلوا كما أمركم". (٤)

رفض صقر بن راشد القاسمي الاستجابة لدعوة النعيم في بادئ الأمر، فتحركت قواتهم لإجباره على الخضوع ، لكنه تمكن من دحر القوات المهاجمة ، فأرسل النعيم إلى الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود يخبرونه بفشلهم في إخضاع القواسم ، فبادر إلى

(1) Kelly : *Britain and Persian Gulf* , p 102 . SEE also, Wilson: Op Cit, p. 197.

(2) Miles, Samuel : Op – Cit , p . 288.

(٣) لمع الشهاب ، ص ٧٨ – ٨٤ .

(٤) لمع الشهاب ، ص ٧٩ .

إرسال قوة من ألف رجل بقيادة مطلق المطيري . (١)

عسكر القائد الوهابي في قلعة البريمي ، وأرسل قوة من النعيم مع خمسمائة رجل من قواته، وأمرها بالإغارة على القواسم ، بالقرب من رأس الخيمة ، وهناك حاولت قطع الطريق بين المدينة ومنطقة بساتين النخيل في الجانب الجنوبي الشرقي من الخليج الذي تقع عليه رأس الخيمة ، فشنّ صقر بن راشد هجوماً خاطفاً على هذه القوات ، وتمكن من دحرها وتشتيت شملها .

إلا أنه لم تمض سوى أربعة أيام على الهجوم حتى جاء مطلق المطيري على رأس قوة داعمة مؤلفة من أربعة آلاف رجل (٢)، فوجد الشيخ صقر نفسه عاجزاً عن مواجهة هذه القوات ، وأصدر أوامره إلى رجاله بالانسحاب إلى المدينة للدفاع عنها ، فحاصرت القوات الوهابية مدينة رأس الخيمة لمدة سبعة عشر يوماً ، واضطر الشيخ صقر بن راشد في النهاية إلى طلب الصلح ، الذي أسفر عن موافقته على قبول مبادئ الدعوة الوهابية ، فتبعه في ذلك معظم كبار رجالات القواسم ، وكان ذلك في سنة ١٢١٤هـ / ١٨٠٠م، لكن محاولة مطلق المطيري تهديم مقام (سيد حسن) الذي كان مقدساً لدى القواسم ، جعل قسماً منهم ينتفض ضده ، ووقع اشتباك بينهم وبين القوات الوهابية ، اضطر القواسم بعدها إلى الانسحاب واللجوء إلى أقربائهم في لنجة .

مما سبق نستنتج أن القواسم اتخذوا موقف المقاومة في البداية من التوسع الوهابي في المنطقة ، وتناشوا عداوتهم مع عُمان لفترة وجيزة ، حيث حاول الطرفان إبعاد الخطر الوهابي لكنهم لم ينجحوا في ذلك .

تجدر الإشارة هنا إلى أن صلاح العقاد وقع في خطأ عندما ذكر في كتابه التيارات السياسية في الخليج (٣)، أن القواسم بقيادة سلطان بن صقر القاسمي رحبوا بالدعوة الوهابية في بداياتها ، لأنها لا تطل من زعامته للقواسم ، وهذا غير صحيح، فزعيم القواسم آنذاك كان صقر بن راشد الذي ظل يحكم القواسم حتى توفي سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م ، ثم خلفه على الزعامة ابنه سلطان بن صقر ، ناهيك عن أن زعيم القواسم ، لم يرحب بهم ، إلا إذا كانت المقاومة ترحيباً برأيه .

(١) يذكر صاحب لمع الشهاب اسم راشد بن سنان المطيري ، ليعود ويذكر أنه مطلق المطيري ، أنظر: لمع الشهاب ، ص ٧٩.

(٢) لمع الشهاب ، ص ٨٠.

(٣) العقاد ، صلاح : التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٩٨.

وأخيراً فإن السيطرة الوهابية قد أضعفت إلى حدٍ ما سلطة الشيخ صقر بن راشد القاسمي ، مما جعله يشعر بالاستياء من ذلك ، ولا سيما بعد أن كانت قبيلتنا طنيج وزعاب تحكمان مباشرة من رأس الخيمة ، لكن بعد السيطرة الوهابية أصبح لهما أميراً مستقلاً . (١)

المرحلة الثانية: (١٢١٤ - ١٢٣٣هـ / ١٨٠٠ - ١٨١٨م) :

بعد تبني القواسم مبادئ الدعوة الوهابية ، لعبوا دوراً بارزاً في دعمها ونشر مبادئها بإخلاص ، مما دفع الأمير عبد العزيز إلى تسميتهم بـ " الموحدة " إعجاباً بهم وتكريماً لهم . (٢)

كان وراء حماس القواسم للوهابية جملة من الأسباب ، فقد ساعد الوهابيون في استمالتهم لقبائل الشمال بصورة عامة ، أن معظم هذه القبائل من السنة ، ويميلون إلى الغافرية، وبالتالي كان من السهل عليهم استيعاب المبادئ الوهابية ، ولأن القواسم سنة غافرية ، مما جعلهم أعداءً لحكام عُمان آلْبوسعيديين المنتمين إلى المذهب الإباضي ، لذلك فقد وجد القواسم في الوهابية فرصة سانحة لهم لتوجيه الضربات القوية لسلطة حكام عُمان، بالاعتماد على أساطيلهم البحرية المدعومة بالقوة العسكرية الوهابية البرية، خاصة وأن مبادئ الدعوة الوهابية كانت تؤكد دائماً على الجهاد ، وقد وجد ذلك قبولاً كبيراً لدى القواسم بحكم طبيعة حياتهم الحربية . (٣)

وبناءً عليه أصبحت نشاطاتهم البحرية جزءاً من حركة المقاومة العربية ، التي كانت مثار جدل لدى معظم الأوروبيين ،الذين نعتوها بالقرصنة ، متناسين أنهم هم الذين جابوا البحار ، بعيداً عن أرضهم ، للاعتداء على المسالمين من عابري السبيل في البحار ، والذين لا يملكون سلاحاً ، والبريطانيون هم في مقدمة القراصنة ، لأنهم جابوا البحار البعيدة يحملون أسلحتهم ، ويهاجمون السواحل الآمنة لفرض سيطرتهم عليها .

تجدر الإشارة هنا إلى أن سيطرة الوهابيين على القواسم لم تكن سيطرة مباشرة ، فقد اكتفى الأمير الوهابي أن يعلن القواسم التبعية للدولة الوهابية ، وتقديم الزكاة وخمس الغنائم من الحروب ، على أن تترك الشؤون الأخرى بيد شيوخهم ، وعلى أن يسمحوا باستقبال الدعاة في المناطق الخاضعة للنفوذ الوهابي من أجل الدعوة إلى المبادئ

(١) لمع الشهاب ، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(3) Kelly, John : *Eastern Arabian Frontiers* , 1Ed , London 1964, p . 55.

الوهابية من ناحية ، ولمراقبة ولاء هذه القوى والاطلاع على أوضاعها من ناحية أخرى . (١)

خلع الشيخ سلطان بن صقر القاسمي من قبل الوهابيين :

قُدِّرَ للشيخ سلطان بن صقر القاسمي أن يشهد أثناء فترة حكمه الطويلة ، وقيادته للاتحاد القاسمي ، أحداثاً مهمة وجسيمة ، أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ القواسم ومنطقة الخليج العربي ، على حد سواء .

وتعدُّ حادثة خلع شيخ القواسم من قبل سعود بن عبد العزيز ، وتعيين ابن عمه حسين بن علي شيخ رامس ، زعيماً للاتحاد القاسمي بلقب (نائب الوصي) بصفة مؤقتة ، من أبرز حوادث تبعية القواسم للوهابيين ، وأدى ذلك إلى تزايد التدخل السعودي في شؤون القواسم ، وقاد بعد سنوات قليلة إلى أول انقسام بين القواسم أنفسهم ، وانفصال سلطان بن صقر في الشارقة .

تختلف المصادر اختلافاً واضحاً حول دوافع اتخاذ الوهابيين هذه الخطوة وتوقيت وقوعها ، والكيفية التي تمت بها ، فمن المؤرخين من يذكر أن تنامي النفوذ الوهابي أثار سخط القادة القواسم ، وبخاصة زعيمهم سلطان بن صقر ، فنقل بالقوة إلى نجد (٢) ، والبعض يرجع السبب إلى رغبة سعود بن عبد العزيز بالإشراف المباشر على النشاطات القاسمية ، وبخاصة البحرية منها ، ورغبته في مضاعفة نشاطهم البحري (٣) ، في حين يرى آخرون أن السبب يعود إلى رغبة الوهابيين في مهادنة البريطانيين في الخليج العربي ، بعد الحملة البريطانية على القواسم في عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م (٤) ، وربما يعود السبب إلى تزايد النشاط البحري القاسمي مع تعيين الزعيم الجديد حسين بن علي القاسمي ، فكانوا يهددون سواحل الهند نفسها .

ومن المؤرخين من يرجع السبب إلى قيام سلطان بن صقر القاسمي بإجراء اتصالات سرية مع السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي ، حاكم مسقط ، لتشكيل حلف ضد الوهابيين ، فكتب سعود إلى سلطان بن صقر بالقدوم إلى الدرعية ، وقام بعزله . (٥)

(١) لمع الشهاب ، ص ٨٤ .

(2) Miles, Samuel : Op Cit , p 314.

(3) Wilson, Arnold : Op – Cit , p . 204

(٤) العقاد ، صلاح : التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٠٣ .

(٥) ابن رزيق ، حميد بن محمد : الفتح المبين ، ص ٤٥٥ . وأنظر : H. Moyse – Bartlett: *The Pirates of Trucial Oman*, London 1966, p. 42.

غير أن السبب الأهم في عزل سلطان بن صقر يعود إلى عدم تعاونه المطلق مع الدعوة الوهابية ، واستيائه من تزايد التدخل الوهابي في شؤون مشيخته الداخلية ، مما أفقده جانباً من سلطته ونفوذه ، وخير مثال على ذلك ، الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها القائد الوهابي مطلق المطيري الذي أرسله سعود بن عبد العزيز إلى البريمي في عام ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م .

وعلى الرغم مما كان يبيده سلطان بن صقر القاسمي من الولاء ، فإنّ سعود بن عبد العزيز لم يكن مرتاحاً له كثيراً ، لأنه كان يرغب بالإشراف على النشاطات القاسمية بنفسه بعيداً عن رقابته، وذلك بتعيين زعيم آخر من القبيلة نفسها ، يدين له بمنصبه الجديد ، وهذا ما حصل في واقع الأمر ، وتم عزل سلطان بن صقر في عام ١٨٠٨ م . لا بد من الإشارة هنا إلى أن ابن بشر النجدي ذكر أنه تم تعيين حسن بن رحمة على القواسم بدلاً من سلطان ، علماً أن حسن بن رحمة تولى بعد حسين بن علي زعامة القواسم سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م ويتفق معه في ذلك العقاد ، وجمال زكريا قاسم (١)

بالرغم من تلك الاختلافات يمكننا أن نرجح عزل سلطان سنة ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م ، أي قبل الحملة البريطانية سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م ، وهذا ما تؤكد تقارير الكابتن سبيتون التي أرسلها إلى بومباي في شباط ١٨٠٩ م ، (والتي تشير إلى أن الأمير الوهابي سعود بن عبد العزيز، أصدر أوامره إلى زعيم القواسم الجديد ، حسين بن علي ، بأن يضع كل سفينة متيسرة يمكنه إيجادها في البحر ، للطواف باسم " العقيدة الوهابية " ، ضد أعدائها ، وأن يقوم بتسليم خمس الغنائم إلى الدرعية) . (٢)

وقد ذكر واردن (Warden) ولو (Low) النص المشار إليه أعلاه ، والمرسل إلى الزعيم الجديد حسين بن علي (٣)

أدى عزل الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إلى نتائج مهمة في تاريخ القواسم ، وبخاصة على علاقاتهم بعمان ، فقد نجح سلطان بن صقر القاسمي في الهروب من الدرعية في عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ، ووصل إلى مسقط في أوائل سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م ، ووضع نفسه تحت حماية السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، الذي وعده بمساعدته في

(١) ابن بشر النجدي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ١٥١ .

(3) Bombay Gov , Records Vol xxiv, Warden , Francis , Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs 1747- 1818 , Bombay 1856 . p 305. See also Low: Op – cit. Vol. 1, p. 324.

استعادة منصبه، مقابل اعتراف سلطان بن صقر بسيادة السيد سعيد على المنطقة ، وتشير المصادر إلى أن سلطان بن صقر اتصل بالسلطات المصرية في الحجاز ، فوجد محمد علي باشا في ذلك فرصة مناسبة للضغط على الوهابيين، عن طريق الحصول على مساعدة سلطان مسقط وتنسيق جهودهما في الصراع مع القوة الوهابية، ولدى وصول سلطان بن صقر إلى مسقط قدم العرض للسيد سعيد بن سلطان ، الذي كتب إلى

طوسون بن محمد علي يعده بالمساعدة والتنسيق المشترك ضد الوهابيين. (١)

على الرغم من تعاون سلطان بن صقر مع سلطان مسقط السيد سعيد بن سلطان، إلا أنه لم يكن يعدّه حليفاً للقواسم بسبب عقيدته الدينية "الإباضية" وأكد ذلك للسيد سعيد بقوله: "إن ما جرى بيني وبين آل سعود هو من نوع ما يجري بين الوالد وأولاده والأخ وأخيه، وأما العقيدة السلفية فهي العقيدة الحق التي لا ينبغي أن يكون لها بديلاً" (٢) ،

وهكذا بوصول سلطان بن صقر إلى حكم الشارقة ، وتولي حسن بن رحمة القاسمي حكم رأس الخيمة في عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م ، شهدت الزعامة القاسمية انقساماً خطيراً، شجع بقية الزعماء القواسم الذين كانوا يؤلفون الاتحاد القاسمي إلى الاستقلال بالمناطق التي كانوا يحكمونها حكماً محلياً ، حتى وصول قوات محمد علي باشا إلى الدرعية وتحطيمها في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ، وكان الشيخ حسن بن رحمة قد أرسل سبع عشرة سفينة حربية على متنها خمسة آلاف مقاتل إلى ميناء القطيف للمشاركة في الدفاع عن الدرعية ، لكنها وصلت متأخرة، وكان من نتائج ذلك تدمير الأسطول الإنكليزي لمدينة رأس الخيمة في عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م ، وفرض معاهدة عامة على ساحل عُمان ، وهو ما سنأتي على ذكره بالتفصيل.

بعد دراسة علاقات القواسم مع عُمان والدولة الوهابية تم التوصل إلى النتائج التالية :

١- أدت الصراعات الدموية والمواجهات العسكرية شبه المستمرة بين القواسم والدولة آلبوسعيدية وتدخل القواسم في الشؤون الداخلية العمانية ، وبخاصة عندما كانت عُمان تشهد صراعاً داخلياً على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة إلى استنزاف متدرج لقوة القواسم أنفسهم والدولة العمانية في وقت واحد ، وكانت القوى الأوروبية (بريطانيا ، هولندا ، فرنسا) التي تسعى بدورها لفرض نفوذها السياسي

(1) Miles , Samuel : Op – Cit , p . 314.

(٢) حنظل ، فالج : المفصل في تاريخ الإمارات العربية ، ج ١ ، ص ٣٢٢.

والاقتصادي على منطقة الخليج العربي المستفيد الوحيد من هذا الصراع . وبالتالي فقد حددّ هذا الصراع مصير دولة القواسم وعُمان لعقود من الزمن ، بعدما قاد التدخل الأجنبي ، وإن كان في البداية في صورة طلب المساعدة الأجنبية من قبل حكام الدولتين ، بعدما عجزتا عن حسم الصراع بالاعتماد على قواتهما العسكرية.

٢- دفع تدخل القواسم في الشؤون الداخلية العمانية حكام الأسرة البوسعيدية إلى مواجهة القواسم بالسلاح نفسه ، وقدموا الدعم والمساعدة للشيخ سلطان بن صقر القاسمي (الذي عزله الوهابيون) بعد فراره من سجنه في الدرعية ، حيث تحالف مع بني ياس ومع حكام مسقط ، وقدمت له بريطانيا الدعم بطريقة سرية ، وكان هدف الجميع إضعاف سلطة القواسم ، وضرب نفوذهم السياسي والاقتصادي والعسكري في منطقة الخليج العربي ، غير أن بريطانيا كانت المستفيد الأول من ذلك ، بدليل أنها استطاعت بعد نجاح المتحالفين في تفكيك الجبهة الداخلية القاسمية أن تقضي على القوة العسكرية القاسمية ، وأن تفرض سيطرتها على ساحل عُمان ، وقسمته إلى مشيخات منفصلة ، وأن تفرض شكلاً من أشكال الحماية على عُمان ، في وقت سقطت فيه الدولة الوهابية ، وبذلك نجحت في وضع الأسس اللازمة لسيطرتها المباشرة على الخليج العربي كله .

٣- جعل زعماء القواسم مصيرهم ومصير دولتهم في ساحل عُمان رهينة تطورات الأحداث السياسية والعسكرية ، عندما تبناوا تعاليم الدعوة الوهابية ، واعتنقوا مبادئها ، حيث فقدوا نهجهم السياسي المستقل ، ووجدوا أنفسهم مرغمين على تبني السياسات التي اتبعتها الدولة السعودية الأولى (الدولة الوهابية) مع ما لهذا التبني من تبعات خطيرة طالت مصير دولة القواسم وسيادتها ، بدليل أنها أصبحت لقمة سائغة للبريطانيين بعد سقوط الدرعية بيد قوات محمد علي باشا في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م.

٤- بيّنت الأحداث التي شهدتها منطقة الخليج العربي على خلفية التحالف القاسمي - الوهابي ضدّ عُمان ، وما ترتب عليها من نتائج خطيرة أن زعماء القواسم والدولة السعودية الأولى غلبوا مصالحهم الضيقة على حساب مصلحة الأمة وشعوبها ، وأن العامل المذهبي لم يكن غائباً عنهم عندما عقدوا هذا التحالف ، الذي كان من المفترض أن يكون منطقياً ووجدانياً وحتى مصلحياً موجهاً ضدّ القوى الخارجية التي كانت تتربص بالخليج العربي وأهله ، لا ضدّ عُمان وأهلها . وبالتالي عربّوا الصراع في منطقة الخليج عندما أصبحت عُمان هدفاً لهم ، مما يدفعنا إلى القول :

إنهم بتفكيرهم السياسي الضيق خدموا من حيث لا يعلمون مخططات الهيمنة الاستعمارية في المنطقة بإضعاف قوّة المقاومة التي كان القواسم في الحقيقة جزءاً أساسياً منها ، ويتقاسم الزعماء السياسيون في عُمان في حينها المسؤولية عن ذلك معهم عندما لجأوا إلى طلب المساعدة من بريطانيا لمواجهة التهديد القاسمي السعودي .

الفصل الرابع

القواسم وعلاقاتهم الدولية (١٧٤١ - ١٨٢٠ م)

القواسم وعلاقاتهم الدولية (١١٥٤ - ١٢٣٥هـ / ١٧٤١ - ١٨٢٠م)

انصفت نشاطات القواسم وجهودهم لإقامة سلطتهم السياسية وحكم مناطقهم بالشجاعة والقوة والحكمة ، وعاشوا فترة مديدة من الصراع والمواجهات ، في سبيل يثبتوا وجودهم بجدارة والعيش مع باقي المجتمعات وسط الظروف المحيطة بهم. حيث استطاع القواسم منذ منتصف القرن الثامن عشر أن يمتدوا بنفوذهم من رأس مسندم حتى دبي ، كما امتدت سيطرتهم على بعض الموانئ والجزر الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي وخاصة جزر قشم ، وبلنجة ، وكنج .كما استطاعوا تجميع أسطول بحري كبير إذ سقطت تحت أيديهم الكثير من السفن الفارسية بالإضافة إلى ما كانوا يستولون عليه من السفن الأوروبية بسبب عملياتهم البحرية المتنامية .

أولاً: العلاقات بين القواسم والفرس (١١٥٤ - ١٢٣٥هـ / ١٧٤١ - ١٨٢٠م):

بعد الغزو الأفغاني لبلاد فارس سنة ١١٣٢هـ / ١٧٢٠م ، وخلال الفوضى التي أطاحت بملك سافاقي استولى راشد بن رحمة القاسمي (ابن الشيخ رحمة بن مطر القاسمي) على باسيدو ، وكان جده مطر بن كايد القاسمي قد استولى على جزيرة قشم ، وأقام فيها قاعدة أثرت تأثيراً كبيراً على التجارة في بندر عباس ، التي كانت في ذلك الوقت مقسمة بين البريطانيين والفرس ، وقد أدى ذلك إلى قيام نزاع كبير بين بريطانيا وشيخ القواسم .

كان نفوذ القواسم (وعاصمتهم رأس الخيمة آنذاك) ، يسود معظم الأقاليم المجاورة ، وفي الخارج أصبح اسم القواسم دليلاً على كل العرب المقيمين في الناحية الغربية من إقليم عُمان الجبلي .غير أنهم ظهروا على مسرح الأحداث السياسية في الخليج العربي بقوة بعد اغتيال الشاه نادر في عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، ومنذ بداية ظهورهم عملوا على توجيه طاقاتهم نحو استغلال الموانئ القريبة على الساحل الفارسي المقابل ، مؤيدين سياسة جارهم إمام عُمان حيناً ، ومعارضين لها حيناً آخر ، وفق الظروف المستجدة ، وما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة .

بعد اغتيال الشاه نادر حاول بعض القادة من الفرس الطامعين في الحكم الاستعانة بالقبائل العربية في الخليج العربي ، لمواجهة منافسيهم على عرش فارس ، وأدى ذلك إلى تصاعد نفوذ القواسم في الساحل الشرقي للخليج العربي بعد استعانة ملا علي شاه

حاكم بندر عباس بهم، ومن القبائل العربية التي كان لها دوراً سياسياً على السواحل الفارسية المطلة على الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، عرب بوشهر بزعامة حاكمهم الشيخ نصر آل مذكور ، وهم من عرب المطاريش في عُمان، اعتنق شيخهم المذهب الشيعي الإمامي في عهد الشاه نادر ،على أمل أن يعينه قائداً للأسطول الذي بناه، وجعل من بوشهر قاعدة له ، وعرب بندريق الذين يقيمون شمالي بوشهر ، وينتمون إلى عرب زعاب على الساحل العماني ، وكانوا يحكمون جزيرة خرج بالإضافة إلى بندريق، وقبائل بلنجة وجزيرة صبرى القريبة منها ، وعرب بنو كعب في مدينة الدورق إلى جانب عرب الهولة على الساحل الشرقي من الخليج العربي في جزر قشم وقيس وهرمز .

ومن بين هذه القبائل جميعها ظهر القواسم كقوة ضاربة ، وإلى جانبهم برزت سلطة ملا علي شاه حاكم بندر عباس ، الذي كان يسيطر على معظم الأسطول الفارسي عقب اغتيال الشاه نادر، وارتبط بعلاقة مصاهرة مع القواسم بزواجه من ابنة راشد بن مطر القاسمي في عام ١١٦٤هـ / ١٧٥١م ، وكان لهذه المصاهرة أهمية كبيرة ، وشكلت بداية تحالف بين قائد الأسطول الفارسي وزعيم القواسم ، وأصبح القواسم بفضل هذا التحالف قادرين على الاستفادة من الأسطول الفارسي واستخدامه ضد خصومهم ومنافسيهم،^(١) وقد تمكن القواسم من الاستيلاء على باسيديو في جزيرة قشم .

في ظل تلك الظروف ظهر كريم زند خان مؤسس الدولة الزندية في جنوبي بلاد فارس مستغلاً الأوضاع السياسية الجديدة التي أعقبت اغتيال الشاه نادر ، ففي عام ١١٦٥هـ / ١٧٥٢م وقف الشيخ حسن والشيخ عبد الله أمراء قبيلة بني معين إلى جانب كريم زند خان ، واستطاعوا إلقاء القبض على عدد من رجال القواسم بالقرب من جزيرة قشم ، فقرر القواسم الانتقام ، وهاجموا الشيخ حسن في جزيرة قشم ، وسيطروا عليها ، إلا أنه تمكن من الهروب عن طريق ميناء باسيديو ، عندما علم بقدوم القواسم ، لطلب النجدة من محمد خان عباس الذي كان يخضع لسلطة كريم زند خان ، وبالفعل هبَّ محمد خان لمساعدة بني معين في استعادة جزيرة قشم وطرد القواسم منها ، وتحرك دون إبطاء مع جمع من الشيرازيين ، وجمع مقاتلين من العرب والفرس ، واتجه إلى ميناء باسيديو في قشم ، حيث وجدوا سفناً للعرب القواسم ، واستولوا عليها ،

(١) محمد أمين ، عبد الأمير : المرجع نفسه ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وأرسلوها إلى جيش كريم زند خان ، وشنوا هجوماً عنيفاً على القواسم ، كانت نتيجته أن أصبحت الجزيرة تحت تصرف الشيخ محمد خان عامل كريم زند خان .

في عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٤م وصلت تقارير من ميناء بلنجة إلى الشيخ محمد خان ، ذكرت أن شيوخ القواسم قاموا بالسيطرة على كنج وبلنجة ، بمساعدة الملا علي شاه ، فلما عرضت التقارير على كريم خان زند أصدر أوامره إلى الشيخ محمد خان بالقضاء على العرب القواسم في المنطقة ، إذ أن كريم زند خان كان قد عهد إلى الشيخ محمد خان بحكومة بندر عباس وبلنجة ، لذلك أرسل الشيخ محمد خان عدداً من حملة البنادق بقيادة حسن خان لحفظ النظام و الأمن في بندر عباس ، ومنع اعتداءات العمانيين ، واتجه بنفسه مع جمع كبير لمواجهة عرب القواسم في بلنجة ، لتنفيذاً لأوامر كريم زند خان ، فحاصر كنج و بلنجة وبستانه، فاستسلم الشيخ المرزوقي دون مقاومه تذكر، فخرجت قبيلة القواسم للمبارزة والنزال، لكنها فشلت في صدّ الهجوم ، وعجزت عن المقاومة، وانكسرت، ودخل الشيخ صقر بن راشد القاسمي نيابة عن والده راشد بن مطر وأخيه رحمة بن مطر إلى قلعة "كنج" القائمة داخل البحر قبالة سواحل بلدة بلنجة ، وتحصن فيها، أما البقية فقد ركبوا في سفنهم ، وفروا بعيداً عن الأنظار، وبعد فترة وجيزة استسلم الشيخ صقر بن راشد القاسمي ورجاله بسبب نقص المواد التموينية. وطلبوا وساطة الشيخ المرزوقي ^(١) وشيوخ آخرين من عرب الهولة لدى محمد خان كي يعفو عن شيوخ القواسم ورعيته، وأن يعهد بميناء بلنجة و مكان آخر معه إلى الشيخ صقر بن راشد القاسمي، أسوة بشيوخ عرب شيبكوه (جهانكيرية) ^(٢) الذين أعطوهم مكاناً في بيخة صدق، والجزر التابعة لها، ليقيم القواسم فيه هادئين مستريحين في ظل التبعية للدولة الشاهنشاهية ولحكومة بستك، وقد قبل الشيخ محمد خان اقتراحهم، لأن ذلك سيساعد على فرض حالة الاستقرار والأمن في المنطقة، ويمنع تعديات العرب البداة من العمانيين، وأخذ عليهم العهود والمواثيق وفق الشروط التالية:

١. أن تمتنع قبيلة القواسم عن الغزو في البحر.
٢. أن يمتنعوا اعتداءات جميع العرب العمانيين والفئات التي تأتي من سواحل عمان

(١) المرازيق جماعة من العرب الهولة الذين حكموا بلده مغوا وكنج، وينحدرون من فرع آل سليمان أحد فروع قبيلة العجمان التي تسكن الإحساء. أنظر : دشتي ، محمد إسماعيل : شقائق النعمان في تاريخ الخليج والكويت وإيران والإمارات والجزيرة ، دار المحبة ، دمشق ، ٢٠٠٢م ، ط٢ ، ص ٧٥ .

(٢) جهانكيرية، يقصد بها جميع القرى والموانئ الواقعة على الساحل الإيراني قبالة دولة الإمارات حالياً. أنظر: المرجع نفسه ، ٧٦ .

لمهاجمة موانئ الساحل الفارسي .

٣. كل واحد من العرب يهاجر إلى هذه المناطق يكون من رعايا بلاد فارس، ويقبل التبعية للدولة الشاهنشاهية.

٤. عدم الاعتداء على جزيرة قشم ، وإقامة علاقات حسنة مع شيوخ بني معين^(١). وقبل القواسم بهذه الشروط ، وتقرر أن يذهب الشيخ صقر إلى جلفار للتشاور مع أبيه وأخيه وجماعة القواسم، حيث قرروا الموافقة على الشروط السالفة الذكر .

في عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م خرق القواسم الاتفاقية بالاشتراك مع حليفهم الملا علي شاه، وهاجموا شيخ بني معين وحاصروه في ميناء لفت، وتمكنوا من السيطرة على جزر وموانئ مهمة، منها : بندر عباس ، وهرمز ، وقشم . وفي عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م اشترك القواسم في الحروب التي كان يخوضها مير مهنا شيخ بندريق^(٢) ضد الهولنديين .^(٣)

في عام ١١٧٣هـ / ١٧٦٠م شهدت هرمز ثورة ضد الملا علي شاه حليف القواسم ، فقد اتفق جعفر خان شقيق ناصر خان حاكم مقاطعة لار مع أهالي هرمز، وقدم لهم المال والسلاح ، فأعلنوا الثورة على الملا علي شاه، وهاجموا قلعته ،والقوا القبض عليه ، وزجوه بالسجن ، فلما علم جعفر خان بنجاح الثورة حشد قواته ، وأسرع إلى المنطقة ، وسيطر على السفن التابعة للملا علي شاه ، في هذه الأثناء وصلت أنباء الثورة إلى مسامع الشيخ راشد بن مطر القاسمي ، وعلم أن حليفه الملا علي ، في سجن بندر عباس ، فقرر إعداد حملة بحرية لنجدته ، وأبحر بأسطوله مخترقاً الحصار العماني ، واتجه نحو بندر عباس ، حيث وقعت هناك اشتباكات عنيفة تطورت إلى معارك ضارية مع المدافعين عن القلعة التي يحتمي فيها جعفر خان ، غير أن الشيخ راشد فشل في السيطرة على القلعة ، فقد جابهته نيران مدفعيتها العنيفة ، واضطر إلى الانسحاب إلى جزيرة قشم لإعادة تنظيم قواته من جديد ، إلا أنه ما أن وصل إلى هناك حتى كانت قوات بني معين قد تهيأت لقتاله ومنعه من النزول على ساحل الجزيرة ، وكان الشيخ عبد الله المعيني قد طلب النجدة من ناصر خان فأنجده ، فلما رأى الشيخ

(١) دشتي ، محمد إسماعيل : المرجع نفسه ، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) بندر ريق،: ميناء يقع شمال ميناء بوشهر، في الجهة المقابلة لدولة الكويت على الساحل الإيراني. أنظر :المرجع نفسه ، ٧٧.

(٣) قاسم ، جمال زكريا : دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ٢٧٥.

راشد بن مطر القاسمي أن القوة التي أمامه أصبحت كبيرة قام بهجوم مضاد مستخدماً مدافع السفينة (الرحماني) ضد سفن شيخ جزيرة قشم ، وتمكن من إنزال قواته في الجزيرة ، وهرب شيخ بني معين إلى هرمز . وسط هذه الأحداث تمكن الملا علي شاه من الهروب من سجنه والوصول إلى جزيرة قشم ، وهناك التقى بالزعيم القاسمي راشد بن مطر ، حيث جرت مفاوضات بين الزعيمين من أجل وضع خطة محكمة لاسترجاع بندر عباس ومنطقة هرمز . وفي شوال ١١٧٣هـ / حزيران ١٧٦٠م وصلت الإمدادات العسكرية القاسمية من رأس الخيمة إلى جزيرة قشم ، وبلغ تعدادها ألف مقاتل ، وهاجمت بندر عباس ، ولم تتمكن دفاعات المدينة من الصمود أمام الهجوم القاسمي ، فتراجعت متقهقرة إلى داخل الحصن الذي يعتصم فيه جعفر خان ، وفيما كان القتال محتدماً ، وصلت الأنباء للشيخ راشد بأن الشيخ عبد الله المعيني قد عاد إلى جزيرة قشم برفقة قوات عُمانية ، فاضطر إلى العودة إليها لمواجهة قوات المعيني في الوقت الذي قام فيه ناصر خان حاكم بوشهر بالرد على ذلك الهجوم بإرسال حملتين انتقاميتين ضد بلنجة ورأس الخيمة ، وعندما فشلت الحملتان في تحقيق أهدافهما قام ناصر خان بتخريب جزيرة قشم .^(١)

في عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٣م تم الاتفاق بين القواسم وملا علي شاه وبني معين ، على أن يحتفظ بنو معين بجزيرة هرمز ، وأن يقيموا قلعة في لفت ، على أن تقتسم عوائد الميناء بالتساوي بين الأطراف الثلاثة .^(٢)

تجددت الاشتباكات بين القواسم وبني معين في عام ١١٧٨هـ / ١٧٦٥م ، عندما تمكن بنو معين بزعامة الشيخ عبد الله بدعم من كريم زند خان من استعادة قشم ولفت من القواسم ، كما تمكنوا من استعادة هرمز وبندر عباس من الملا حسين ، وظلت تلك الأماكن في أيديهم حتى وفاة شيخهم عبد الله ، حيث بدأ القواسم باسترجاعها واحدة تلو الأخرى .

كانت العلاقات بين القواسم والفرس تسير حسب المتغيرات والظروف المحلية والإقليمية المحيطة ، فتارة يكون القواسم حلفاء للفرس ، وتارة أخرى أعداء لهم ، كما حصل عندما قام القواسم بالانضمام إلى والي صحار أحمد بن سعيد البوسعيدي أثناء حرب

(١) حنظل ، فالج : المرجع نفسه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

(٢) فهمي ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ٨٧ ، وأنظر : لوريير ، ج.ج : القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

التحرير العُمانية بين عامي ١١٤٩ - ١١٥٤هـ / ١٧٣٧ - ١٧٤١م ، عندما كان أحمد بن سعيد يحاصر القوات الفارسية في صحار، وساعده على الانتصار عليهم ، إلى أن تم طردهم من عُمان عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م .

ثانياً - العلاقات بين القواسم وبريطانيا (١١٥٤ - ١٢٣٥هـ / ١٧٤١ - ١٨٢٠م):
وضعت بريطانيا قدميها في منطقة الخليج العربي بفضل اتصالاتها مع بلاد فارس ، وجرى أول اتصال بينهما بمبادرة شخصيات شبه رسمية، لاسيما مبادرة البريطاني روبرت تشارلي، إذ كانت المحاولات البريطانية الأولى للوصول إلى الهند بقصد التجارة عن طريق المستر توماس ستيفن الأستاذ في كلية أكسفورد الجديدة في عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م، حيث عين رئيساً لكلية العيساويين في غوا في الهند ، وقد أثارت مراسلاته ضجة كبيرة وحماساً شديداً في بريطانيا لإنشاء تجارة مباشرة مع الهند ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الإنكليز يبتكرون الوسائل التي تمكنهم من الحلول مكان البرتغاليين في المحيط الهندي .

وكانت بريطانيا قد أرسلت أربعة تجار بريطانيين ، هم : رالف فيتش ، وجون نويري، ووليم ديديز، وجيمس ستوري في عام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م ، مزودين برسائل إلى ملك كومبي وإلى إمبراطور الصين ، ومن ميناء طرابلس السوري عبروا إلى الفرات والفالوجا ، ومن الفالوجا إلى بغداد ، ثم عبروا نهر دجلة إلى البصرة ، ومضوا إلى جزيرة هرمز في الخليج العربي، وفي هرمز اعتقلتهم القوات البرتغالية بتهمة التجسس، وأرسلوا إلى غوا ، حيث أودعوا في السجن لبعض الوقت ، ثم أطلق سراحهم، وقد وضع فيتش تقريراً عن رحلته بعد عودته إلى بريطانيا في عام ١٥٩١م وصف فيه ثروات الشرق التي لا تتضب، وولد ذلك حماساً كبيراً في بريطانيا من أجل الحصول

على نصيب من تلك الثروات التي كانت حكرًا على البرتغاليين حتى ذلك الوقت.^(١)

في وقت لاحق اجتمعت مجموعة من التجار، وأسسوا شركة تجارية في عام ١٥٩٩م هدفها الاتجار في بحار الشرق، وطلبوا من الملكة إليزابيث الموافقة والأذن بمباشرة عملهم ، فكان لهم ذلك في عام ١٠٠٨هـ / ١٦٠٠م ، وأطلق على هذه الشركة اسم (شركة مدراء وتجار لندن للمتاجرة في جزر الهند الشرقية) عرفت فيما بعد باسم شركة الهند الشرقية البريطانية.

(١) ويلسون ، آرنولد : المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

في ٢٥ جمادى الآخرة ١٠٠٩هـ / ٣١ كانون الأول ١٦٠٠م تم تأسيس شركة الهند الشرقية بموجب مرسوم ملكي أصدرته الملكة إليزابيث بوصفها المؤسسة لتجارة لندن مع الهند الشرقية .

وكانت أولى أعمال شركة الهند الشرقية البريطانية إرسال سفينة تجارية إلى الشرق في عام ١٠٠٩ / ١٦٠١، حيث قصد سومطرة وملقا، وعادت في عام ١٠١١هـ / ١٦٠٣م وكان على البريطانيين أن يفرضوا أنفسهم على منافسيهم الهولنديين الذين أسسوا في عام ١٠١٠هـ / ١٦٠٢م ، شركة الهند الشرقية الهولندية، المنافسة لشركة الهند الشرقية البريطانية ، ودخلت الشركتان في مزاحمة حادة للسيطرة على مناطق النفوذ ، من السواحل الإندونيسية والهند الشرقية إلى الخليج العربي، وفي وقت لاحق ، وبفضل التحالف الفارسي - البريطاني ، استطاعت شركة الهند البريطانية تأمين موقع لها في ميناء جاسك (بندر جاسك) الواقع على بعد ١٥٠ كم من ميناء هرمز ، وهكذا سجل البريطانيون نقطتهم الأولى .^(١)

أدى هذا النجاح والتطور بالشركة إلى إرسال السفينة جيمس (James) بقيادة إدوارد كونوك إلى ميناء جاسك في عام ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م ،^(٢) ومن ثم غادرت البعثة التجارية البريطانية إلى أصفهان، حيث رحب بها الشاه عباس ، وأكرم وفادتها ، ووعدا بأن يعطيها ميناء جاسك أو أي ميناء آخر ترغب فيه. ويعود تقديم الشاه عباس الامتيازات لشركة الهند الشرقية البريطانية إلى أسباب عديدة ، أهمها:

- عداؤه للأتراك العثمانيين ، حيث أراد أن يحاربهم اقتصادياً بتحويل ما تبقى من تجارة الشرق التي تمر بأراضيهم إلى منطقة الخليج العربي.

-رغبة الشاه عباس الكبير في الحصول على سعر أعلى للحرير الطبيعي الفارسي.^(٣)

عندما علم البرتغاليون بقدوم البعثة البريطانية أرسلوا سفنهم إلى ميناء جاسك من أجل تتبع السفينة البريطانية ، فوقع صدام بين الطرفين في ٤ محرم ١٠٣٠هـ / ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٠م ، انتهى بانتصار البريطانيين ، وبعد هذا التطور الخطير قرر البريطانيون أن يكون لهم أسطولهم الحربي الخاص في المنطقة، ليكون سنداً لتجارتهم

(١) غباش ، حسين : المرجع نفسه ، ص ٩٨ .

(٢) عوض ، عبد العزيز : المرجع نفسه ، ص ٥٣ .

(٣) فارس ، علي : المرجع نفسه ، ص ٨٠ .

في الخليج العربي، ويحمي مصالحهم من الخطر البرتغالي، وتكوّن هذا الأسطول في البداية من السفينتين (دلفن) و (هويل) و٤ فرقاطات، تم تعزيزهما فيما بعد . (١)

بقيت العلاقات بين بريطانيا وبلاد فارس في حالة مد وجزر حسب مصالح الطرفين ، خاصة بعدما تمكن البريطانيون من تثبيت أقدامهم في المياه الهندية والعربية بطرق وأساليب مختلفة، نذكر أهمها :

١. عقد الاتفاقيات مع أمراء الهند، وشيوخ عرب الخليج.
٢. تعيين وكلاء بريطانيين في المناطق التي يتم عقد الاتفاقيات مع حكامها ، فكان هؤلاء الوكلاء يكتبون التقارير باستمرار عن المنطقة، ويقدمون النصائح والخطط للشركة .
٣. الوقوف إلى جانب الأطراف المحلية في المنطقة سواء كانوا من العرب أو الفرس ضد البرتغاليين والهولنديين ووفقاً للمصلحة البريطانية وبالشكل الذي يضعف الطرف المنافس لها .

٤. محاولة الاستفادة من أخطاء البرتغاليين والهولنديين السابقة. (٢)

وهكذا وجدت بريطانيا مكاناً لها في منطقة الخليج العربي ، واستطاعت خلال فترة من الزمن أن تمتلك زمام الأمور فيها، وأن تصبح القوة الأوروبية المسيطرة عليها سياسياً وعسكرياً ، بل واقتصادياً ، غير أن هذه السيطرة لقيت معارضة شديدة من قبل القواسم الذين بدأ نجمهم يسطع ، بعد الغزو الأفغاني لبلاد فارس في عام ١١٣٢هـ / ١٧٢٠م ، فقد استولى الشيخ راشد بن مطر القاسمي شقيق الزعيم القاسمي رحمة بن مطر على باسيدو، مما أدى إلى قيام نزاع كبير بين شيخ القواسم والبريطانيين ، لأن السيطرة على هذه الجزيرة أثرت على عائدات التجارة في بندر عباس ، التي كانت تقسم بين الفرس والبريطانيين ، مما أطاح بآمال شركة الهند الشرقية البريطانية ، فعمدت إلى استعمال القوة العسكرية لاستردادها في عام ١١٣٩هـ / ١٧٢٧م ، وتمكنت حملتها العسكرية المكونة من السفينتين (بريتانيا و بنغال) من أن تستعيد نصيب شركة الهند الشرقية البريطانية من عوائد بندر عباس من الشيخ راشد بن مطر القاسمي، بعد مفاوضات

(١) العابد ، صالح : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ، ص ٩٧ .

(٢) القرني ، صالح : المرجع نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

انتهت بالتوقيع على اتفاق معه يضمن لها دخلها من ميناء بندر عباس. (١)
بعد انهيار دولة اليعاربة وتحرير عُمان من السيطرة الفارسية في عام ١١٥٤هـ /
١٧٤١م ، ظهر القواسم على مسرح الأحداث كدولة مستقلة ، وظهرت في الوقت نفسه
دولة آلْبوسعيد في عُمان ، لكن الحدث الأبرز الذي كان له الأثر الكبير في ظهور قوة
القواسم على ساحة الخليج العربي ، تمثل باغتيال الشاه نادر في عام ١١٦٠هـ /
١٧٤٧م، وتدهور البحرية الفارسية على أثر ذلك ، إذ وجه القواسم طاقاتهم ، نحو
الخارج ، لاستغلال الأجزاء القريبة من الساحل الشرقي للخليج العربي ، بتحالفهم مع
الملا علي شاه.

وقد أمدّ هذا التحالف البحرية القاسمية بقوة فارس البحرية ، مما مهد لتحقيق طموحاتهم
في لعب دور أساسي ورئيسي في المنطقة ، وأدى ذلك إلى اصطدامهم بشركة الهند
الشرقية البريطانية التي كانت تراقب هذه القوة العربية المنيعه والناهضة ، التي أضحت
تشكل خطراً كبيراً على مصالحها في بلاد فارس والخليج العربي ، فأخذت تنربص بها
الدوائر ، وتحيك المؤامرات ضدها بهدف تحجيم قوتها وتقليص نفوذها، فكان أن بدأ
التصادم البحري بين الطرفين ، خاصةً بعد اعتناق القواسم مبادئ الدعوة الوهابية ،
حيث قويت شوكتهم بدعم الدولة السعودية الأولى ، التي كان من أهم مبادئ الدعوة إلى
" الجهاد " ضدّ كل من يخالف المذهب الوهابي والقوى الاستعمارية الطامعة بمنطقة
الخليج العربي.

ومن الجدير بالذكر أن الوثائق البريطانية نفسها تصف القواسم بأنهم أقوى قوة بحرية
بين كل جيرانهم بما فيهم حاكم مسقط، حيث جاء في الوثائق أن أسطول القواسم قد
أصبح قوة لا يستهان بها ، وبلغ عدد سفنهم ٨٧٣ سفينة ، منها ٦٣ سفينة كبيرة. (٢)
كان القواسم حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي يتجنبون في عملياتهم البحرية
الهجوم على السفن البريطانية، وكانت عملياتهم مقصورة على السفن العُمانية ، ولم
تحدث من جانبهم أية اعتداءات على السفن الأجنبية باستثناء حادثة عام ١٢١٢-
١٢١٣هـ / ١٧٩٧ - ١٧٩٨م على السفينتين البريطانيتين : فايبر (Viper) التي كانت
ترسو في ميناء بوشهر ، و سنو (Snow) وباسين (Basein) التي كانت في طريقها

(١) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ١٠٤ .

(٢) فارس ، علي : المرجع نفسه ، ص ١٦٩ .

من البصرة إلى بومباي، بالقرب من ساحل الرمس قرب رأس الخيمة معقل القواسم ، حيث اعتذر الشيخ صقر بن راشد القاسمي عن تلك الحادثة ، وذكر للمقيم البريطاني السيد مانيستي في البصرة أن هاتين الحادثتين وقعتا من جانب الشيخ صالح ، الذي انفصل عن القواسم قبل وقوع الحادثتين . (١)

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية في هذه الفترة تفضل التزام السلام في علاقاتها مع عرب منطقة الخليج العربي، حتى أنها كانت تصدر أوامرها وتعليماتها للبحارة البريطانيين بعدم البدء بإطلاق النار عليهم ، إلا أنه ومع تزايد نفوذ القواسم تبنت رئاسة الشركة في بومباي سياسة جديدة للعمل على تأمين التجارة البريطانية في الخليج العربي، تعتمد على استخدام القوة العسكرية لكسر نفوذ القواسم ، أو أي قوة تقف في طريقها .

في ظل تلك الظروف السياسية الصعبة التي كان يمر بها الخليج العربي ، أخذ النفوذ الوهابي يتعاظم في شرقي الجزيرة العربية بدءاً من عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ، وكان القواسم على اتصال وثيق بهم، مما ساعد في رفع معنوياتهم كثيراً ، فقد امتد نفوذهم على منطقة ساحلية طولها أكثر من ١٥٠ ميلاً ، وبسطوا سيطرتهم على المنطقة الممتدة من حدود قطر إلى ما وراء خورفكان ، حتى أن أشناص على ساحل خليج عُمان أصبحت تتبع لهم. (٢)

في بداية عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ومن أجل التأكيد على وجودهم في مياههم الإقليمية، وعلى أنهم أصحاب الحق في الخليج العربي ، وليس لشركة الهند الشرقية البريطانية ، أو أية قوة أوروبية أخرى ذلك الحق، سيطر القواسم على السفينتين البريطانييتين شانون (Shannon) و تريمر (Trimmer) التابعتين للمقيم البريطاني في البصرة مانيستي Manesty ، وأعادوا تسليحهما وضمهما إلى الأسطول القاسمي بعد تطهيرهما، وبعد فترة وجيزة قاموا بالاستيلاء على الطراد البريطاني مورنينجتون (Mornington) وشنوا هجوماً على السفينة الحربية البريطانية كوين (Queen) قرب مسقط في عام ١٨٠٥م، لكن السفينة تمكنت من صدّ الهجوم. وبالتالي لم يكن القواسم يشكلون قوة اقتصادية وتجارية منافسة للأسطول البريطاني فقط ، بل كانوا يعيقون أيضاً

(١) عبد الرحيم ، عبد الرحيم : المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٢) عساف ، ناجي ، والسالمي ، محمد بن عبد الله : المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

سياسة الهيمنة الاستعمارية البريطانية في منطقة الخليج العربي. وبتكرار هجمات القواسم على سفن شركة الهند الشرقية البريطانية ، والتي بدأت تقلق الوجود البريطاني في الخليج العربي ، اقترح حاكم بومباي دنكان (Duncan) على الوكيل البريطاني في مسقط الكابتن سيتون تقديم المساعدة الحربية لحكومة مسقط في حربها ضد القواسم ، خاصةً بعد أن تمكن القواسم من الاستيلاء على ميناء بندر عباس في أعقاب اغتيال حاكم مسقط السيد سلطان بن أحمد آلْبوسعيد في عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٤م ، مما أدى بالتالي إلى سيطرتهم على جانبي مدخل الخليج العربي، فعدت بريطانيا ذلك تهديداً للملاحاة في المنطقة ، وبدأت تعمل بالتنسيق مع حاكم مسقط الجديد بدر بن سلطان الذي أبدى موافقته على منح البريطانيين ميناء بندر عباس أو جزء منه تقديراً لمساعدتهم. وبناء على هذه الموافقة صدرت الأوامر إلى الكابتن سيتون في مسقط في ٢ ذو الحجة ١٢١٩هـ / ٣ آذار ١٨٠٥م بمساندة حكومة مسقط في القضاء على القواسم ، لكن تلك الأوامر قيدت الكابتن سيتون بعدة قيود أهمها:

١. أن يكف نشاطه إذا تدخل الوهابيون حلفاء القواسم.
٢. أن يحاول التوصل إلى السلام عن طريق المفاوضات.
٣. أن يتفادى أية مشكلات أو صعوبات مع الحكومتين الفارسية والعُمانية .
٤. أن يعمل بالتنسيق مع المقيم البريطاني في البصرة مانيستي والمستر بروس المقيم البريطاني في بوشهر. (١)

١- الحملة البريطانية الأولى ضد القواسم في عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م :

تحركت القوات البحرية العمانية يساندها الأسطول البحري البريطاني في ١٨ ربيع الأول ١٢٢٠هـ / ١٥ حزيران ١٨٠٥م باتجاه ميناء بندر عباس لاستعادته من قبضة القواسم وحلفائهم من بني معين سكان جزيرة هرمز، وتم لهم ذلك بعد قتال استمر يوماً واحداً ، وفي ٧ ربيع الآخر ١٢٢٠هـ / ٣ تموز ١٨٠٥م تلقت القوات المتحالفة معلومات تفيد أن القواسم بدأوا يحركون أسطولاً بحرياً مكوناً من ثلاثين سفينة صغيرة من جزيرة قشم إلى ميناء بندر عباس لاستعادته من قبضة البريطانيين ، فأبحرت القوات البحرية العمانية مباشرة يساندها طراد الشركة البريطانية مورنينجتون، وأحكمت

(١) (السيابي ، سالم حمود : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، ص ٧٣ .

الحصار على أسطول القواسم ، الذي كان لا يزال بالقرب من سواحل جزيرة قشم ، رغم محاولات القواسم فك ذلك الحصار البريطاني - العماني عن الجزيرة .

أرسل القواسم الملا حسين شيخ جزيرة قشم إلى السيد بدر بن سلطان يعرضون عليه السلام وإبرام هدنة بين الطرفين المتحاربين ، فرحب بذلك نظراً لرغبته الشديدة في العودة إلى مسقط التي كانت تشهد اضطرابات داخلية ، واتفق الطرفان على أن يعيد القواسم السفينة تريمر (Trimmer) التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية خلال خمسة وعشرين يوماً ، وعلى إبرام هدنة بينهما لمدة سبعين يوماً . وفي ١٨ ذو القعدة ١٢٢٠هـ / ٦ شباط ١٨٠٦م وقع الطرفان على معاهدة نصت بنودها على مايلي :

١ . إقامة سلام بين شركة الهند الشرقية البريطانية و سلطان بن صقر القاسمي زعيم القواسم وأتباعه .

٢ . احترام كلا الطرفين لعلم وممتلكات و توابع الطرف الآخر ، على أن يدفع القواسم غرامة مالية كبيرة إذا خرقوا الاتفاق .

٣ . يتغاضى الكابتن سيتون عن المطالبة بحمولة السفينتين تريمر و شانون .

٤ . أن يقدم القواسم المساعدة والحماية للسفن البريطانية التي تنجح إلى شواطئهم ، وأن يزودوها بالوقود أو الماء .^(١)

وقد وقع المعاهدة عن البريطانيين الكابتن سيتون الوكيل البريطاني في مسقط ، وعن القواسم عبد الله بن كورش ، ثم اعتمدها سلطان بن صقر القاسمي زعيم القواسم ، والحاكم الفتي عام البريطاني في الهند في ١١ صفر ١٢٢١هـ / ٢٩ نيسان ١٨٠٦م .^(٢) ومما يلفت الانتباه أن بريطانيا لم تفرض أي تنازل على القواسم ، والأكثر من ذلك هو أن هذه المعاهدة اعترفت بسيادة القواسم وقوتهم البحرية ، لكن هذه المراعاة من قبل البريطانيين لم تكن منزهة عن المصلحة ، فقد كانوا يهدفون إلى كسب الوقت ، آنذاك ، في هذه المنطقة نظراً لانشغالهم بالصراع الذي عاد إلى الاشتعال بينهم وبين الفرنسيين في أوروبا .^(٣)

بعد التصديق على هذه المعاهدة ، سُمح للقواسم بزيارة الموانئ البريطانية من سورات

(١) فارس ، علي : المرجع نفسه ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
(٢) للاطلاع على تفاصيل الاتفاقية أنظر في الملاحق ص ١٧٠ .
(٣) غباش ، حسين : المرجع نفسه ، ص ١٦٦ .

حتى البنغال، وتوقفوا فترة من الزمن عن اعتراض أية سفينة تجارية بريطانية ، حسب ما تم الاتفاق عليه ، بسبب وجود أسطول بريطاني مكون من ثمانية طرادات مسلحة في منطقة الخليج العربي في عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م ، جاءت برفقة سفينة الملكة البريطانية لتهديد البصرة رداً على الأعمال العدائية المتبادلة بين بريطانيا والدولة العثمانية في أوروبا ، وظلت في مياه الخليج العربي مدة في عام كامل، بعد أن انتهت من مهمتها.(١)

٢ - الحملة البريطانية الثانية ضد القواسم (١٢٢٤-١٢٢٥هـ / ١٨٠٩م - ١٨١٠م):

في ظل الظروف السياسية المضطربة التي كانت تعيشها منطقة الخليج العربي، استطاع زعيم القواسم سلطان بن صقر القاسمي، استعادة خورفكان من سادة عُمان السيد سعيد ابن سلطان آلْبوسعيد والسيّد قيس بن أحمد آلْبوسعيد في ربيع الأول ١٢٢٣هـ / أيار ١٨٠٨م .

كانت استعادة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي السيطرة على خورفكان واحدة من انجازاته الكبرى ، لكنه خلع بعد بضعة أشهر من قيادة القواسم ، بعد استدعائه إلى الدرعية بأمر من الأمير سعود بن عبد العزيز، واحتفظ بسلطته المؤقتة على رأس الخيمة إلى أن انتزعت منه أيضاً في بداية في عام ١٢٢٣هـ / ١٨٠٩م قبيل الحملة البريطانية الثانية ضد القواسم ١٨٠٩ - ١٨١٠م ، وعيّن شيخ رمس حسين بن علي القاسمي، حاكماً على القواسم ، بما في ذلك على رأس الخيمة، حيث سيطر السعوديون على حصون الفجيرة والباطنة وخورفكان في الشيلية.(٢)

بعد خلع الشيخ سلطان بن صقر القاسمي ، قامت قوة بحرية قاسمية في عام ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م مكونة من أربعة مراكب عربية، بالهجوم على السفينة البريطانية ليفلي " Lively " التي كانت تحت قيادة اللفتانت ماكdonald ، أمام ساحل ولاية كوجيرات الهندية، إلا أن نيران مدفعية السفينة ردت بقوة على القواسم الذين انسحبوا من المعركة بعد هذه الحادثة .

في أوائل ربيع الأول ١٢٢٣هـ / أيار ١٨٠٨م وقع اشتباك بين عدد من قوارب القواسم

(١) السيابي ، حمود بن سالم : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، ص ٧٨ .

(٢) مختارات من الوثائق البريطانية ، تحقيق محمد عبد الله ، ص ٥٧ .

وبين طراد شركة الهند الشرقية البريطانية فيوري " Fury " ، وهو في طريقه من البصرة إلى بومباي ، وتكبد القواسم خسائر كبيرة في الأرواح ، وعند وصول الطراد إلى بومباي، تلقى قائده توبيخاً شديداً من رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية، لأنه خالف الأوامر التي تحظر على سفن الشركة الاشتراك في أعمال عسكرية بحرية ، وخصوصاً بعد التوقيع على معاهدة بين القواسم والشركة .^(١)

وفي العام نفسه استولى بحارة القواسم على سفينة تابعة للمستمر مانيستي المقيم البريطاني في البصرة تدعى " منيرفا " Minerva بالقرب من رأس مسندم ، وهي في طريقها من بومباي إلى البصرة ،^(٢) بقيادة الكابتن هوبود ، بعد أن دارت بينها وبين بحرية القواسم اشتباكات استمرت بضعة أيام متتالية ، وأُسرَ الضابط الثاني في السفينة وزوجة مساعد المقيم السياسي في بوشهر اللفتانت تايلور ، ونقلوا إلى رأس الخيمة ، حيث تم إطلاق سراح زوجة اللفتانت تايلور في وقت لاحق .^(٣)

بعد انقضاء أسابيع قليلة على حادثة السفينة منيرفا ، وفي ٢ رمضان ١٢٢٣هـ / ٢١ تشرين الأول ١٨٠٨م هاجم أسطول حربي قاسمي مكون من بضعة مراكب كبيرة سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية تدعى " سيلف " Silv على متنها ثمانية مدافع ، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد معركة شرسة مع طاقمها ، وأخذها إلى رأس الخيمة بعد أسر العديد من بحارتها .

وبعد أن أثبت القواسم قوتهم وشدة بأسهم، وحققهم الطبيعي بالعمل في مياههم الإقليمية ، طالب زعيمهم الشيخ حسين بن علي القاسمي ، حكومة بومباي بدفع ضرائب جمركية مقابل عبور سفنها في مياه الخليج العربي .

وهكذا دفعت هذه المناوشات العسكرية بين القواسم وسفن شركة الهند الشرقية البريطانية، ومطالب القواسم للشركة بدفع ضرائب جمركية مقابل العبور في مياه الخليج العربي ، رئاسة الشركة إلى القيام بحملة عسكرية ثانية ضدهم ، حيث أعطى الحاكم العام في الهند اللورد منتوه الضوء الأخضر بالتدمير الكامل والشامل لقوة القواسم

(١) فارس ، علي : المرجع نفسه ، ص ١٦٧ - ١٧٧. وأنظر: Low ,C. R : Vol 1 Op-Cit, P 320

(2) Miles ,S.B: op-Cit, P.313.

(٣) مختارات من الوثائق البريطانية : ص ٥٨.

البحرية المتصاعدة ، ولقبهم بالقراصنة ^(١) ، متناسياً أن تسمية القراصنة تنطبق على أولئك الأوروبيين الذين يجوبون البحار بعيداً عن أرضهم ، ويعتدون على عابري السبيل المسالمين في البحار ، ويهاجمونهم بمختلف الأسلحة ، ويقتلون الأبرياء وينهبونهم ، ويأتي البريطانيون في مقدمة القراصنة ، لأنهم جاؤوا من بلادهم يحملون أسلحتهم ، ويهاجمون سواحل البلاد التي يمرون بها، فهذه هي القرصنة ، وليس الذي يدافع عن أرضه ، ويحاول أن يثبت حقه في بلاده ومياهه الإقليمية.

وكان السيد سعيد بن سلطان آل بوسعيد حاكم عُمان قد طلب الاشتراك في هذه الحملة ، لتخفيف الضغط الوهابي السعودي في البريمي ، وتضمنت خطة الحملة تحييد الخطر السعودي عن كاهل حاكم مسقط ، وإبرام معاهدة إن أمكن مع القواسم بعد تدمير مراكزهم ، والحصول على معلومات طبوغرافية عن بلاد القواسم ، وبصفة خاصة عن موانئهم ، والبحث عن جزيرة مناسبة قريبة من ساحل القواسم واحتلالها واتخاذها قاعدة بحرية ، أو مقراً للمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي .^(٢)

تضمنت الأوامر الصادرة إلى القادة البحريين والعسكريين المسؤولين عن الحملة جميع هذه الأهداف ، وكلفتهم بتحقيقها ، إلا الهدف المتعلق برفع الضغط السعودي عن مسقط، حيث عدّ ذلك نتيجة غير مباشرة للحملة ، ولا يُعدّ من المهام التي كُلفَ بها الضباط التنفيذيون ، كما ركزت الأوامر على تفادي أي قتال مع القوات التابعة للأمير السعودي، أو إبداء أي عداوة تجاه السعوديين ، ومعاملة القواسم على أنهم قوة مستقلة بحد ذاتها ، لا ترتبط بالسعوديين بأي رابط .

وضعت قوات الحملة تحت قيادة الكومادور (جاي واينرايت) ، قائد سفينة صاحب الجلالة " شيفون " المجهزة بستة وثلاثين مدفعاً ، وتألفت قوة الحملة من سفينة صاحب الجلالة " كارولين " المزودة بستة وثلاثين مدفعاً ، وطرادات شركة الهند الشرقية البريطانية: " مورنغتون " المجهزة باثنين وعشرين مدفعاً ، تيرنيت المجهزة بستة عشر مدفعاً ، " نوتيلوس " المجهزة بأربعة عشر مدفعاً ، برنس أوف ويلز المزودة بأربعة عشر مدفعاً ، فستال المجهزة بتسعة عشر مدفعاً ، أورورا المزودة بأربعة عشر مدفعاً، ميركوري المجهزة بأربعة عشر مدفعاً ، آريال المجهزة بعشرة مدافع ، فيوري

(١) مختارات من الوثائق البريطانية : ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٦١ .

وتسليحها ثمانية مدافع، إضافةً إلى السفينة "سترومبولي" المزودة بمدافع الهاون ، والتي شحنت عليها القنابل والذخائر.

أما القوات البرية فقد تم حملها على أربع سفن نقل كبيرة تحت قيادة اللفتانت كولونيل ليونيل سميث ، وبلغ عددها ١٤١١ رجلاً من أوروبيين وهنود .^(١) في تلك الأثناء توفي مستشار الحملة السياسي المقيم في مسقط ، الكابتن سيتون ، قبل إبحار الحملة بشهر واحد ، كما توفي خليفته المستر بونس في مسقط قبل انطلاق الحملة أيضاً .

أبحرت الحملة من بومباي في ٤ شعبان ١٢٢٤هـ / ١٤ أيلول ١٨٠٩م ، ولم يمض أكثر من ٢٤ ساعة على إبحار الحملة حتى انهار قاع السفينة "سترومبولي" فغرقت ، وغرق معها معظم طاقمها ، وكل ما كانت تحمله من الإمدادات الرئيسية للحملة من الذخائر الثقيلة .

وصلت الحملة إلى مسقط يوم ١٥ رمضان ١٢٢٤هـ / ٢٤ تشرين الأول ١٨٠٩م، وانضم إليها الكابتن بيزلي وآخرون من أعضاء بعثة السير جون مالكولم الثالثة، الذين كانوا آنذاك في طريقهم إلى إيران .^(٢) وفي مسقط حصلت الحملة على مرشدين وزوارق إنزال .^(٣) ثم غادرتها في الثاني من تشرين الثاني ١٨٠٩م باتجاه رأس الخيمة. من جهة أخرى رفض الكابتن واينرايت عرضاً قدمه شيخ الكويت بالانضمام إلى الحملة البريطانية بكامل قوته البحرية ، وتوفير مرشدين يعرفون جيداً الطرق البحرية المؤدية إلى مواقع القواسم ، وقد ندم الكابتن واينرايت فيما بعد على رفضه هذا العرض ، حين تبين له أن المرشدين الذين حصلت عليهم الحملة من مسقط كانوا عاجزين عن تقديم المعلومات اللازمة للحملة.

وصلت الحملة البريطانية إلى رأس الخيمة في الحادي عشر من تشرين الثاني ١٨٠٩م ، لكن ضحالة المياه أمام سواحلها اضطرت السفن إلى الوقوف على مسافة تتراوح بين ميلين وأربعة أميال من الشاطئ ، ثم بدأت السفن بقصف مدينة رأس الخيمة بمدافع طيلة يوم الثاني عشر من تشرين الثاني من العام نفسه .^(٤)

(١) مختارات من الوثائق البريطانية : ص ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٣ .

(3) *Bombay Diaries 1778 – 1820 : diary No 10962 – 63-64 , 1089.*

(٤) فارس ، علي عبد الله : المرجع نفسه ، ص ١٧٨ .

دافع القواسم ببسالة وشجاعة نادرتين عن مدينة رأس الخيمة ، إلا أن البريطانيين تمكنوا في صباح يوم السادس من شوال ١٢٢٤هـ / الثالث عشر من تشرين الثاني ١٨٠٩م من فتح ثغرة في دفاعات المدينة ، واندفعوا عبرها إلى داخلها ، وعند ظهيرة اليوم نفسه تمكنوا من احتلال وسط المدينة ، في حين بقيت الأجزاء الشمالية منها تحت سيطرة القواسم ، الذين كافحوا ببسالة وجرأة كبيرة ، وأبدوا مقاومة عنيفة، وذلك حسب رواية أحد الشهود العيان من الذين شاركوا في هذه المعركة ^(١) ، وأخذ القواسم يشنون الهجمات المتتالية على البريطانيين من مواقعهم في البر والبحر ، فردت سفن شركة الهند الشرقية البريطانية على ذلك بتدمير أسطول القواسم وإحراقه . ^(٢)

وسط هذه الأحداث ترددت أنباء عن اقتراب قوات كبيرة من الوهابيين من مدينة رأس الخيمة ، ولما كانت تعليمات رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية تحظر الاشتباك مع الوهابيين داخل أراضي رأس الخيمة ، فقد أصدر قادة الحملة في صباح يوم السابع من شوال ١٢٢٤هـ / الرابع عشر من تشرين الثاني ١٨٠٩م أوامره بعودة الجنود البريطانيين إلى السفن والطرادات الراسية أمام شاطئ المدينة حتى لا يتورطوا في مواجهات برية لا يكون النصر حليفهم فيها . ^(٣)

وغادرت الحملة رأس الخيمة متوجهة إلى ميناء بلنجة (ميناء القواسم على الساحل الفارسي من الخليج العربي) وتمكنت من السيطرة عليه دون مقاومة تذكر في السابع عشر من تشرين الثاني ١٨٠٩م ، بعد إحراق وتدمير عشرين مركباً شراعياً ، من بينها تسعة مراكب حربية كبيرة.

وفي ظهيرة يوم التاسع عشر من ذي القعدة ١٢٢٤هـ / السادس والعشرين تشرين الثاني ١٨٠٩م ، عبرت الطرادات " مورنينغتون ، تيرنت ، ونوتيلوس ، وفيوري " تصحبهم سفينة النقل " ماري " مضيق كلارنس ، ورست قبالة ميناء لافيت ، وعلى متنها قوة برية مؤلفة من ٥٠٠ جندي ، معظمهم من الأوروبيين ، وصدرت الأوامر إلى القواسم وحلفائهم بالاستسلام ، لكنهم رفضوا ، وتحذوا القوات الغازية ، فأُنزلت قيادة الحملة ٣٠٠ جندي لاقتحام الحصن ، غير أن المدافعين عنه أبدوا مقاومة عنيفة ،

(1) Low , C. R : Op- Cit Vol. 1 pp. 327 – 330

(٢) فهمي محمد ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ١٤٤ .

(٣) فهمي محمد ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

والأحقوا هزيمة ساحقة بالمهاجمين ، الذين اضطروا تحت وابل من النيران الكثيفة إلى التراجع والتخلي عن مدفع هاوتزر عيار ٥,٥ بوصة ، كانوا قد أحضروه خصيصاً لتدمير الحصن ، وأجبرت القوات الغازية على الاحتماء خلف الكتبان الرملية، ولم تتمكن من الانسحاب إلا بعد حلول الظلام .^(١)

في تلك الأثناء وجهت قيادة الحملة إنذاراً نهائياً للملاحسين ، بالجلء عن الحصن ، لكنه رفض ذلك ، فتقرر اقتحامه مع ساعات الفجر الأولى من قبل قوة كبيرة ، وجرى إحراق أحد عشر مركباً بعد الاستيلاء عليها ، وسلمت المدينة إلى وكيل حاكم مسقط.

أ - معركة شنافس في شوال ١٢٢٤هـ / كانون الأول ١٨٠٩م :

بعد الحملة البريطانية الثانية ضدّ القواسم ، والاستيلاء على عدد كبير من مراكبهم وإحراقها ، وسيطرتهم على لافت وبلنجة ، تجددت الثقة في نفس السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي ، وأصبح أكثر حماساً لاستكمال تنفيذ برنامج حكومة بومباي بطرد القواسم من مينائي شنافس وخورفكان على الساحل الغربي لأراضي دولته، واتخذ قراراً بتنفيذ ذلك ، وجهز حملة عسكرية برية وبحرية ، حيث أبحرت السفينة كارولين مع السفن الحربية العمانية في السادس من كانون الأول ١٨٠٩م ، نحو خورفكان ولباء وشنافس بهدف استعادتها من قبضة القواسم ، وهاجمتها القوات العمانية بحراً وبراً ، وكان السيد سعيد يقود القوات البرية عبر الطريق الشمالي بمحاذاة ساحل الباطنة ، وهناك تعرضت لغارات وكمائن قام بها الفرسان القواسم الذين أوقعوا بها خسائر فادحة ، غير أن القوات العمانية المهاجمة تابعت تقدمها ، وتمكنت من الوصول إلى شنافس في الرابع والعشرين من ذي القعدة ١٢٢٤هـ / الحادي والثلاثين من كانون الأول ١٨٠٩م، وهناك واجهت مقاومة ضارية من جانب القواسم وصفها المؤرخ جون كيلي بقوله : (كان الدفاع عن هذا الموقع بطولياً خارقاً ، أبدى فيه المدافعون أقصى درجات البطولة والتضحية) .^(٢) وسط تلك المواجهات الدامية والبطولة التي أبداها المدافعون القواسم عن شنافس ، عرض القائد البريطاني " واينرايت " على حامية القلعة الاستسلام ، لكن المدافعين عنها رفضوا عرضه (باستهزاء) ، فلجأ البريطانيون إلى قصف القلعة بالمدافع يوماً كاملاً ، وفي اليوم التالي قاموا بإنزال جميع قواتهم على الساحل ، وقصفوا الحصن بأكثر من

(١) مختارات من أهم الوثائق البريطانية : ص ٦٦ .

(2) Kelly , John : Op – Cit, p. 119.

أربعة آلاف قذيفة ، ورغم ذلك صمدت الحامية القاسمية المدافعة عن الحصن في شناصر ، وفي السابع والعشرين ذي القعدة ١٢٢٤هـ/ الثالث من كانون الثاني ١٨١٠م انهار أحد أبراج الحصن نتيجة القصف المستمر ، وسمعت صيحات الله أكبر من المدافعين عنه، فقرر القائد البريطاني شنّ هجوم شامل لإضعاف مقاومة القواسم ومن معهم من أجل الاستيلاء على القلعة .^(١)

كانت معركة حصن شناصر من أشرس المعارك التي خاضتها قوات شركة الهند الشرقية البريطانية وحلفائها ، ووصل الأمر إلى درجة اشتباك المتقاتلين رجل لرجل بالبنادق والغارات والرماح والسيوف . وفي الساعة الخامسة من مساء الثالث من كانون الثاني ١٨١٠م تمكنت القوات البريطانية والعمانية ، من السيطرة على الجزء الرئيسي من الحصن ، ومع ذلك ظلت المعركة والمقاومة مستمرة .^(٢)

وقد وصف الكولونيل سميث قائد الحملة البريطانية في تقريره الذي بعثه إلى الحاكم الفي عام للشركة في الثامن من كانون الثاني ١٨١٠م المدافعين عن الحصن بقوله :
(يصعب تصور مقاومة أكثر إصراراً من تلك التي أبداهـا المدافعون عن هذا الموقع).^(٣)

وقد تورط واينرايت في هجومه على شناصر إذ أن قلعتها كانت في داخل البحر وبعيدة عن الشاطئ ، مما اضطره إلى إنزال قواته على الشاطئ ، واصطدم بالقوات الوهابية التي كانت تدافع عن القلعة ، ثم اضطر القائد السعودي فيما بعد إلى تسليم القلعة للقوات التابعة للسيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط ، والذي وجد أنه من الأفضل أن لا يحتفظ بها ، لأن الميناء قد تم تدميره تماماً .

بعد الهجوم على شناصر ، وبسبب المقاومة الباسلة التي أبداهـا القواسم وحلفائهم ودفاعهم المستميت عنها ، وتكبيد المهاجمين خسائر فادحة ، وشعور السيد سعيد بن سلطان بتورطه في الصراع مع السعوديين ، أحس البريطانيون أن العهود التي قطعوها للسيد سعيد باسترجاع بقية الأراضي من القواسم ستجلب عليهم الضرر أو الخطر ، فانسحبوا ، ولم يتمكنوا من مهاجمة بقية الموانئ القاسمية الأخرى ، فبقيت كلبا

(١) الجبوري ، عبد الكريم : المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(2) Kelly , John : Op –Cit , p. 120.

(٣) الجبوري ، عبد الكريم : المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

وخورفكان في أيدي القواسم .

ب - نتائج الحملة :

على الرغم من كبر حجم الحملة العسكرية البحرية التي قامت بها شركة الهند الشرقية البريطانية ضد القواسم بالتعاون مع القوات العمانية، إلا أنها لم تأت بالنتائج المرجوة ، ولم تحقق كل الأهداف التي أرسلت من أجلها ، ولم تتمكن الحملة من تدمير القوّة البحرية الضاربة للقواسم ، فعندما علم القواسم بقدوم الحملة قاموا بإخفاء العديد من سفنهم في الأخوار العميقة غربي رأس مسندم، ولم يتحقق هدف الحملة الخاص بإعادة السيطرة على بعض المواقع التي انتزعها القواسم من سلطان مسقط ، وجلب إليه تعاونه مع البريطانيين عدااء الوهابيين الذي ظل يعاني منه طويلاً . (١)

وبما أن شيخ القواسم الشرعي ، سلطان بن صقر القاسمي، كان ما يزال في تلك الفترة مسجوناً في الدرعية ، ولا سلطة له على قبيلته، لم تجر أي محاولة لعقد معاهدة صلح بين القواسم وشركة الهند الشرقية البريطانية ، لذلك فقد اعتقد البريطانيون أن خطر القواسم انتهى من الناحية العملية ، بعجز القواسم عن القيام بأي نشاط بحري جديد ، واقتصرت مناقشات رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية على المقترحات الرامية إلى منع ظهوره من جديد في الخليج العربي، وقد أشار المستر مانيستي المقيم السياسي في البصرة ، إلى ضرورة قيام الحكومة البريطانية بفرض حظر على تصدير الأخشاب من الهند إلى مسقط وموانئ الخليج العربي ، وتم تبني هذا الاقتراح، الذي دعمه أيضاً الجنرال مالكولم ، مندوب بريطانيا لدى إيران ، غير أن هذا الحظر كان عديم الجدوى. من ناحية أخرى عكست هذه الحملة ، رغبة بريطانيا الدفينة في فرض سيطرتها الكاملة على الخليج العربي ، وترسيخ وجودها العسكري فيه ، كما أظهرت في الوقت ذاته ، أن فرقة العرب تشكل العامل الحاسم والخطير الذي شجّع ويشجع المستعمرين على الهيمنة على المنطقة، ويساعدهم في تحقيق أهدافهم ، وأن الصداقة مع المستعمرين رهان خاسر ، ولا تعني غير التواطؤ والتبعية لهم .

بعد انتهاء الحملة العسكرية الثانية ضدّ القواسم وقع الطرفان على معاهدة في عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م لإنهاء حالة الحرب بينهما ، نصت بنودها على مايلي:

(١) فهمي محمد ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ١٤٨ ، وأنظر أيضاً :

Bombay Diaries 1778 – 1820 No.347of 1809, pp 11171.

١. احترام القواسم للعلم البريطاني ، وعدم التصدي لأي سفينة تحمل ذلك العلم.
٢. التزام القواسم بفتح موانئهم أمام الرعايا البريطانيين للتجارة .
٣. للقواسم الحرية في ممارسة التجارة في الخليج العربي على أن يرفعوا علماً أحمر مكتوب عليه " لا إله إلا الله محمد رسول الله " كرمز لسفن القواسم^(١) ولم يمض وقت طويل حتى استعاد القواسم قوتهم، واستأنفوا نشاطهم البحري بقوة لممارسة حقهم في الإبحار في مياههم الإقليمية^(٢)، وازداد نشاط القواسم العسكري بدرجة كبيرة خاصة في عام ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥م عندما أصدر زعيمهم الشيخ حسن بن رحمة القاسمي أوامره إلى وحداته البحرية بالقضاء على كل ما يصادفها من سفن بريطانية وهندية.^(٣) الأمر الذي دفع رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية إلى تجهيز حملة عسكرية ثالثة ضد القواسم.

٣- الحملة البريطانية الثالثة ضد القواسم عام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م :

لم تتوقف نشاطات القواسم البحرية ضد السفن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية بعد الحملة العسكرية الثانية والحروب التي شنتها ضدهم، وعُدّ ذلك خرقاً لمعاهدة عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م ، مما دفع الحكومة البريطانية إلى إعداد حملة عسكرية ثالثة في عام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م . فقد وصلت إلى رئاسة الشركة في بومباي معلومات تفيد بأن القواسم وسعوا نشاطهم العسكري والتجاري حتى وصل إلى البحر الأحمر ، على نحو أصبح معه يهدد التجارة بين الهند ومخا ، وتزامنت تلك التطورات مع اشتباك دورية بحرية تابعة للقواسم مع الطراد البريطاني أورورا (Aurora) ذي الأربعة عشر مدفعاً ، الذي كان يقوم بحراسة سفينة عُمانية ، تحمل أموالاً للسيد سعيد بن سلطان البوسعيدي .

خلال شهر ربيع الآخر ١٢٣١هـ / آذار ١٨١٦م ، وسع القواسم دائرة عملياتهم العسكرية ضد السفن الأجنبية في مياه الخليج العربي، وشنوا هجوماً على عدد من السفن البريطانية والأميركية والفرنسية ، من بينها السفينتين البريطانيتين " سننرا " Centra و " ماكولاي " Macaulay والسفينة الأميركية فارس " Persia " .^(٤)

(١) الجبوري ، عبد الكريم : المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(2) Wilson, Arnold : Op – Cit , p. 205.

(3) Miles, Samuel : Op – Cit , p.321.

(٤) حنظل ، فالح : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

أثارت العمليات العسكرية البحرية الجريئة التي قام بها القواسم غضب رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي ، وعدّت خرق معاهدة في عام ١٨١٤م ، التي أنهت الحملة البريطانية الثانية ، تحدياً صارخاً لنفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي .

وفي ردّ من جانبها على تلك الأحداث ، أرسلت رئاسة شركة الهند الشرقية البريطانية في شوال ١٢٣١هـ / أيلول ١٨١٦م حملتها العسكرية الثالثة ضد القواسم بقيادة الكابتن بريدجز (P.H Bridges) قائد السفينة البريطانية تشالنجر (Challenger) وبرفقته الطرادان ميركوري وفيستال ، لمساعدة المستر بروس في استعادة حمولة سفن سوريات الهندية من القواسم ، وأعطيت التعليمات للكابتن بريدجز بعدم اتخاذ أي موقف هجومي ضد القواسم قبل أن يتم تدعيم القوة العسكرية المرافقة له، بسبب عدم قدرة القوة البحرية البريطانية الموجودة في الخليج العربي في تلك الفترة على مواجهة أسطول القواسم.^(١)

وصل أسطول الحملة الثالثة إلى ميناء بوشهر في ذي القعدة ١٢٣١هـ / تشرين الأول ١٨١٦م ، وفي الثامن من تشرين الثاني من العام نفسه أبحر نحو شاطئ رأس الخيمة معقل القواسم ، علماً أن الشارقة كانت في حينها العاصمة ، وبدأت قيادة الحملة في السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٨١٦م اتصالاتها مع زعماء القواسم ، في محاولة منها لاستعادة حمولة سفن سوريات ، بيد أن المحاولة باءت بالفشل ، ورد شيخ القواسم حسن بن رحمة القاسمي على المطالب البريطانية بقوله : إنه لم يخرق معاهدة عام ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م ، لأنه لا يعترف بالهنود كتابعين للبريطانيين ،^(٢) وبالتالي لا يمكن إعادة حمولة سفن سوريات الثلاث ، وقد عبر بكنجهام " Bickingham " الكاتب البريطاني المرافق للحملة عن دهشته ، لأن القواسم الذين دمر أسطولهم خلال حملة عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م استعادوا بسرعة مذهلة قوتهم العسكرية ، وغطوا بسفنهم البحار من الخليج العربي حتى المحيط الهندي .^(٣)

وبينما كان قائد الحملة الكابتن بريدجز والمقيم البريطاني في بوشهر المستر بروس

(١) فهمي محمد ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .

(2) Low, C.R : op-cit, Vol I .pp. 343-344.

(3) Ibid, Vol I .p. 342.

يناقشان رد زعيم القواسم ، هبت من جهة الشمال الغربي من الخليج العربي عاصفة قوية أجبرت الأسطول البريطاني على الإبحار إلى عرض البحر بالقرب من جزيرة قشم ، ولم يتمكن من العودة إلى رأس الخيمة إلا في الثلاثين من تشرين الثاني ١٨١٦م، حيث طالب من جديد القواسم بالتعويض عن حمولة سفن سوريات ، إلا أن القواسم رفضوا مرة أخرى ، فاتفق الكابتن بريدجز مع المستر بروس (متجاهلاً تعليمات حكومته بعدم اتخاذ أي موقف هجومي ضد القواسم) وأطلق النار على سفن القواسم الراسية في الميناء ، فردّ القواسم بالمثل ، وكانت رمايات نيران القواسم أكثر دقة، فاضطر بريدجز إلى التوقف عن إطلاق النار والإبحار بعيداً عن ساحل رأس الخيمة.(١)

أدت مخالفة قيادة الحملة البريطانية الثالثة للتعليمات الموجهة إليها ، والدخول في معركة مع القواسم ، إلى فشل الحملة في تحقيق أهدافها وإلى زيادة ثقة القواسم بأنفسهم واستهانتهم بالوقت ذاته بالقوة البريطانية ، حيث زال ترددهم في مهاجمة سفن شركة الهند الشرقية البريطانية ظناً منهم أن بريطانيا عاجزة عن مقاومتهم . (٢)

ما أن غادرت سفن الحملة البريطانية الثالثة ميناء رأس الخيمة ، حتى عادت نشاطات القواسم البحرية من جديد ، وفرضوا سيطرتهم العسكرية على مياه الخليج العربي ، وأصبحوا أقوى قوة عربية في المنطقة ، ووصلت القوة البحرية القاسمية في حينها إلى الذروة ، وأدى ذلك إلى انهيار هيبة بريطانيا في الخليج العربي ، مما أجبر السلطات البريطانية على إبقاء أسطولهم في المنطقة ، وإتباع نظام حراسة شديد وجديد لقوافلها التجارية وسفنها العسكرية ، ودخل الطرفان في صراع عنيف استمر مدة ثلاث سنوات (١٢٣٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨١٧ - ١٨١٩م).

وتوسعت ساحة القتال بين القواسم والبريطانيين ، حتى شملت سواحل الهند والخليج العربي ، ورغم ذلك لم تؤد هجمات القوات البريطانية واعتداءاتها إلى نتيجة حاسمة ، وكتب حاكم بومباي إلى الحاكم العام في الهند يخبره بذلك قائلاً : " بالرغم من كل جهودنا فإننا عجزنا عن تحطيم القواسم ، ولم يبق أمامنا إلا إعداد حملة عسكرية قوية

(١) فارس ، علي : المرجع نفسه ، ص ١٨٤ . وأنظر أيضاً ، فهمي محمد، عبد القوي : المرجع نفسه، ص ١٥٦.

(2) Belgrave .S.C.: *The Pirate Coast*, 1st Ed, London, 1966, p.37.

لتحطيم أساس قوتهم " . (١)

ويبدو أن حاكم بومباي كتب هذه الرسالة بسبب تصاعد ضربات القواسم في تلك الفترة ضد الأسطول البريطاني وسفنه ، فقد اعترض القواسم في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م السفن البريطانية وهاجموها على مسافة ستين ميلاً من بومباي ، وكان هجوماً عنيفاً لدرجة جعلت السلطات البريطانية في الهند تصرُّ على ضرورة حشد قواتها العسكرية بكل طاقاتها وإمكاناتها الضاربة لإعادة مهاجمة القواسم وتدمير قوتهم نهائياً . (٢)

وهكذا أصبح من المحتم على رئاسة مجلس شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي القيام بعمل عسكري كبير ، يكسر هيبة القواسم ، ويعمل على ترسيخ السيطرة البريطانية في الخليج العربي ، خاصة وأن الظروف التي كانت تمر بها الهند آنذاك ساعدت شركة الهند الشرقية البريطانية على اتخاذ تلك الخطوة ، إذ أصبحت للشركة في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م السلطة العليا في شبه القارة الهندية ، وأصبحت تمتلك بصورة مباشرة وادي الكنج حتى دلهي ، والمنطقة الساحلية المطلّة على المحيط الهندي ، والمناطق الساحلية الممتدة من البنغال إلى الجنوب ، وتمكنت بذلك من إظهار قوتها في منطقة المحيط الهندي (٣) ، فتوجّهت لترسيخ قوتها وتكريس وجودها في الخليج العربي ، خاصة بعد أن أصبح لدى رئاسة الشركة قوات متوفرة للعمل خارج شبه القارة الهندية منذ عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ، دفاعاً عن مصالحها ومصالح أتباعها من التجار الهنود ورأت الشركة أن الفرصة مناسبة لها للقيام بهذه المهمة ، عندما قامت قوات محمد علي باشا في مصر بالقضاء على الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى حلفاء القواسم في عقر دارهم في الدرعية في عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ، مما مكنها من توجيه حملة عسكرية رابعة للقضاء على خطر القواسم نهائياً دون خوف من التورط في حرب برية مع القوات الوهابية . (٤)

(١) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ، ص ١٧١ .

(٢) الجبوري ، عبد الكريم : المرجع نفسه ، ص ١٥٦ .

(٣) بانكيار ، ك.م : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢م ، دط ، ص ١٠٦ .

(٤) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ٣١٥ .

٤ - الحملة البريطانية الرابعة ضد القواسم عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م :

أتاح تقدم قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم باشا داخل شبه الجزيرة العربية والاستيلاء على الدرعية معقل الوهابيين وعلى نجد وكافة المناطق التابعة للدولة السعودية الأولى في صيف عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م الفرصة لشركة الهند الشرقية البريطانية كي توجه ضربتها الكبرى ضد القواسم ، خاصةً بعد أن فقدوا حليفاً برياً قويا كان يقدم لهم الدعم والمساندة اللازمة لعملياتهم البحرية العسكرية ^(١) ، ورأت رئاسة الشركة في بومباي أنه من الضرورة بمكان التنسيق في خططها الرامية للقضاء على القواسم مع محمد علي باشا حاكم مصر والسيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيد حاكم مسقط .

في السادس من ربيع الأول ١٢٣٤هـ / الثاني كانون الثاني ١٨١٩م بعث الحاكم البريطاني في الهند فرنسيس راودن هاستنجر (١٨١٣ - ١٨٢٣م) رسالة إلى إبراهيم باشا قائد قوات محمد علي باشا في الجزيرة العربية، حملها إليه الكابتن فورستر سادلير (F. Sadlier) أحد ضباط الفرقة السابعة والأربعين من قوات المشاة الهندية ^(٢) يهنئه فيها بانتصاره على الوهابيين ، واستيلائه على معاقلمهم في الدرعية، ويدعوه إلى القيام بعمل مشترك ضد القواسم . ^(٣)

في الواقع كانت بعثة سادلير سياسية استطلاعية ، ظاهرها تهنئة إبراهيم باشا بما حققه من انتصارات على الوهابيين ، وباطنها رصد تحركات وعمليات إبراهيم باشا القادمة في منطقة الخليج العربي ، دون أن يلحظ إبراهيم باشا ذلك . ^(٤)

أما بالنسبة للسيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيد حاكم مسقط ، فقد تبين لسادلير أنه لا يحبذ فكرة التعاون مع المصريين ، وألمح للكابتن سادلير أن حكمه قد يتعرض للخطر إذا قبل التعاون مع قوات إبراهيم باشا ، كما أنه لا يحبذ ظهور منافس لطموحاته في منطقة الخليج العربي . وبعد المحادثات التي أجراها سادلير في مسقط ، غادر إلى الإحساء ، ثم توجه إلى جدة لمقابلة إبراهيم باشا في التاسع عشر من ذي القعدة ١٢٣٤هـ / الثامن

(١) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي : ص ٣١٥ .

(2) Miles , S.B : Op – Cit p. 324 .

(٣) جاكين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٣م ، دط ، ص ٢٤٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٤٧ .

من أيلول ١٨١٩م ، حيث جرت مناقشات موسعة بين الطرفين ، فشل خلالها الكابتن سادلير في إقناع إبراهيم باشا بالموافقة على مقترحاته التي كانت تقضي بتنفيذ هجوم بريطاني - مصري مشترك على القواسم ، واضطر للعودة إلى الهند عن طريق جدة في السادس والعشرين المحرم ١٢٣٥هـ/ الرابع عشر من تشرين الثاني ١٨١٩م ، (١)

الأمر الذي جعل حكومة بومباي تخطط بالاعتماد على قوات الشركة فقط لضرب القواسم وتدمير قواتهم البحرية ، معتمدة في ذلك على تقرير استخباراتي وضعه روبرت تايلور (R. Taylor) عن مواقع وموارد الموانئ الرئيسية للقواسم وخلافاتهم السياسية، إضافة إلى معلومات أخرى عن القبائل العربية المجاورة لهم. (٢)

في الثامن من محرم ١٢٣٥هـ/ السابع والعشرين تشرين الأول ١٨١٩م ، صدرت الأوامر إلى الميجر جنرال السير وليم جرانت كير (W. Grant Keir) بقيادة الحملة البريطانية الرابعة إلى رأس الخيمة، وتدمير الأسطول القاسمي ، الذي كان يمتلك ما يقارب من تسع وثمانين سفينة كبيرة ، ومائة وستين سفينة صغيرة ، وعشرة آلاف وثلاثمائة مقاتل تقريباً ، وتكونت الحملة من ثلاثة آلاف وتسع وستين محارباً ما بين جنود أوروبيين وهنود ، ومن اثنتي عشرة سفينة حربية، منها ثلاث سفن تابعة للبحرية البريطانية ، وهي ليفربول Liverpool ، وإيدن Eden، وكورلو Curlew، وتسع سفن تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية ، إضافة إلى ثماني عشرة سفينة لنقل الجنود . (٣)

في ظل تلك الأوضاع المشحونة بالتوتر ، والاستعدادات الجارية لشن الحرب على القواسم في رأس الخيمة ، وجد الشيخ حسن بن رحمة نفسه محاطاً بتحالف عُماني - بريطاني يريد القضاء على القواسم ، فقام الشيخ سلطان بن صقر القاسمي الذي استعاد منصبه في الشارقة ، وراشد بن حميد شيخ دبي ، الذي كان في حالة تحالف دائم مع

(١) لوريمر: القسم التاريخي، ج.٢، ص ١٠١٢ - ١٠١٣ .

(٢) يوضح التقرير الاستخباراتي أن الموانئ هي رأس الخيمة والجزيرة الحمراء وأم القيوين وعجمان والشارقة ودبي والزبارة وخورفكان والقطيف والعقير . أنظر :

India Office Records: Arabian gulf Intelligence, from the records of Bombay Gov, , A historical and other INF connected with Muscat Adjoining Countries , By R.Tylor, pp. 1 – 4

(٣) فارس ، علي عبد الله : المرجع نفسه ، ص ١٨٨ . وأنظر أيضاً في الملاحق تفاصيل القوات البرية والبحرية للحملة البريطانية ، ص ١٧٠ .

القواسم ، بالتحالف والتنسيق مع الشيخ حسن بن رحمة القاسمي ، ومع القواسم المتواجدين على الساحل الشرقي للخليج العربي ، خاصةً في بلنجة التي كانت في ذلك الوقت أكبر الموانئ على ذلك الشاطئ . واتخاذ موقف موحد لمواجهة الخطر البريطاني الجديد .

أبحرت الحملة البريطانية في الخامس عشر المحرم ١٢٣٥هـ/ الثالث من تشرين الثاني ١٨١٩م ، من بومباي باتجاه مدينة رأس الخيمة بقيادة الجنرال كير ، ووصلت إلى مدينة مسقط في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٨١٩م ، حيث وعد السيد سعيد بن سلطان آلْبوسعيد حاكم مسقط الجنرال كير بأن يقدم له قوّة داعمة للحملة قوامها أربعة آلاف جندي وثلاث سفن حربية، رغبةً منه في أن تمكنه بريطانيا من تحقيق حلمه في بسط نفوذ عُمان على منطقة الخليج العربي . (١)

غادر وليم جرانت مسقط في الخامس والعشرين محرم ١٢٣٥هـ/ الثامن عشر من تشرين الثاني ١٨١٩م نحو جزيرة قشم ، ومنها توجه إلى رأس الخيمة تصحبه السفينة بناريس بقيادة الكابتن كولير " Collier " الذي عاد إلى جزيرة قشم للإسراع في إرسال قوارب النقل اللازمة للهجوم نظراً لاقتراب فصل الرياح الشمالية ، التي إن هبت ستؤدي إلى فشل الحملة .

في الخامس عشر من صفر ١٢٣٥هـ/ الثالث كانون الأول ١٨١٩م أنزل ضباط وجنود الحملة البريطانية الرابعة على شاطئ رأس الخيمة تحت غطاء نيران مدفعية الزوارق والسفن الحربية بإشراف الكابتن لوش Loch . (٢)

وعلى الطرف الآخر بادر القواسم إلى تعزيز وسائل الدفاع لديهم ، فأقاموا سوراً حول رأس الخيمة ، وتصدوا للهجوم البريطاني بمدافعهم ، إلا أنهم خسروا المعركة التي استمرت ستة أيام (من الثالث حتى التاسع من كانون الأول ١٨١٩م)، وبلغت خسائرهم ألف قتيل وجريح وأسير .

ولم تستطع قوات القواسم الصمود في وجه التحالف البريطاني - العماني، وفشلت في صدّ هذه الحملة الضخمة ، فقرر زعيم القواسم حسن بن رحمة القاسمي طلب السلام مع

(1) Low, R: Vol1, Op-Cit ,p. 352. also : *Bombay Diaries 1778 – 1820 : diary No314, , from 13-16Nov1819.*

(2) Low ,R : vol 1 , Ibid ,p.353

شركة الهند الشرقية البريطانية ، مقابل استسلام رجاله للجنرال جرانت كير ، (١) بعد أن تقدمت القوات البريطانية إلى رأس الخيمة ، ودمرتها تدميراً كاملاً ، وأحرقت معظم سفن الأسطول القاسمي أو أغرقتها ، وأنزل العلم القاسمي ذي اللون الأحمر ، ورفع العلم البريطاني في سماء رأس الخيمة . (٢)

بعد استسلام القواسم الأقوياء ، استسلم جميع زعماء القبائل العربية الأخرى في الخليج العربي خوفاً من قيام القوات البريطانية بعمل مماثل ضد مدنها ، وقدموا الولاء لقائد الحملة الجنرال وليم جرانت ، وأعربوا عن استعدادهم للتعاون معه من أجل إقامة السلام في المنطقة ، خاصة بعد إحكام بريطانيا سيطرتها على موانئ بلادهم . (٣)

بادر الجنرال وليم كير ، إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ خطته التي تقوم على عقد اتفاقيات تمهيدية مع كل شيخ من شيوخ المنطقة على حده ، تضمن تسليم ما تبقى من أسرى بريطانيين وهنود لديهم ، وتسليم المدافع والحصون لقيادة الحملة البريطانية . وفي ما يلي أهم تلك الاتفاقيات:

أ - الاتفاقية البريطانية مع الشيخ سلطان بن صقر القاسمي

كانت أولى الاتفاقيات التمهيدية مع شيخ الشارقة ، سلطان بن صقر القاسمي ، حيث وقع مع الجنرال كير عن الجانب البريطاني في العشرين من ربيع الأول ١٢٣٥هـ / السادس من كانون الثاني ١٨٢٠م ، وقد نصت على ما يلي :

المادة (١) يقوم سلطان بن صقر بتسليم كافة الحصون والقلاع والمدافع الموجودة بالشارقة وعجمان وأم القيوين إلى الجنرال كير ، وسيتترك الجنرال مراكب صيد اللؤلؤ ومراكب صيد الأسماك ، أما بقية المراكب فستكون تحت تصرف الجنرال .

المادة (٢) يقوم الشيخ سلطان بن صقر بتسليم جميع الأسرى من الهنود والإنكليز الذين عنده إن وجدوا .

المادة (٣) لن يسمح الجنرال كير للقوات البريطانية بدخول المدن لنهبها وتخريبها .

المادة (٤) بعد هذا الالتزام سيقوم سلطان بن صقر بالتوقيع على المعاهدة العامة .

(١) فهمي ، عبد القوي : المرجع نفسه ، ص ١٧٦ .

(٢) العابد ، صالح : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠م ، ص ٣٢٣ .

(٣) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول ، ص ٣٢٣ .

وبهذه الشروط تكون حالة العداء بين الجنرال وبين سلطان بن صقر وأتباعه قد انتهت. (١)

ب - الاتفاقية البريطانية مع الشيخ حسن بن رحمة القاسمي:

بعد التوقيع على الاتفاقية الأولى مع شيخ الشارقة وقع البريطانيون على اتفاقية ثانية مع شيخ رأس الخيمة حسن بن رحمة القاسمي في الثاني والعشرين ربيع الأول ١٢٣٥هـ / الثامن من كانون الثاني ١٨٢٠م، تضمنت المواد التالية:

المادة (١) تبقى في يد الحكومة البريطانية بلدة رأس الخيمة والأبراج القائمة في مزارع النخيل قرب البلدة .

المادة (٢) يجب على الشيخ حسن تسليم أي سفينة لديه خارج رأس الخيمة ، عدا سفن صيد اللؤلؤ والأسماك.

المادة (٣) يُسلم حسن بن رحمة كافة الأسرى الهنود عنده .

المادة (٤) بعد هذا الالتزام سيقوم سلطان بن صقر بالتوقيع على المعاهدة العامة. (٢)

ج - الاتفاقية البريطانية مع شيخ دبي القاصر محمد بن هزاع بن زعل ونائبه أحمد بن فطيس:

جرى التوقيع على هذه الاتفاقية في التاسع من كانون الثاني ١٨٢٠م، وتضمنت المواد التالية :

المادة (١) يقوم أهالي دبي بتسليم جميع السفن والمدافع الموجودة في الأبراج ، عدا مراكب صيد اللؤلؤ والأسماك.

المادة (٢) تسليم كافة الأسرى من الهنود أو البريطانيين .

المادة (٣) عدم السماح للقوات البريطانية بدخول المدن لنهبها وتخريبها .

المادة (٤) بعد هذا الالتزام سيقوم محمد بن هزاع بن زعل وأتباعه بالتوقيع على معاهدة السلم العامة أسوة ببقية العرب والأصدقاء المسالمين. (٣)

د - الاتفاقية البريطانية مع شيخ أبو ظبي شخبوط بن ذياب بن عيسى آل نهيان:

(١) الصايغ ، فاطمة : الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة ، العين ٢٠٠٠م ، ط٣ ، ص ١٠٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

(٣) الصايغ ، فاطمة : المرجع نفسه ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

وقعت الاتفاقية في الحادي عشر من كانون الثاني ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م ، ونصت على :
المادة (١) في حال وجود أي سفينة تابعة للقواسم قد يصادفها الجنرال كير في الحرب
الحالية ، يجب تسليمها فوراً للجنرال كير .

المادة (٢) بعد هذا الالتزام سيقوم الشيخ شخبوط بالتوقيع على المعاهدة العامة للسلم.^١
هـ - الاتفاقية البريطانية مع شيخ رمس وضاية حسن بن علي :

تم التوقيع على هذه الاتفاقية في الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٢٠م ، وتضمنت ما
يأتي:

المادة (١) تسليم كافة السفن العائدة للشيخ في الشارقة ورأس الخيمة وأم القيوين أو
في عجمان وأبو ظبي لقوات الجنرال كير ، عدا سفن الصيد .

المادة (٢) تسليم كافة الأسرى من هنود وبريطانيين للجنرال كير .

المادة (٣) بعد هذا الالتزام سيقوم حسن بن علي بالتوقيع على المعاهدة العامة .
تجدر الإشارة إلى أن الجنرال كير لم يوقع معاهدة تمهيدية مع شيخي عجمان وأم
القيوين ، اللذين وقعا على المعاهد العامة في عام ١٨٢٠م فيما بعد .^(٢)

**٥ - المعاهدة العامة للسلام بين القبائل العربية والحكومة البريطانية في
عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م**

بعد التوقيع على الاتفاقات التمهيدية بين شيوخ القواسم والبريطانيين ، أدمجت تلك
الاتفاقيات المنفردة في معاهدة واحدة عرفت باسم " معاهدة السلام العامة " ، وقعها
شيوخ القواسم مجتمعين في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٨٢٠م ، وترك الباب
مفتوحاً لمن يرغب من الشيوخ بالانضمام إليها ، وتضمنت المعاهدة على المواد التالية :
■ (المادة ١) تمتنع الأطراف الموقعة على هذه المعاهدة عن ممارسة جميع أنواع "
السلب والنهب " في البر والبحر بشكل دائم.

■ (المادة ٢) يباح دم ومال أي كان من العرب الموقعين على تلك الاتفاقية إذا قام
بمهاجمة أي شخص مسافر مهما كانت جنسيته .

■ (المادة ٣) ترفع سفن القبائل العربية الموقعة على المعاهدة ، علماً أحمرًا خلفيته
بيضاء اللون لتدل على جنسيتها ، ويحرم عليها استعمال علم آخر غيره .

(١) الصايغ ، فاطمة : المرجع نفسه ، ص ١٠٨

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

- (المادة ٤) تكون العلاقات بين القبائل العربية وبين شركة الهند الشرقية البريطانية علاقات صلح وسلام.
 - (المادة ٥) يجب أن تحمل السفن العربية وثيقة بأسماء بحارتها، وحجم السفينة، واسم مالكها ، وتكون الوثيقة موقعة من شيخ المنطقة التابعة له .
 - (المادة ٦) يوفد رؤساء القبائل العربية ممثلين عنهم بتلك الوثائق إلى المقيم البريطاني في عام في الخليج العربي، لتوقيعها، تسهلاً لدخولهم الموانئ ومن أجل عمليات التفتيش .
 - (المادة ٧) تشترك القبائل العربية بالعمليات العسكرية ضد أي قبيلة تقوم مستقبلاً بأي عمل حربي في مياه الخليج العربي، ويمكن أن تشترك شركة الهند الشرقية البريطانية في إيقاع العقوبات على القبيلة المخالفة للمعاهدة.
 - (المادة ٨) يعد قتل الأسرى بعد تسليم أسلحتهم، خرقاً للمعاهدة، يستلزم مواجهته.
 - (المادة ٩) يمنع جلب الرقيق من الساحل الشرقي لإفريقيا منعاً باتاً.
 - (المادة ١٠) يسمح للسفن العربية التي ترفع العلم الخاص بها الدخول إلى الموانئ البريطانية، وكذلك موانئ حلفاء بريطانيا، والتجارة فيها بحرية.
 - (المادة ١١) تُعدّ جميع الشروط المذكورة معاهدة عامة ، يجوز لمن شاء من الزعماء العرب الآخرين الدخول فيها بنفس الشروط التي وافق عليها الموقعون. (١)
- ووفقاً للمادة الأخيرة فإن شيخي البحرين سلمان وعبد الله ابنا أحمد آل خليفة قررا الانضمام إليها ، وأرسلا السيد عبد الجليل إلى الشارقة في الخامس من كانون الثاني ١٨٢٠م، حيث وقع على المعاهدة .

تعدّ هذه المعاهدة علامة فارقة في تاريخ السيطرة البريطانية على " ساحل عمان " والذي سميّ منذ ذلك الحين رسمياً على الخرائط البريطانية ، " ساحل القراصنة " .

ومن تحليل بنود هذه المعاهدة يمكن وضع النتائج التالية:

- ١- من الحقائق التاريخية الثابتة أنّ مدن ساحل الخليج العربي كانت تشكل كيانات سياسية مستقلة قبل ظهور النفوذ السياسي لشركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج العربي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي . وعليه يمكن القول : من الناحية القانونية

(1) Hughes. R.T: *Treaties agreements and engagements between the honorable east India company and the Native Princes , Chiefs and States in western India*, Bombay education society's press, 1851, pp. 21-25.

أن ساحل عمان كان يتمتع بالاستقلال السياسي ويمتلك صفات السيادة في العرف الدولي آنذاك، وذلك قبل التدخل البريطاني في شؤون القواسم في القرن التاسع عشر الميلادي . وعندما تكررّس النفوذ السياسي البريطاني في الخليج نتيجة عقد معاهدة السلام العامة في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م مع حكام الخليج العربي ، فقدت تلك المشيخات استقلالها السياسي ، وسيادتها القانونية على أراضيها ، لكنها لم تفقد سلطتها بصورة نهائية ، وبقيت معلقة و موقوفة طوال الفترة الزمنية التي بُسُطت خلالها الحماية البريطانية على هذه الإمارات .

٢- واضح أن المعاهدة تحتوي على التزامات من جانب واحد هو الجانب العربي، دون أن تفرض أي التزامات بالمقابل على بريطانيا ، فحتى المادة العاشرة من المعاهدة ، والتي تسمح للسفن العربية بالدخول إلى الموانئ البريطانية و موانئ حلفائها ، لا تفرض أي التزام على بريطانيا بحمايتها ، و إنما تكتفي بالقول : (فإذا هاجمها مهاجم فإن الحكومة البريطانية ستهتم بالأمر) .

٣- كانت الاتفاقية تهدف إلى إنشاء تحالف بين إمارات الخليج العربي و الحكومة البريطانية عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية التي منحت سلطة الإشراف على تطبيق أحكام و أهداف هذه الاتفاقية، و هدف التحالف كما ادعت هو صيانة السلام في المنطقة و عدم مهاجمة السفن البريطانية، ومكافحة الرقيق ، فالحكومة البريطانية خلال هذه الفترة لم تسمح أن تتدخل في الشؤون الداخلية للإمارات ، و إنما كانت تنظر لها على أنها حكومات مستقلة ، و التي عليها أن تدرك أن السلطات البريطانية لن تتدخل في شؤونها الداخلية ما دامت ملتزمة بعدم مهاجمة السفن البريطانية أو التعرض لها و الإضرار بالتجارة في مياه الخليج العربي، في حين أن الهدف الحقيقي كان وضع اليد البريطانية على مقدرات الخليج العربي الاقتصادية والسيطرة على التجارة الدولية فيه ، مما شكل ضربة كبيرة لاقتصاديات الإمارات والمشيخات العربية ، تركت آثارها على واقع الحياة المعاشية للناس لعقود من الزمن.

٤- عمدت الاتفاقية إلى بث الفرقة و التمزق ، بين حكام الخليج العربي، و غرزت وجود الكيانات الصغيرة، ويلاحظ أن عدد الشيوخ الذين وقعوا معاهدة السلم العامة سبعة ، وفي حين أن مساحة المشيخات التي يحكمونها ليست كبيرة ، ويدل على أن بريطانيا كانت تعمل على رسم الحدود واصطناع الحواجز بين الإمارات والمشيخات إمعاناً في تقسيمها إلى كيانات غير قابلة للحياة في ظل التبعية والسيادة البريطانية ، و

أظهرت إلى الوجود ولأول مرة في المنطقة أسماء كيانات منفصلة ومتصارعة بينما كانت فيها مضى تشكل مع غيرها كياناً واحداً بغض النظر عن اختلاف القبائل الموجودة فكلهم في نهاية المطاف أخوه بلا تمييز .

٥- أعطت الاتفاقية الحق للسفن البريطانية في مهاجمة السفن العربية في الخليج العربي و الاستيلاء عليها إما بحجة التفتيش على رخصها و الأوراق الخاصة بكل سفينة منها ، أو بحجة أنها تحمل الرقيق ، وهذا كله لتحطيم القوة البحرية التجارية التي كان يتمتع بها العرب في تلك الفترة ، و التي كانت أكبر منافسة للتجارة البريطانية .

٦- نزع أسلحه عرب الخليج و منعهم من بناء سفن تصلح للحرب ، وحظر إقامة الحصون و القلاع كله بهدف حرمانهم من ميزة الأمن ، خاصة وأن الاتفاقية لم تنص على أن تقوم بريطانيا بحمايتهم صراحة ، وانعدام الأمن للإنسان يشكل عبئاً ثقيلاً، ويعرضه للمتاعب خاصة عندما يسافر إلى المناطق البعيدة والخطرة .

ومن سياق كل ما سبق نستنتج ما يلي:

١- ساعدت الظروف المحلية والدولية وانعكاساتها على منطقة الخليج العربي ، في ازدياد قوة شوكة القواسم في تلك المرحلة الزمنية من تاريخهم ، وشهدت منطقة الخليج العربي تحولات خطيرة في شتى المجالات مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، تمثلت في التوسع الوهابي عسكرياً ودينياً ، والذي كانت له آثار كبيرة على المنطقة بصورة عامة ، وعلى القواسم بصورة خاصة ، فقد استغل القواسم تحالفهم مع الدولة السعودية الأولى التي كانت في عصر قوتها ، فضاغفوا من نشاطاتهم البحرية ضد كل من يقف في وجههم ، ولم تقتصر تلك النشاطات على منطقة الخليج العربي فحسب ، بل وصلت إلى مناطق أبعد في المحيط الهندي ، تمتد من سواحل الهند الغربية شرقاً ، حتى مدخل البحر الأحمر غرباً .

٢- تزامن ازدياد النشاط القاسمي البحري في الخليج العربي مع تزايد الهيمنة البريطانية في شبه القارة الهندية والبحار الشرقية ، فكان على بريطانيا أن تسعى للقضاء على هذه القوة المتصاعدة والنامية بعد أن أصبحت تشكل تهديداً مباشراً على أمن مواصلاتها البحرية مستعينةً بأساليب دبلوماسية وأخرى عسكرية ، في الفترة الواقعة بين عامي ١٢٢٠ - ١٢٣٥هـ / ١٨٠٥ - ١٨٢٠م .

٣- هناك جملة من العوامل ساعدت بريطانيا أخيراً على تحقيق أهدافها في سيطرتها على الخليج العربي، منها تمكنها من تحطيم المنافسة الفرنسية في منطقة المحيط

الهندي، وخاصة بعد سقوط جزيرة موريشس في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م ، ومن ثم خنق الحركات الوطنية في الهند ، فتوجهت بعد ذلك لتصفية حساباتها مع القواسم الذين كانوا يشكلون عقبة أمام طموحاتها في المنطقة .

وهكذا أدت الضربة العنيفة التي نزلت بالقواسم إلى انهيار الاقتصاد المحلي ، الذي كان يعتمد بالدرجة الأولى على التجارة الخارجية التي نمت نمواً ملحوظاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، وكانت المصادر الأخرى ، من صيد الأسماك والغوص للبحث عن اللؤلؤ مقارنةً مع هذه التجارة محدودة جداً ، إضافةً إلى ذلك إغلاق الطرق التجارية العربية بين الخليج العربي والهند وإفريقيا وبالعكس ، الذي أدى إلى إفقار جزء كبير من السكان العاملين في هذا القطاع الاقتصادي.

الخاتمة

بعد دراسة القواسم وعلاقاتهم الإقليمية والدولية بالاعتماد على المصادر والمراجع التاريخية وأهمها الوثائق والمخطوطات ذات الصلة ، يمكن تسجيل النتائج التالية :

١- رغم غياب سلطة الدولة في المدن الساحلية العمانية ، فقد أبدى السكان المحليون مقاومة ضارية للغزو البرتغالي ، بدليل أن الغزاة البرتغاليين عمدوا إلى نهب المدن والموانئ العمانية وإحراقها بعد أن سيطروا عليها بقيادة البوكرك ، وارتكبوا المجازر الرهيبة بحق السكان المحليين ، مما يعكس حقيقة أن طريق البرتغاليين إلى بحار الشرق لم تكن مفروشة بالرياحين .

٢- أدت السيطرة البرتغالية على سواحل عُمان والخليج العربي إلى نتائج كارثية على المنطقة طالت كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكانت سبباً في اندلاع الثورات والانتفاضات الشعبية ضد البرتغاليين ، وعلى الرغم من أن هذه الثورات فشلت في طرد البرتغاليين من سواحل عُمان والخليج العربي ، إلا أنها جاءت تعبيراً عن حالة الرفض المطلق للسيطرة الاستعمارية ، وعن رغبة صادقة في التخلص من واقع جديد فرضته سياسة البطش والقتل والتدمير التي اتبعتها البرتغاليون منذ وطأت أقدامهم الشواطئ العربية .

٣- يعدّ غياب التنسيق بين القوى الإقليمية في منطقة الخليج العربي (العرب ، الفرس ، العثمانيون) وعدم قدرتها على الاتفاق حول آليات للتعاون وإيجاد نوع من العلاقات المتوازنة السبب الرئيسي في استمرار السيطرة البرتغالية على سواحل عُمان والخليج العربي ، وهياً الظروف المناسبة لدخول القوى الأوروبية الأخرى ، وبخاصة بريطانيا وهولندا إلى حلبة التنافس في المنطقة وجعلها تنتقل مباشرة من تحت مظلة السيطرة الاستعمارية البرتغالية إلى مشاريع السيطرة الاستعمارية البريطانية التي حملت إلى المنطقة مشاريع التقسيم وإنشاء الكيانات السياسية الضعيفة (المشيخات) والمتصارعة فيما بينها ، ونصبت نفسها حكماً يضمن استمرار السيطرة المباشرة عليها .

٤- لعبت القوى الإقليمية والدولية دوراً كبيراً في دفع القواسم وحلفائهم إلى الاستقلال عن عُمان بعد أن شكلت دولة اليعاربة القوية (وكان القواسم في حينها جزءاً رئيسياً منها) مصدر خطر حقيقي على مصالح الدول الاستعمارية ، وبخاصة بريطانيا في منطقة الخليج العربي وبحر العرب ، بعد طرد البرتغاليين في عصر قوة دولة اليعاربة،

وكان لا بد من إضعاف الدولة العمانية تمهيداً لتقسيمها ، فاستقل القواسم بساحل عُمان ، وفقد الإمام أحمد بن سعيد آلْبوسعيدى السيطرة على شرقي إفريقيا ، تفرغت بعدها بريطانيا لوضع يدها على ممتلكات هذه الدولة بقسميها الآسيوي والإفريقي ، ودخلت في صراع مع القواسم يهدف إلى إخضاعهم للسيطرة البريطانية .

٥- يلاحظ من خلال تتبع المصادر والمراجع التاريخية ذات الصلة المباشرة بالبحث أن غالبية المؤرخين يركزون على دور بلاد فارس في إضعاف القوى المحلية العربية في منطقة الخليج العربي ، وكأنه كانت لبلاد فارس الحرية المطلقة في التعامل مع أحداث المنطقة ، وفي هذا الكثير من المبالغة ، وحتى الابتعاد عن الموضوعية في معالجة مشكلات منطقة الخليج العربي وقضاياها ، وينسى هؤلاء المؤرخون أن بلاد فارس كانت تاريخياً وما تزال جزءاً من الواقع السياسي وطرفاً رئيسياً في المعادلة السياسية في هذه المنطقة المهمة من العالم ، وأنها تتضرر بالدرجة نفسها التي تطل جيرانها عندما تتعرض لخطر القوى الخارجية بدليل أن سواحلها خضعت أيضاً للسيطرة البرتغالية ، وكلف تحريرها الشاه عباس الكبير الكثير من الجهد والتعب بين عامي (١٠١٠ - ١٠٣١هـ / ١٦٠٢ - ١٦٢٢م) .

أما ما يخص تدخلهم بالحرب الأهلية العمانية في عام ١١٥١هـ / ١٧٣٨م فقد كان بعد توجيه طلب المساعدة من قبل الإمام سيف بن سلطان " الثاني " إلى الشاه نادر ، وبالتالي تتحمل السلطة العمانية جانباً كبيراً من المسؤولية في ذلك .

٦- يعكس التحالف القاسمي - الوهابي ضدَّ عُمان ، والمعارك الطاحنة التي وقعت بين الجانبين على خلفية هذا التحالف والخسائر العسكرية والاقتصادية التي نجمت عنها ، ناهيك عن النتائج السياسية الكارثية ، مدى خطورة الصراعات العربية - العربية ، وعمق تأثيرها السلبي على واقع هذه الأمة تاريخياً ، وعلى مصيرها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، طالما أن هذه الصراعات كانت وما تزال البوابة التي تعبر منها القوى الاستعمارية المتربصة بها والطامعة في نهب خيراتها ، بدليل أن الصراع القاسمي الوهابي مع عُمان هو الذي فتح بوابة الخليج العربي لبريطانيا ومكنها من فرض سيطرتها المباشرة عليه حتى مطلع سبعينيات القرن العشرين .

٧- شكل القواسم في عصر قوّة دولتهم بما كانوا يمتلكونه من قوّة عسكرية ضاربة قوّة مقاومة كانت الدول الأوروبية، وبصورة خاصة بريطانيا ، تحسب لها ألف حساب ، وبالتالي كان لا بد من القضاء عليها كي لا تكون مثلاً للأمم المستضعفة والشعوب

المستعمرة ، فوظفت بريطانيا إمكانات عسكرية واقتصادية كبيرة للقضاء عليها ، فهي تمثل مظهراً خطيراً من مظاهر التصدي لأكبر قوّة استعمارية في القرن التاسع عشر الميلادي ، ليس فقط في منطقة الخليج العربي ، وإنما في العالم كله .

٨- احتفظ القواسم بعلاقات طيبة مع بلاد فارس منذ حصولهم على الاستقلال في ساحل عُمان في عام ١١٥٤هـ / ١٧٤١م على يد رحمة بن مطر القاسمي ، حيث كان الشاه نادر من مؤيدي هذا الاستقلال ومشجعاً له ، وقدم الدعم والمساعدة للقواسم في مناسبات عديدة . واستمرت هذه العلاقات في عهد أسرة كريم خان زند ، لأن القواسم كانوا يدركون جيداً أن صراعهم مع عُمان يتطلب إقامة علاقات ودية مع بلاد فارس لضمان مصالحهم التجارية في الخليج العربي من جهة ، ولأن بلاد فارس تشكل سندا قوياً لهم في مواجهاتهم المستمرة مع العمانيين في الخليج العربي وخليج عُمان .

٩- يعود حرص الفرس على الاحتفاظ بعلاقات تحالفية مع القواسم إلى رغبتهم في تحييد البحرية القاسمية ، وما يمكن أن تلعبه من دور خطير في إعاقة حركة التجارة الفارسية في الخليج العربي من جهة ، ومواجهة العمانيين الذين كانت لهم تطلعاتهم الخاصة للسيطرة على الجزر المهمة في الخليج العربي (بلنجة ، قشم ، هرمز ...) وبعض المدن الساحلية الفارسية (بندر عباس) في وقت تحالف فيه العمانيون مع الدولة العثمانية ، الدولة العدوّة لبلاد فارس والقواسم ، وقد نجحت الدبلوماسية الفارسية في الحفاظ على نوع من التوازن بين القوى الإقليمية في الخليج العربي حتى سقوط دولة القواسم على يد البريطانيين في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م .

١٠- هدّدت قوّة القواسم البحرية الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن على الرغم من الإمكانيات العسكرية البحرية الكبيرة التي كانت تمتلكها بريطانيا آنذاك ، ومن التفوق الكمّي والنوعي لقواتها البحرية مقارنةً بالقوات البحرية القاسمية ، ويعود السبب في ذلك إلى أن التهديد البريطاني للقواسم كان يطل كيانهم ووجودهم ومصدر رزقهم ولقمة عيشهم اليومية ، خاصةً وأن غالبيتهم العظمى كانت تسترزق من التجارة البحرية والغوص والصيد البحري ، وبالتالي كان الدفاع عن شواطئهم ومدنهم الساحلية وموانئهم وسفنهم التجارية مسألة حياة بعزّة وشرف ، أو موت بكرامة ، ولا يمكن تفسير المقاومة البطولية التي أبدّاها القواسم ضدّ القوات والحملات البحرية البريطانية ، والشجاعة النادرة التي اتصفوا بها في معاركهم التي خاضوها إلّا من هذه الناحية ، بدليل إرسال الحملات العسكرية البحرية البريطانية

الواحدة بعد الأخرى لإخضاعهم على امتداد عشرين عاماً من الصدام المسلح بينهما ،
إلى أن فقدوا كل عنصر القوة ، واضطروا إلى التسليم في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م .
وأخيراً يجب التأكيد على حقيقة أن القواسم سطروا بدمائهم صفحات مشرقة في تاريخ
هذه الأمة بتصديهم للقوات البريطانية الغازية ، واختلطت دماؤهم الزكية بمياه الخليج
العربي حفاظاً على عروبتة وصوناً لمقدراته .

الملاحق

(الملحق ١)

حكام القواسم :

١. رحمة بن مطر (١٧٢٢ - ١٧٦٠م) : أول زعيم بارز للقواسم ، أسهم في دعم الإمام محمد بن ناصر الغافري ضد الهناوية في عُمان .
٢. راشد بن مطر (١٧٦٠ - ١٧٧٧م) : استولى على باسيديو وقاد المرحلة الثانية من التوسع القاسمي على الساحل الشرقي من الخليج العربي والجزر القريبة منه ، حيث خاض في سبيل ذلك صراعاً عنيفاً مع قبيلة بني نعيم القوية في جزيرة قشم .
٣. صقر بن راشد (١٧٧٧ - ١٨٠٣م) : مخطط النهضة القاسمية الحديثة ، تحالف مع بني نعيم في نفس الفتي عام الذي تولى فيه الحكم ، وخاض صراعاً طويلاً في البر والبحر ضد إمام عُمان ، وقد أعلن انضمامه للدعوة الوهابية .
٤. سلطان بن صقر (١٨٠٣ - ١٨٠٨م) : لم يستمر في حكمه سوى خمس سنوات ، حيث سجنه الوهابيون في الدرعية ، وفي عهده كانت الحملة البريطانية الأولى.
٥. حسين بن علي (١٨٠٨ - ١٨١٤م) : استمر زعيماً لمدة خمس سنوات حتى أوائل في عام ١٨١٤م ، كان شيخاً على رامس وقاوم ببسالة القوات البريطانية في الحملة الثانية في عام ١٨٠٩م والحملة الرابعة في عام ١٨١٩م ، حيث أجبر على التوقيع على المعاهد العامة في عام ١٨٢٠.
٦. حسن بن رحمة (١٨١٤ - ١٨٢٠م) : امتاز بالنشاط الواسع وتضاعف في عهده نشاط القواسم البحري مما حرك حكومة الهند البريطانية للقضاء على القواسم بصورة نهائية سنة ١٨١٩م .^(١)

(١) القرني ، صالح : المرجع نفسه ، ص - ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(الملحق ٢)

اتفاقية في عام ١٨٠٦م بين القواسم وشركة الهند الإنكليزية

وقعت هذه الاتفاقية بعد الحملة البريطانية الأولى ضد القواسم في عام ١٨٠٥م ، إذ وقع عن القواسم الشيخ عبد الله بن كروش نيابة عن سلطان بن صقر بن راشد القاسمي ، والكابتن ديفيد سيتون عن شركة الهند الشرقية الإنكليزية في بندر عباس في السادس من شباط في عام ١٨٠٦م ، حيث نصت على مايلي :

١. مادة (١) إقامة السلام بين شركة الهند الشرقية الإنكليزية وسلطان بن صقر القاسمي وجميع رعاياه وتوابعه على سواحل شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس ، وسيقومون باحترام علم شركة الهند الشرقية الإنكليزية وممتلكاتها .
٢. مادة (٢) في حال مخالفة القواسم للمادة الأولى يترتب عليهم دفع غرامة مالية قدرها ٣٠٠٠٠ دولار وبهذا الشرط فإن الكابتن سيتون يوافق أن يستلم من سلطان بن صقر السفينة تريمير الراسية الآن في مسقط وأن يتنازل بالمطالبة بحمولة السفينة من مدافع وكذلك عن السفينة شانون .
٣. مادة (٣) في حال وجود ممتلكات بريطانية في سفن الصيد القاسمية وجب ردها للشركة .
٤. مادة (٤) على القواسم مساعدة أي سفينة بريطانية تابعة للشركة عندما ترسو على شواطئ القواسم للتزود بالماء والمؤن ، وأن يؤمنوا لها الحماية اللازمة ، وأن يسمحوا لها باللجوء أو الرحيل حسبما يرى أصحاب هذه السفينة .
٥. مادة (٥) في حال أجبر الأمير سعود القواسم على الخروج عن اتفاقية السلام هذه ، فيجب عليهم إرسال إنذار للشركة قبل ثلاثة شهور .
٦. مادة (٦) بعد المصادقة على هذه الاتفاقية يحق للقواسم التردد على الموانئ البريطانية من سوررات إلى البنغال كما الحال سابقاً .

توقيع : عبد الله بن كروش

توقيع : ديفيد ستون

الملحق (٣)

تفاصيل القوات البريطانية في الحملة الرابعة في عام ١٨١٩م

القوات البرية :

١	كتيبة المشاة الملكية ٤٧
٢	كتيبة المشاة الملكية ٦٥
٣	كتيبة مشاة هندية من الفرقة الثانية
٤	كتيبة مشاة هندية من الفرقة الثالثة
٥	سرايا إسناد مختلفة (رشاشات ، هاون ، هندسة ميدان ...)
٦	سرية مشاة بحرية واحدة
٧	قوات خاصة من الكشافة ومفارز الاستطلاع ومخابرات الجيش
٨	كتيبة مدفعية الميدان (٩٥) بكاملها .
٩	المجموع ٣٥٠٠ بين ضابط وجندي

القوات البحرية :

الترتيب	المركب	أسمه	عدد المدافع
١	سفينة القيادة	ليفربول	٥٠
٢	فرقاطة	إيدن	٢٥
٣	فرقاطة	كيرلو	١٨
٤	فرقاطة	تاكناوث	١٦
٥	فرقاطة	بنارس	١٦
٦	فرقاطة	تيرنت	١٦
٧	فرقاطة	أورورا	١٤
٨	فرقاطة	ميركوري	١٤
٩	فرقاطة	نوتيلوس	١٤
١٠	الطراد	أريال	١٠
١١	الطراد	فستال	١٠
١٢	الطراد	سيش	١٠

هذا الكتاب المسمى الفتح المبین
المرحون مسیحة السادة البوعیدین

الصفحة الأولى من مخطوطة الفتح المبین لابی رزق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المهيكل الأولي الباب معرفة السير والاسباب ومرشدكم لتفصيل
تفصيل الطائفة والاحزاب فتح لهم ما جرى على الملوك من الشأن الذي ما شان
فكشفوا الحجاب ودخلوا على الصواب بفضل الخطاب من كل باب
ولما احرزوا الفضائل امطر السائل عن اسم ملكهم ونسبه وحدود مملكته
فكان جوابهم اليه كالسائل السائل مع الانبياء والصلاة والسلام على
علاء علم الأمم وافصحهم بالكلام المحكم سيدنا رسول الله وآله وصحبه
الناطقين مع اجواب بفضل الخطاب اما بعد لقد سألني ذو الدراية
والاحتشام والخلق الرضية والكرام السيد محمد مولا ناسا بن سلطان بن الامام
احمد بن سيد البوسعيدى البغدادى ان اشرح له ما سمعته وحفظته عن
اهل المعرفة بالاسباب والاحبار المطابقة للصواب عن نسب الامام المجيد
احمد بن سعيد وما جرى في سيرته الجيالة ومملكة العلية من القضية الرضية
وعن نسب الذي استأصل فيه من العاربه جرثومة السلطان وصا من
لبنة ما كان بينهم من زمان زمان بهان وان ايمن لم بعد فراغ من ذكر نسبه
وسيرته وحدود مملكة بلا الهام سيرة اولاده النجباء الكرام وما جرى
لهم من الشأن الشايع بهان وغيرها مع الأعيان ولعمري ما سؤال هذا السيد الى
سؤال جاهل بالثقة بل سؤال عارف بالتفصيل والجلل فلا يخفى امرى مراده على
من صلت معرفته قاموسا اقتداء لقوله تعالى وما لك يمينك يا موسى فاجبته
خوفا لا يقبل اعتذارى ومواراة اوارى لسان جادى والايوم منذ فخرج
من اوقات الزمان وفي يوم عيوس تكاد ان تقدر بجاحى من الاشجان

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله الذي جعل في هذه السيرة الشريفة التي هي في هذه الدنيا
 اليها سيرة الملوك العارفين الاستقامية بالهف أو عبد الله محمد بن
 البلغاء الشيخ الأديب جميل بن محمد بن زعفران حيث أن
 هو من ولد لادسعي بن هسان بنسب الأبا هي مدحها
 النعل بلان أولها لله في هذه رسالة رسالة
 على في خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في يوم
 ثالث والعشرين من شهر ربيع الأول
 ١٢٩٦ هـ بقلم الفقير إلى الله
 القادر على كل شيء
 محمد بن عبد الله بن عبد الله
 بن عبد الله بن عبد الله
 بن عبد الله بن عبد الله
 بن عبد الله بن عبد الله

قال المؤلف والمهجو من اخواني اهل الصفا والوفاء اذا ما وفي هذه السيرة وغيرها
 مني خلداً أو زللاً فليست والثبات سداً الأنصاف الذي في هذه الأوصاف ولا يكون
 لا حق بالاوزار كذا وأصحاب قد ارفق الحديث الذي لا يقدر عليه للتعنت تعنتاً
 قوله صلى الله عليه وسلم المسلمون كالبنيان يشاء بعضهم بعضاً وما هو في الآيات
 في العالم رب الأنام وهو السلام والسلام

من بصير وفناء هو نقباء
 فاستطرت أفعالها الأرض جود
 من ينقل الشكر والتسليم
 من لا يحجب فيه ويرق ورعد

قال المصنف أيضاً الحمد لله العالم على فضله التمام والقبالة والسلام على سيدنا
 محمد ماجوت في الواجبات بالاقلام الحجاب سيدنا وولانا فخرنا ومن لم يفضل عليه
 سليل الأكرم حمزة ولا ناس المصطفى سلطان الأمام اعز الله وبعد فواسك كمال التاريخ
 المشتمل على السيرة الغراء مفصلاً ومجداً في الأنساب والأحساب مسطوراً في
 الأئمة اليمينية العارفين بفضل قبولهم وانكريمهم والسلام من الممدوحين المضاف
 الشاعر الذي مودته عنكم لم تنبأ دحيم بن محمد بن عبد الله

مخطوطة فتح العين لسيده السيد يوسف بن محمد بن عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله الذي رفع السموات بغير عمد وبنائها وسطح الارض على وجه الماء
 ودحاها وجعل لها الجبال اوتادا فانار ساها وخلق آدم عليه السلام
 من طين وجعل نسله من سلالة من ماء مهين واخرج ذريته اطوارا متتابعين
 فامرهم بنيلوا الواسع طابعين ونهاهم لينزجروا عن نهج خابئين فكا اكثرهم
 لاعم ناركين ولم يكونوا النفيهم عما بينهم فارسل اليهم الانبياء والمرسلين
 فينبوا لهم قوايدين واضحو لهم السبل المستبين واتوهم بالحق القاهرة والبراء
 فمنهم من اطاع واقتدى ومنهم من ضل وغوى ليحزي الذين اساء واهملوا
 وتجزوا الذين احسنوا بالحسن والصلاة والسلام على نبينا الامين محمد خاتم
 الانبياء والمرسلين وعلى اهل البيت الطاهرين وبعد فقد رعتني الهمة
 التي جمع هذا الكتاب وتاليفه وتاخير معانيه وتصنيفه فليتها اهلا وسهلا
 وان لم تكن للتأليف اهلا وذلك لما دلت كثرة اهل زماننا قد غفلوا عن اصل
 مذهبهم الشريف واقتلوا على ائمة مذهبهم بالتعنيف والتعسف وبعالوا
 الرضا السادات ذوي الشرف وقد رعت انفسهم عن قراءة الكتب التي اصلها
 السلف ليعرفوا الحق ممن هو على شفا جرف هار فانها ربه الى التلذذ وقد
 سمعت اهلا من يجلي بالعلم وينتسب له ذوي المعرفة والفهم يقولون عمل اهل
 البيت يخرجهم عن طاعة ذي الفخر وقد عرفت من كثير ممن يتبع بهاب المذهب
 ويعزى اليه ويرفع به وينسب خلافا لما يمتد الذين اسسوه وركنوا الى الله
 انواعه فصنف هذا الكتاب ليقف فيه هذا ولي الباب وجعلت
 ظاهره في القصص والاعبار وباطنه في المذهب المختار ولان الناس لقراء
 الاثر لا يستمعون ولا يسمعون القصص عن اللغو يثبتون قلت الى رغبتهم
 لكي يكونوا مستمعين ولقراء يتبعهم القلب مطيعين عمل انهم لا يصول
 المذهب يبرون ولاهل الحق بالحق يعترفون وسميته

٢

مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة لسرحان الازكوي الصفحة

الأولى

ووقفنا التخليصة وتصنيفه وان يكون فيه خطأ او في شيء من غلط فاننا استغفر الله تعالى
 منه ومن جميع ما خالفته فيه الحق وفارقته فيه من اجل الهداية والصدق وبالله توفيقنا وعليه
 اعتمادنا وبرحمتهنا وهدايتنا ونعم الوكيل التوفيق والهدى دليل وسنة مسترا
 لسببونا وغفر الذنوبنا وتوفيقنا بطاعة الله وقبيلنا المصطفى واربعتم بالخيرات اعمالنا وبيد
 في جميع الامور احسانا وان يجعل هذا التاليف مجملنا الاعلى وان يقبل منا ويثبتنا
 عليه غير اننا واثنا الله هو الجواد الرحيم الغفور الكريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
 فليهد المحدث الواقف عليه والناظر فيه وما كان فيه من خطأ فليعلم اننا انما
 وبه فانتحي استياهل للتصنيف ولا عز بعد التاليف والتاليف والمحدث
 رب العالمين وصلى الله على محمد وآله النبيين والمرسلين وعلى المولى
 تسليما كثيرا ثم انما بعد ذلك الكتاب الذي انشأه في ٢٥ من
 ربيع الآخر سنة ١٢١٥ لله بملا حق الانعام وانصاعهم
 علماء واعمال عبد الله عبد الله محمد بن محمد
 رسالة سيف الرواحي في نسخة اخيرة
 اللوح على الاديب الاديب الم
 محمد بن محمد
 سيف الرواحي
 زرق المولى العبد
 عافية الله
 محمد بن محمد

فيا قاريا خطي رسالة حمزة
 كاتبة المدون في خزانة الامن
 وقال يا عظيم الغفور عبد الله
 فلما زال برجر الصبح في شهر رمضان

مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة لسرحان الازكوي الصفحة
 الأخيرة

"Kniphausen Report"
AD 1756

On Rahma bin Matar

CDRAD/Dutch Archives
ARA/Aanw.no. 1889-23b

f 12 , Translation

They navigate as far as Mocha.

There is a fairly important trade in Zur , in pearls as well as in some other merchandise and provisions, which are transported to the desert.

A large piece of land stretching into the sea off Zur becomes an island at high tide. This piece of land which the Arabs call Red Island, is inhabited by an (Arab) tribe called the Saabs. They live off pearl diving. They are fairly numerous and possess many small vessels. They have to obey the Sheikh of the Guassums (Qawasim) and pay him a considerable contribution.

In the year before last, aforementioned Sheikh Rachma, with the assistance of the Gamron Admiral Molla Ali Scha, to whom he is related by marriage, had overpowered Laft and the island of Kismis (Qeshm). He had chased away from there a tribe of Houlas, called Ebenü Temim (=Banu Ma'in, ed.) who, since the reign of Nadier Scha, had possessed these places.

Notwithstanding the two ships brought by Molla Ali Scha and all the power of Sheikh Rachma who took with him a lot of Bedu to support him, the siege of Laft, inhabited by not more than 250 men, had lasted for six months and would, possibly, not have been conquered if it were not for the incidental death of Abdiş Sjeese (Abdul Sheikh), who was its ruler (Qeshm).

From Sur and Caap Mousondon onwards, one reaches the area of the Imam from Mascatta who used to be

وثيقة من الأرشيف الهولندي (١) حول القواسم مأخوذة من مركز
الوثائق بأبو ظبي

Transcription f 12

groot en wel voorsien zijn, en tot op Mocha vaaren.
Daar selfs is meede nog een tamelijke negotie
soo wel van Paarken als van eenige goederen en
leevensmiddelen die na de woestijne vervoerd wor-den.
Een groot stuk land 't welck omtrent Zur in zee
uijtsteekt met water tot een yland word, en dier
halven bij de Arabiërs 't Roode Eijland genoemt
is door een Caste die de naam van Saabs voeren
bewoond. dewelke zig van Paarle Duijken generen.
Zij zijn talrijk en hebben veele kleine vaartuijgen
moetende de Sjeek der Gnassums gehooren samen
en den selve geen geringe contributie opbrengen
Tvoorledene Jaar heeft voorgem. Sjeek Rachma
met hulpe van de gamronse Amiraal Molla
Ali Scha, aan den welcke hij door Huwelijch ver-
maagschapt is Laft met het Eijland keisumir
vermeestend, verdrigvende vandaar eene Caste
Houlas Ebemi Temim genoemt, de welcke see-
dent de Regering van de Nadier Scha besit daar
van hadde. ongeagt de twee scheepen van Molla
Ali Scha alle magt van Sjeek Rachma die nog
een partij Bedouins hem te ondersteunen meede
gebragt hadde. heeft de belegering van Laft, waar
in geen 250 man Waaren ses maanden geduurd
en soude mogelijk niet overgegaan zijn, sonder
de toevallige dood van Abdij Sjeek die al
daar regeende.

وثيقة من الأرشيف الهولندي حول القواسم مأخوذة من مركز

وثيقة من الأرشيف الهولندي (٢) حول القواسم مأخوذة من مركز
الوثائق بأبو ظبي

f 4 Translation

On Rahma bin Mat

From the last mentioned place one arrives at Naband (Nay Band) or Caap Nabon which is inhabited by the Harams (al Haram), as is Assel⁵ (Asaluyeh) which lies next to it.

Until three years ago, ^{for some years} these people possessed the island of Babielm (Bahrein?) when Sheikh Nassier (Nasir) from Boucheer (Bushehr) forced them to leave that island, which caused heavy losses on both sides. For this reason the Harams were so weakened that one does not count more than 40 vessels and 300 men all in all. Of the two sheikhs, Mahometh Ebenmaijd (Muhammed Eben Majid) and Abderachman (Abdul Rahman), who were ruling them, the first one was recently murdered in a treacherous way by people from Thaarie (Taheri).

f 4a

This will certainly have consequences, ^{eventually also} for the island of Bahrein since the Sheikh of Sur (= Rahma Eben Matar), so they say, is willing to take revenge on this matter himself.

Transcription f 4

Van voorgemelde plaats komt men aan Naband off Caap Nabon, 't welk benevens een naast daar aan gelegene plaats affels door de Harams bewoond werd, deese zijn eenige jaaren lang tot voor omtrent 3 Jaaren besitters van 't Eijland Babielm geweest, tot Sjeek Nassier tot Boucheer haar noodsaakte 't selve te verlaaten. 't welk niet sonder veel verlies van beijde zijde geschiede, en waar door deese Harams soodanig verswast zijn, dat men deselve geen 40 vaartuygen en alles in allen 300 man sterk reekend.

Van de 2 Sjeeks Mahometh Eben Majid en Abderachman die over haar regeerden, is de eerste nu korts door die van Thaarie verradelijk vermoord

f 4a

't welk sekerlyk eenige gevolg en mogelijk op 't Eijland Bahrein staat naar zig te trekken, willende de Sjeek van Sur (soo men segt) haare wraake op sig neemen

وثيقة من الأرشيف الهولندي (١) حول رحمة بن مطر مأخوذة من مركز
الوثائق بأبو ظبي

f 11a Translation

Sur is, for the area, a fairly well fortified town, equipped with some artillery. The town is inhabited by a tribe of Houlas, named Quassum (Qawasim/Quassami). Formerly, they were ruled by the Imam of Mascatta (Muscat) but now they do not recognise him any longer as their ruler. Several times the Imam sent an army overland to this place to teach them obedience, but to no avail.

The Imam of Mascatte was not capable of achieving anything against the Quassum sheikh Tschael (Ismail), or Rachma (Rahma) Eben Mater, who was supported by several Arab Bedouin tribes from the desert. This sheik Rachma is nowadays the most powerful among the rulers of the Houlas. At Zur, some 400 of his own people are well armed men with firearms. This place has a good harbour where the largest vessels are able to enter. One counts more than 60 vessels, the majority of which are large and well equipped.

f 11a Transcription

Sur is een tamelijke na Landswijze bevestigde Stad, en met eenige stukken geschut voorsiene plaats die door de casta der Houlas quassum genaamd bewoond werd, de selve is voor desen den Imam van Mascatta onderhorig geweest maar erkend denselven niet meer, en zijn verscheidene landtogten die gen. Imam gedaan omme deese plaats tot gehoorsaamheid te brengen vergeefs geweest, kunnende de selve teegens den Sjeek der Quassum Tschael off Rachma Eben Matter genoemd die door verscheidene Casten bedouïns off Arabieren uit de woestijne ondersteunt werd niets uijtvoeren

Deese Sjeek Rachma is tegenwoordig de machtigste onder de Houlas Regenten, hebbende van zijn eijge Volck een 400 met snaphaanen wel ge- welgewapende Mannen op Zur, 't welk een goede Haven heeft, kunnende de grootste vaartuigen hier binnen gebragt worden, en teld men aldaar booven de 60 vaartuigen waarvan de meesten

وثيقة من الأرشيف الهولندي (٢) حول علاقة رحمة بن مطر وإمام
عمان مأخوذة من مركز الوثائق بأبو ظبي

المصادر والمراجع التاريخية

قائمة المصادر والمراجع التاريخية

أولاً : المصادر العربية

الوثائق والمخطوطات

١. ابن رزيق، حميد بن محمد: *الصحيفة القحطانية*: تحقيق د. محمود بن مبارك السليمي، أ.د. محمد حبيب صالح، الغازي، علال الصديق، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مسقط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ج ١+٢+٣+٤+٥.
٢. الإزكوي، سرحان بن سعيد بن سرحان: *كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة*، مخطوط يحقق الآن من قبل الدكتور محمد حبيب صالح، ٥٣٦ صفحة.
٣. وثائق الأرشيف الإماراتي رقم : ٢٤٤٨ ، ٨٨٩ ص ، تاريخ ١٧٣٧ - ١٧٣٨م ، مركز البحوث و الوثائق ، أبو ظبي .
٤. وثائق الأرشيف الهولندي ، المجلد ١٩١ ، ص ٤٤٢-٤٤٣ ، في مركز الوثائق والبحوث ، أبو ظبي .
٥. مختارات من الوثائق البريطانية ١٧٩٧ - ١٩٦٥م ، تحقيق عبد الله ، محمد مرسي ، ج ١ ، لندن للدراسات العربية، ١٩٩٦م .

الكتب العربية:

- ١- ابن إياس ، محمد بن أحمد : *بدائع الزهور في وقائع الدهور* ، ج ٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، د.ط ، المعهد الألماني ، ١٩٨٤.
- ٢- ابن بشر النجدي، عثمان بن عبد الله : *عنوان المجد في تاريخ نجد*، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٩٨٩.
- ٣- ابن رزيق، حميد بن محمد:
- *الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان*، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مسقط، ١٩٨٤م.
- ٤- ابن رزيق، حميد بن محمد:
- *الفتح المبين في سيرة السادة آلبوسعيديين*، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مسقط، ١٩٨٦م.

- ٥- ابن غنام ، حسين : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ٦- الازكوي، سرحان بن سعيد بن سرحان: تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق ، القيسي ، عبد المجيد ، ط ٤ ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ، مسقط ٢٠٠٥ .
- ٧- الحنبلي ، ابن عماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر أرناؤوط ، ج ٩ ، ط ١ ، دار ابن كثير ، دمشق ١٩٨٩ .
- ٨- الرواحي ، سالم محمد : الدعوة الإسلامية في عهد اليعاربة ١٠٣٤ - ١١٣٣ هـ، دار الألوان الحديثة ، ط ١ ، مسقط ٢٠٠٣ م
- ٩- السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، سلطنة عمان، السيب، ٢٠٠٠م، ج ١+٢ .
- ١٠- المعولي ، أبو سليمان محمد بن عامر : قصص وأخبار جرت في عمان ، تحقيق سعيد الهاشمي ، ط ١ ، مسقط ٢٠٠٧ م .
- ١١- تاريخ أهل عُمان : تحقيق عبد الفتاح عاشور ، وزارة التراث والثقافة ، ط ٥ ، مسقط ٢٠٠٥ م .
- ١٢- ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ، إعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب سمو دولة قطر ، جزاءن ، قطر ١٩١٤ م .
- ١٣- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، مؤلف مجهول، تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.

ثانياً : المراجع العربية

- ١- أبو عليّة ، عبد الفتاح حسن : تاريخ أوروبا وأمريكا الحديث ، ط ١ ، دار المريخ ، الرياض ١٩٧٩ .
- ٢- البحارنة ، محمد حسين : دول الخليج العربي الحديثة علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، مؤسسة الحياة ، د.ط بيروت ١٩٧٣ .
- ٣- البطاشي، سيف بن حمود: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية، سلطنة عمان، مسقط، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م ج ١+٢+٣ .

- ٤- البرغوثي ، جبارة : تاريخ الخليج العربي ، دار كنعان ، ط ١ ، دمشق ٢٠٠٥م.
- ٥- البوريني ، أحمد قاسم : الإمارات السبع على الساحل الأخضر ، دار الحكمة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٥٧.
- ٦- التميمي ، عبد المالك خلف : الخليج العربي والمغرب العربي " دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي " ، دار الشباب للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م
- ٧- الجبوري ، عبد الكريم : القواسم ودورهم في مقاومة الاحتلال البريطاني للخليج العربي ، دار الطليعة الجديدة ، دمشق ط ١ ، ٢٠٠٣م .
- ٨- الحمدي ، صبري فالح : صفحات من تاريخ الخليج العربي الحديث ، دار الحكمة ، لندن ، د.ط ، ٢٠٠٢م.
- ٩ - الخروصي، سليمان بن خلف: ملامح من التاريخ العماني، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، السيب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م.
- ١٠- الخصوصي ، بدر عباس : العامل الاقتصادي وأثره على إنسان الخليج العربي في العصر الحديث، محاضرات الموسم السابع ، الخليج العربي في مواجهة التحديات ، رابطة الاجتماعيين ، مؤسسة النشر والتوزيع ، الكويت ١٩٧٧.
- ١١- الخطيب، مصطفى عقيل: التنافس الدولي في الخليج العربي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨١م.
- ١٢- الزيدي ، مفيد : موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر مجلدين ، دار أسامة للنشر ، ط ١ ، ٢٠٠٤م .
- ١٣- السالمي، محمد بن عبد الله، و عساف، ناجي: عُمان تاريخ يتكلم، المطبعة العمومية بدمشق، دمشق، سوريا، ١٩٦٣م.
- ١٤- السالمي ، محمد بن عبد الله: إسعاف الأعيان بحرية أهل عمان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٨٣.
- ١٥- السلطان ، محمد : الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ١٥٠٧ - ١٥٣٥م، د.ط ، مركز زايد للتراث ، العين ٢٠٠٠م.
- ١٦- السامرائي ، أحمد : القواسم والخليج العربي ، ط ١ ، بغداد ١٩٧٣م .
- ١٧- السيابي، سالم بن حمود : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، دمشق، ١٩٧٦م.
- ١٨- السيابي، سالم بن حمود: عمان عبر التاريخ ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مسقط، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م، ج ١+٢+٣.

- ١٩- السيار، عائشة: دولة اليعاربة: دار القدسي، بيروت، ١٩٧٥.
- ٢٠- الصايغ، فاطمة: الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، العين، ط٣، ٢٠٠٠م.
- ٢١- الصباغ، ليلي: معالم تاريخ أوروبا الحديث، ط٢، مطبعة جامعة دمشق ١٩٩٠.
- ٢٢- الصيرفي، نوال حمزة: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ط١، دار الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٣.
- ٢٣- العابد، صالح: دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٧٦م.
- ٢٤- العابد، صالح: موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠م، ط١، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٦.
- ٢٥- العقاد، صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي، د.ط مكتبة الأنكلو مصرية، القاهرة ١٩٩١م.
- ٢٦- العقاد، صلاح: الاستعمار في الخليج الفارسي، د.ط، مكتبة الأنكلو مصرية، القاهرة ١٩٥٧.
- ٢٧- العيدروس، محمد حسن: دراسات في تاريخ الخليج العربي، دار الكتاب الجديد، ط١، الكويت ٢٠٠٠م.
- ٢٨- الغنائي، أحمد: البرتغاليون في البحرين وحولها، الوثيقة ع.ع.س ١/٢ في مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي ١٩٨٤.
- ٢٩- القاسمي، خالد بن محمد: التاريخ الحديث والمعاصر لدولة الإمارات العربية المتحدة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٩م.
- ٣٠- القرني، صالح بن مرعي: الحملات البريطانية ضد القواسم ١٨٠٥ - ١٨٢٠م، مكتبة الفلاح ط١، العين ٢٠٠٣م.
- ٣١- أوبان، جان: مملكة هرمز أسطورة الخليج، ترجمة: نادية عمر ن ديوان رئاسة الدولة، د.ط، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.
- ٣٢- بانكيار، ك.م: آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٦٢م.
- ٣٣- جاكين، بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، لبنان، بيروت، د.ط، ١٩٦٣م.

- ٣٤- ج-ب، سلوت : عرب الخليج ١٦٠٢-١٧٨٤م، ترجمة عابدة خوري ، مراجعة محمد مرسي عبد الله ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، د.ط ، ١٩٩٣م.
- ٣٥- حصاد ندوة الدراسات العمانية : مجموعة من الباحثين ١٠ أجزاء ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٠ م .
- ٣٦- حصاد ندوة الدراسات العمانية : البحوث والدراسات التي قامت في الندوة ذو الحجة ١٤٠٠هـ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ مجلد ٤ ، وزارة التراث والثقافة ، عمان (دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي دراسة مقارنة لصالح العقاد)
- ٣٧- حنظل ، فالح : المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، ط ١ ، لجنة التراث والتاريخ ، جزاءن ، أبو ظبي ١٩٨٣.
- ٣٨- حنظل ، فالح : العرب والبرتغال في التاريخ ٧١١ - ١٧٢٠م ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي، د.ط ، ١٩٩٧م.
- ٣٩- دشتي ، محمد اسماعيل : شقائق النعمان في تاريخ الخليج العربي والكويت وإيران والإمارات والجزيرة ، دار المحبة ، دمشق ، ط ٢ ، د.ت .
- ٤٠- راتسمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز البعريني ، دار الثقافة ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- ٤١- راشد ، زينب عصمت : تاريخ أوروبا الحديث ، دار الفكر العربي ، د.ط القاهرة ، ١٩٩٨م .
- ٤٢- شاكر ، محمود : موسوعة تاريخ الخليج العربي ، ج ١ ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ٢٠٠٣م .
- ٤٣- شهاب ، حسن صالح : من تاريخ بحرية عُمان التقليدية ، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط ، ط ١ ، ٢٠٠١م.
- ٤٤- عبد الله، مرسي محمد: إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ٤٥- عبد الله، مرسي محمد: قراءات حديثة في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ، أبو ظبي ، ط ١ ، ١٩٩٩م.
- ٤٦- عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم: الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥-١٨١٨م، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩.

- ٤٧- عقيل ، مصطفى : التيارات السياسية في الخليج، منشورات دار الثقافة، ط١، قطر ١٩٨٨ .
- ٤٨- غباش، حسين عبيد غانم: عمان الديمقراطية الإسلامية (١٥٠٠ - ١٩٧٠) دار الجديد، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ٤٩- فارس ، عبد الله علي : شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في الخليج العربي ١٦٠٠ - ١٨٥٨م ، ط٢ . د.ت .
- ٥٠- فلسفي ، نصر الله : إيران وعلاقتها الفلسفية في العصر الصفوي ، ط١ ، ١٩٨٩.
- ٥١- فهمي، عبد القوي: القواسم ونشاطهم البحري (١٧٤٧-١٨٥٣م)، رأس الخيمة، ١٩٨٣م.
- ٥٢- فيليبي ، سنت جون : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ، د.ط ، ترجمة : عمر الديراوي ، بيروت د.ت .
- ٥٣- قاسم، زكريا جمال: تاريخ الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠م ، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ٥٤- قاسم، زكريا جمال: الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ٥٥- قاسم، زكريا جمال: دولة آل بوسعيد في عُمان وشرق إفريقيا ١٨٤١ - ١٨٦١ ، د.ط ، القاهرة ١٩٦٨.
- ٥٦- قاسم، زكريا جمال: الصراع بين عرب الخليج والبرتغاليين في ضوء ما ورد من مصادر التراث المحلية ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٦ .
- ٥٧- قاسم ، محمد ، وحسني ، حسين : تاريخ أوروبا الحديثة من عصر النهضة إلى نهاية الثورة الفرنسية ، لجنة التأليف والنشر ، مصر ، ط١ ، ١٩٣٤م.
- ٥٨- كيلى، جون: بريطانيا والخليج، وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان، مسقط، ١٩٧٩، ج١.
- ٥٩- لوكهارت ، لورنس: التهديد العماني ونتائجه في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة : علاء الدين حسين ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد العاشر ، البصرة ١٩٧٨م .

٦٠- مايلز ، صاموئيل: الخليج وبلدانه وقبائله: ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث ، القاهرة ، د.ط ، ١٤٠٣هـ .

٦١- محمد أمين، عبد الأمير: القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، مطبعة أسعد ، بغداد، د.ط ١٩٦٦ .

٦٢- محمد ، نجاح ، و أبو جبل ، كاميليا : تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق) ، جامعة دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م .

٦٣- مراد ، محمد عدنان : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، د.ط ، دمشق ، د.ت .

٦٤- ويلسون ، آرنولدت : تاريخ الخليج ، ترجمة محمد أمين قاسم ، دار الحكمة ، ط ١ ، لندن ٢٠٠١ م .

ثالثاً - الصحف والمجلات العربية :

١- إبراهيم ، محمد صابر عرب : دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد ٣٧ ، ١٩٨٠ م .

٢- جريدة الوقت السياسية : العدد ١٨٤ ، الأربعاء ٢٨ رجب ١٤٢٧هـ / ٢٣ آب ٢٠٠٦ م .

٣- عوض ، عبد العزيز : الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٢٩ ، ١٩٨٦ .

رابعاً . المحاضرات :

الحياة الاقتصادية في عهد اليعاربة : محاضرة للأستاذ الدكتور محمد حبيب صالح ، قسم التاريخ ، مسقط .

خامساً : المصادر والمراجع الأجنبية

١. المصادر الأجنبية :

1. Badger , George Percy : *History of the Imams and Seyyids of Oman* , by : Salil ibn Razik , London , 1871.
2. Bombay Gov, Records Vol xxiv , Warden , Frances , *Historical Sketch of Joasmee Tribes of Arabs 1747-1818*, Bombay 1856.
3. *Bombay Diaries* : 1778-1820 No : 347 of 1809 pp 111710.
4. Head , Franck – Bey : *From Trucial states to the United Arab Emirates , a society in transition* , centre for document and research , Abu Dhabi.
5. India office records: Arabian Gulf intelligence from the records of Bombay Gov, a historical and other INF connecting with Muscat adjoining countries , by R.Tylor. p 1-4.
6. Low , Charles Rathbone : *History of Indian Navy 1613-1863* , Vol I , 1st Ed, London , 1877.

٢. المراجع الأجنبية

1. Bathurst : *The Yaurbi Dynasty* 1st Ed , Oxford, 1962.
2. Charles , Locker : *An Account of trade in India* , London , 1711.
3. H . Moyse – Bartlett : *The Pirates of Trucial Oman* , London , 1966.
4. Derek : *The Arabian Peninsula , Society and Politics* , London, 1972.
5. Graham , S, Gerald : *Great Britain in the Indian Ocean 1810 – 1850* , Oxford , 1967.
6. Hawley , Donald : *The Trucial states* , 1st Ed , London , 1970 .
7. Hughes. R.T: *Treaties agreements and engagements between the honorable east India company and the Native Princes* , Chiefs and States in western India, Bombay education society's press, 1851, pp. 21-25.
8. J.C . Wilkinson : *The Organization of the Falaj Irrigation of Oman* , 1st Ed, Oxford , 1971.

9. Kelly , John ; *Eastern Arabian frontiers* , 1st Ed , London , 1964.
10. Kelly , John : *Britain and Persian Gulf* , Oxford 1968.
11. Lorimer J .G. Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia.Vol2, Irish University Press, 1970 .
- 12 . Miles , Samuel : *The Countries and Tribes of the Persian Gulf* , Second Ed, London , 1966.
- 13.N. Niebuhr : *Travel through Arabia* , Vol ii , 1st Ed , Edinburgh , 1973.
14. Sousa , Manuel de Friary : *The history of the die of India* , trans by : Coury and Conquest , Second Ed , Vol I w , Germany , 1971.
15. Sousa , Manuel de Friary: *Bahrain and Oman , Alwathiqa* No. 5 , July 1984.
16. Sykes , Percy : *A history of Persia* , 2 Volumes , London , 1958.
17. Wall Work , Tean : *The Portuguese Period in the East Africa* , Nairobi , 1968 .
18. Wilson , Arnold : *The Persian Gulf*, Second Ed , London, 1945.

